أوليبيِّرو كولِو

مَكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

البحث عن إستِلا

رواية

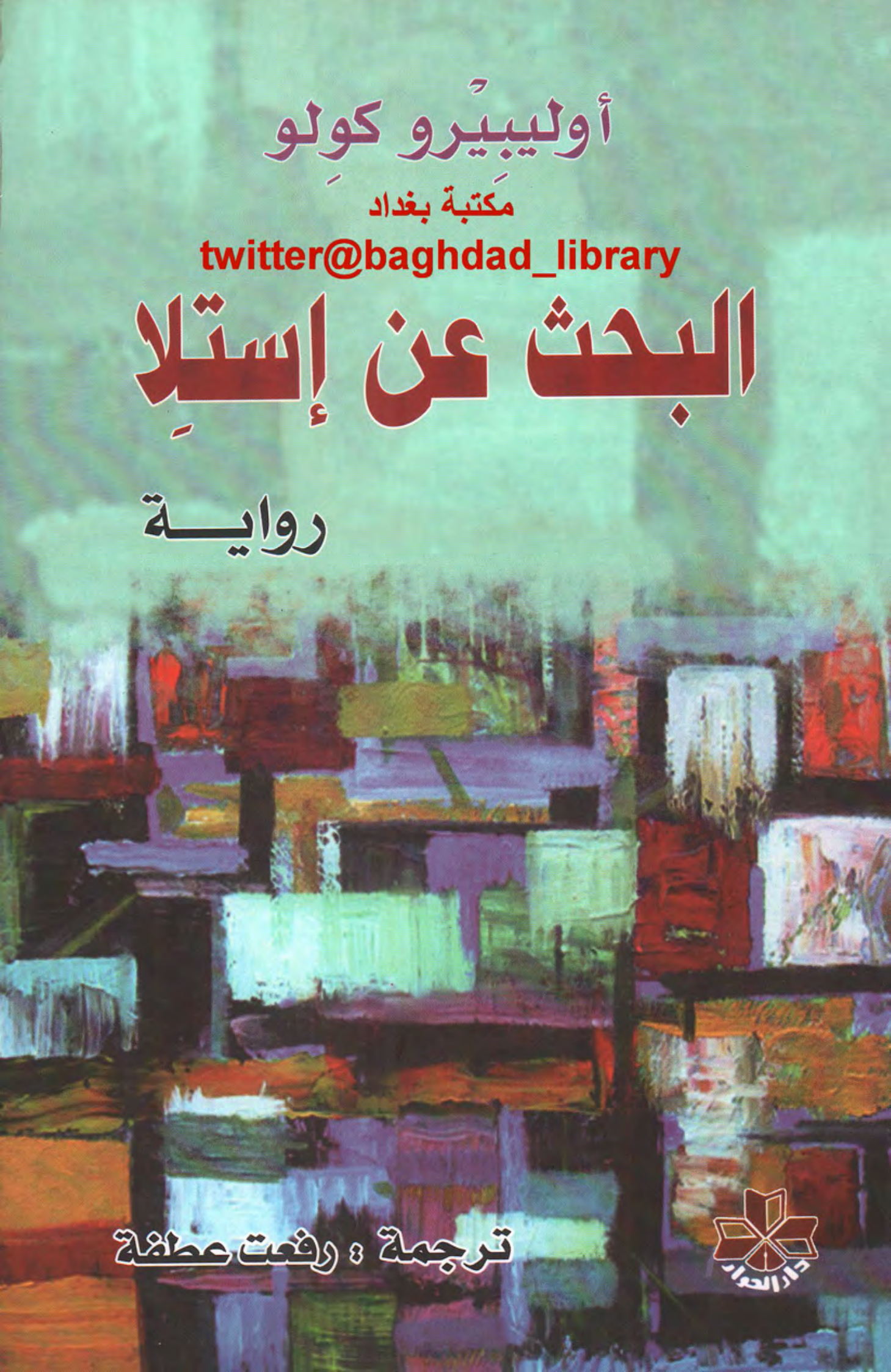

ترجمة : رفعت عطفة

دار الحوار

أوليبِيْرو كوِلو

البحث عن إستِلا

ترجمة: رفعت عطفة

دار الحوار

twitter @baghdad_library

إلى ذكرى والدي

twitter @baghdad_library

طالع

قبل أن يُتمّ إيفان العشرينَ بقليل، أكّدت له عرّافةٌ من الحيّ أنّ عدم معرفته بأبيه أسوأ من أن يكون له أخ ميت. "إنّ أخاً ميتاً يبقى في المطهر كروحٍ للأبد، لكنَّ أباك حيٌّ، أراه في عينيك، سيصلك رسول، ستُصغي إليه وستعمل بقوله، لأنّه سيُساعدُك، لا تَخَفْ، سيُساعِدُك". تُكرِّرُ، كما لو أنّ شيئاً عند إيفان يُزعجُها: البراءة التي تبدو حصانةً عند من لم يعودوا أطفالاً ويخلطون في إيماءتهم بين الرجل والمراهق.

تقول له إنّ الأمّ تهب الحياة لكنّ الأب يورَث، وتطردُه من الغرفة التي تشكل في أعماق زريبتها مستشاريَّتها.

يعتبرها إيفان مجنونة. لا يفهم هذه الجملة الأخيرة ويبقى أياماً يُحاول أن يُقْنِعَ نفسه بأنّ له أباً، مثل بقيّة البشر، وأنَّ هذا موجود، كما الله، في مكان ما.

بعد أسبوع يصل إلى بيته عجوزٌ له مظهر شحّاذٍ وعينان متوهِّجتان، يسألُ عن أمِّه. تستقبلُ جدَّتُهُ بثقل ظلّها المزمن الزائرَ في الباب وتُجيبه بأنّها ماتت منذ ثلاثة أشهر.

"من يعيش هنا؟" يسأل الرجلُ.

"أنا وحفيدي".

twitter @baghdad_library

"وهل حفيدك هو الابن الوحيد؟".

تُشير بالإيجاب. يطلب الرجلُ التكلّم معه. تتردّدُ الجدَّةُ. "انتظرْ"، تقول، وعندما تغلق بابَ الصفيح تُفكِّرُ أن من الغريب أنّها عاشت هذا المشهدَ وأنَّ ذلك الوجه مألوفٌ لديها. وسرعان ما تذكَّرت أنّ رجلاً له تقاسيم مُشابِهة، مريب كما لا يمكن أن يكون إلاّ الشرطيون المموّهون أو الانطوائيون، وصل إلى هناك يسألُ عن ابنتها بالطريقة ذاتها، كما لو أنّه يسألُ عن قريب بعيد. الآن وبعد عقدين ما عاد وجه هذا الرجل يُمثِّل أيّ تهديد.

مرّت عدّة دقائق حتى عاد وفُتح البابُ. في هذه الفترة فكَّر الرجلُ ذو العينين فاتحتي اللون بالذهاب، لكنّ الانتهاء من لغزٍ عالقٍ منذ سنواتٍ يُبقيه في الباب على الرغم من البرد. وبعكس ما كان يفترض فإنّ الشاب الذي يمثل أمامه بمظهر المستيقظ توّاً، كان صورةً طبق الأصل عن أبيه. وكان قد قلّب لزمن ريبته بأن الأمَّ تركت لوبو لأنّ الابنَ الذي أنجباه كان في الحقيقة من رجلٍ آخر. لكنّه في لحظة واحدة استبعد هذه الفرضيّة التي داعبها لسنوات بشكل مَرَضّي خلال ساعات فراغه.

يشعرُ إيفان أمام ذلك العجوز ذي العينين البرّاقتين ببعض الدوار ثم بالشفقة. يسأله قبل أن يتركه يدخل سؤالاً واحداً: لماذا يبحث عن أمّه؟ وهو ما ردَّ عليه الآخرُ بطريقة آليّةٍ بينما هو يفكّ أزرار معطفه المطريّ: "لأنّ أباك طلب منّي ذلك ذات مرَّة".

يدخلان بأمرٍ من جدّته، التي كانت سيّئة المزاج، ولا تريد أن يُخربا عليها برنامج القيل والقال الذي تشاهده في تلفزيون في غرفة الطعام.. يمضيان مباشرة إلى غرفة إيفان. كان هناك على رفٍّ صور لأمّه، وفي صندوق صغير أشرطة التسجيل التي كانت تستمع إليها قبل ما يُقارب خمسة وعشرين عاماً، عندما كانت تنام في تلك الغرفة الباردة بجدرانها المطلية بالكلس وأرضيّتها الإسمنتية.

ينحرف الرجلُ باتجاه الحمّام، دون أن يستأذن. يتحرّك ببطء يسمح بأيّ نوعٍ من الفضول. يتأثّر إيفان وهو يرى الزائر الذي كان يدورُ بَدَلَ أن يسير، كما لو أنّ وركه مُصابٌ أو أنّه أعمى. يشعر بأنّ هذا الرجلَ جزء من أبيه في الحاضِر: واحدة من تلك الخردوات التي تبقى طافية في الجوّ في المكان ـ الزمان عندما ينفجر مكوك فضائي.

يجلس بعدَ عودته من الحمّام ثمّ يحكي من دون مقدّمات، كما لو أنّه مجنونٌ يدخل في رؤيا، ما عاشه قبل سنوات كثيرة مع أبيه في بوِنوس أيْرِس وباتاغونِس بحثاً عنه، هو الابن. يقول له أيضاً إنَّه على الرغم من كلّ ما يمكن أن تكون قد حكته له أمّه، فإنّ لوبو لم يهجره. يُوضِّح له أنّه إذا كان يكشف له عن كلّ هذه الأشياء فإنّما يفعل ذلك كي يُصحِّحَ ظلماً ويعالجَ فشلاً. لم يعرف قط شيئاً عن لوبو خلال كلّ السنوات العشرين التي تفصل الحاضِرَ عن تلك التحرّيات غير المجدية، لكن قبل أسبوع، وحين قرأ اسمَهُ في إعلانٍ مدفوع الأجر، حضرته الحالة كما هي: شظية مغروزة في الضمير. قضيّة غير محلولة وفي الحقيقة لا معنى لنبشها إن لم يكن على شرف ما بقي له من حياة.

يُصغي إيفان دون أن يقول شيئاً. لسبب ما بدا له حديث هذا الرجل مُحتملاً. في حميميته كان دائماً يعتقد أنّ أمّه مسؤولة عن أنّه بلا أب. ثمّ إنّ كلمة شرف تُؤثّر به، كما لو أنّها كلمة سكّها والده في الماضي، وأنَّ هذا العجوزَ كنزها كي ينقلها إليه في الحاضر. عندها اعترف له أنّ أمَّه لم تُكَلّمه قط عن لوبو، لكنّها فعلاً كانت تُكلّمه عن أبيها هي، أي عمّن هو جدّه، الذي لم يكد يُمضي بضعة أشهر في حضنه، حتى مات خرقاً بالرصاص. يسودُ، بعد كشفه عن هذا، صمتٌ مُطبق. يُفَكِّرُ الرجلُ ذو العينين الفاتحتين كم كان قريباً من العثور على أمِّ إيفان! لو أنّه بعد أن ترك كارمِن دِ باتاغونِس لم يُمضِ فترة مريعةً من النقاهة كي يشفى جسده المثخن، ولو لم يُقرّر أن يرمي بكلّ شيء

twitter @baghdad_library

عن ظهر السفينة، بما في ذلك مهنته كرجل تحرٍّ، لكان حلَّ القضيَّة. فجأة يخرج إيفان من صمته المُطبق ويسأله بصوت متقطّع كيف عثر على أبيه. يقول له الرجلُ إنّه يبيع الصحفَ ويقرأُ كلَّ إعلاناتِ السيارات، لأنّه يشتري أحياناً سيارةقديمة ثمّ يعود ويبيعها. قبل أيّامٍ قرأ بالمصادفة إعلاناً يبيع فيه شخص يُدعى سيلبيو لوبو سيارةً مستعملة في سان مانوِلْ، البلدة القريبة من تَنديل. لا يظهر فيه رقم هاتف، لكن يظهر عنوان.

"ما نوع السيارة؟" يسأل إيفان متلهّفاً.

"لا أتذكَّرُ، فقط نسختُ العنوان"، ثم يخترع على الفور، كما لو أنه يفعل ذلك كي يرضي التطلّع والحيوية اللذين يلوحان على هذا الشاب، غائر العينين والهزيل: "أعتقد أنّها فولكس فاغن غولف، حديد..." ويتوقّف بغتةً.

"وهل كنت شرطيّاً؟".

أنكر الرجلُ، شارداً ومُحرّكاً رأسه. يتساءل عمّا إذا لم يكن من الأفضل له لو أنّه عاد ليقامر في العشرين سنة الماضية، بدل أن يدفع قرضاً ربويّاً كي يصبح صاحب كشك للصحافة في حيّ مقفر. وتساءل أيضاً عمّا إذا كان لوبو قد احتفظ له بدفاتره في مكان ما آمن. تلك الدفاتر هي الشيء الوحيد الذي يشتاق إليه، على الرغم من أنّه كان مقتنعاً بأنّ الإحصاءات والثوابت كانت في العمق مسؤولة عن سوء حظّه. وبفقدانه لتلك الدفاتر تخلّى وللأبد عن الفم الذي يغوي به الشيطانُ التعساء. ومع ذلك فإنّ هناك شيئاً يتأجّج في داخله: تمام الرجولة ذاته الذي يكبر في الرهان. يُستنفَد هذا الإحساسُ بعد دقيقة ويُخلّف مثل حجر ملقى في الماءِ، حزناً ينغلق على نقطة: "أين الله؟".

لاحظ إيفان أنّ الأفكار جرفت محدِّثَهُ خارجَ المشهد. لكنّه لا يجد الكلمات التي ينقذه بها. يظنّ أنّه هو الذي تسبَّب بهذه الحالة من الروبصة. يفترض أنه لو منح هذا المجهولَ ما يكفي من الشفقة لأفلت سرّاً ما آخرَ. ذلك أنّ هذا الرسولَ موجودٌ بحسب ما تكهَّنت له به البصّارةُ، صديقةُ جدّته،كي يُساعده.

"إذا ذهبت للبحث عن أبيك، فإنّك ستجده، احكِ له كلَّ الذي قلته لك. هناك خبَّأ بعض دفاتري. إذا كانت عنده، أحضِرْها معك واهتف لي، وسأكافئك"، قال الرجلُ فجأة وسجَّلَ على ورقةٍ رقمه وناولها له بينما هو ينهض. "لا تُضيّعها".

"ماذا؟ ستذهب الآن؟ ستذهب هكذا؟"، يحتجُّ إيفان بإحساسِ مَنْ تفلتُ من يديه فرصةُ أن يكون متواصلاً مع شخص يحتفظُ في مكان ما من تعبير وجهه بإيماءةٍ من أبيه، ما زال عليه أن يكتشفها.

يتساقطُ العجوزُ على كرسيّه ويُبرِّرُ: "حزنتُ... حدثت عندي فجوة. لكن إذا أردتَ بقيتُ. عمَّ كنّا نتكلَّم؟"

يتنفَّس إيفان عميقاً ويجيبُ بأنّه لا يتذكَّر، وأنّه لا يريد الآن إلاّ أن يعرف أكبرَ قدر من الأشياء عن أبيه، لكنّه لا يعرف كيف ولا ماذا يسأل. يداه ترتعشان. لا يعرف ماذا يسألُ، لأنّه لم يعتقد قط أنَّ فرصة كهذه يمكن أن تأتيه. أيضاً لم يكن يظنُّ أنَّ لحظةَ قراره بأن يذهب إلى أبيه ستأزف بين يوم وآخر. تخيّلَ بالمقابل فعلاً أن يقوم بتحقيقات طويلة الأمد، حبّاً بالمغامرة والمطالبة الشخصيّة أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

الفضيلة الوحيدة لكونهِ لا يملك أباً هي أنّه يستطيع أن يتصوّرَهُ على هواه، لكنّها عُلِّقَت بعد الذي حكاه له العجوز. الآن يشعرُ بالرغبة بالتمسّك بهذا الرجل ذي النظرة الشفافة، بالرغبة بألا يتركه يذهب أبداً، كما لو أنَّ الأمر يتعلّق بأبٍ ثانٍ، يحمل في داخله الأبَ الأصليَّ. يرجوه أن يُرافِقه إلى تَنديل، ذلك أنّه لم يُسافِر وحده ولم يَنَمْ خارجَ بيته قط. العجوز وإن لم يكن يستبعد الاقتراح، إلاّ أنّه لم يكن يستطيع إلاّ أن يَظْهَرَ مُتردّداً، لأنّه ليس عنده، بين أشياء أخرى، من يبقى في كشك الصحافة ويُطعِم طيورَ الكناري، التي تُسعد عمرَه كأرملٍ. يعرف أنّ رحلةً كهذه هي أفضل ما يمكن أن يحدث له في الثامنة والسبعين من عمره، إذا ما ترك جانباً الميتة الطبيعية والسريعة.

twitter @baghdad_library

كان أوّل ما سارعت الجدّة لفعله ـ بينما الزائر يُغادر وبعد أن سمعت شهادةَ حفيدها ـ هو أنّها أمرته بأن يذهب للبحث عن أبيه ويتركها بسلام أيّاماً، أسابيعَ، شهوراً أو سنين. تُعطيه كلَّ النقود التي، بحسب قولها، وفّرتها، وتقول له أن يحلّ لعنته بنفسه. لا يردُّ إيفان عليها. يسأل نفسه ما هو الأقسى على الإنسان؟ أن لا يكون قد عرف أمَّه أم أباهُ؟ يُدير ظهره لجدَّته مصمّماً على ألا يطأ بعد الآن زريبة الخنازير تلك. يُطلق تلك الجملة الوحيدة الناكرة للجميل إلى هذا الحدّ أو ذاك: "شحيحة، هذا لا يكاد يكفي لبطاقة السفر".

"تافه الـ.."

ينسلُّ هو، الأرشق، ثمّ وقبل أن يُغلق بابَ غرفته بالمفتاح، كما كان يفعل مرّاتٍ كثيرة بعد موت أمّه، يُلاحِظُ أنَّ جدّته تتنقّل في الممرّ مثل بطريق، مشتاطةً غضباً، ممسكة بحذاءٍ كي تضربه. كانت أمّه تحميه عادةً من ثورات غضب هذه العجوز الضخمة، التي كانت ترى فيه أصل كلّ الفجائع التي حلّت بابنتها. بعد موتها ازداد هذا الانطباع عند الجدّة حتى أنّها صارت تتخيَّل في لحظاتِ الكراهيةِ العميقة طُرُقاً للتخلّص من هذا المجهول. وبما أنّها كانت واثقة من أنّ هذا الولدَ غير ذي نفعٍ، فهو لن يرحلَ أبداً، كما لن يأتيها ببيسو واحد إلى البيت، فقد سرحت بخيالها بصوت عالٍ مع فكرةِ أن تخنقه بالوسادة بينما هو نائم وتقبره في أعماق البيت. لن يلاحظ أحدٌ في العالم غياب حفيدها، إذا لا يوجد شخص بتفاهته. لذلك استغربت حين طلب منها أحدٌ، قبل ساعات، التكلُّمَ معه. لو أنّه انتابها خاطر بأنَّ هذا الغريب سيكون عامل تخليصها منه لكانت تركته يدخل فوراً، بل ولكانت قدَّمت له ماءً.

يهتف إيفان قبل يومٍ من صعوده إلى الحافلة إلى الرجلِ ذي العينين الشفافتين، واثقاً من أنّه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتعرّف على أبيه. الصحيح هو أنّ الرجل لم يفعل في الأيام السابقة شيئاً آخر غير أن يتمنى مرافقة إيفان، حتى أنّه يخفي، عندما يتلقى المكالمةَ فرحَهُ، ويضع اعتراضات

غير ذات بال، ملمحاً إلى العناية التي يتطلّبها شخص بمثل عمره. يعده إيفان بأن يرعاه ويعوّضه جهدَهُ بالمال الذي يخطّطُ لكسبه في الطريق. عندئذٍ يؤكّد الرجل أنّه سيُرافِقه، شريطة ألاّ يستغرق السفرُ الأسبوعين، سيتكفل خلالها صديقٌ له بكشك الصحافة وبإطعام كناریاته. يتفقان على ساعة ومكان لقائهما في محطّة رِتيرو.

twitter @baghdad_library

I. الرجل الذي لا نظرة له

twitter @baghdad_library

ـ 1 ـ

كلّ مساوئ الشيخوخة حلّت بِدورا، عندما أعلن ابنها سيلبيو لوبو ـ ابنُ الأربعين عاماً ومعه مدخراتٌ مصدرها فسادة، الذي بدأ يتمادى فيه بفضل ترقياته، وتحالفٍ أحكم حبكه مع ثلاثة من مفتّشي البلدية، أنه سينتقل ليعيش وحده، وسيشتري، ليس شقّة في جوّ رأت أمّه أنّه مقدَّر له، بل شقّة من ثلاث غرف مع ملحقٍ سيخطّط كما وضّح، أن يُكوِّن فيها أسرة ويمارس حياةً أخرى مع امرأة ستكون مستقبلاً ودون شكّ امرأته الوحيدة.

كان لوبو، قبل أن يتعرَّف على إستِلا دوران، في مطعم منحطٍّ، يتردّد عليه سائقو سيّارات الأجرة والسكارى، ويُخطّط كي يضمّها إلى حقيبة اللحظات الحرجة، قد دعا للخروج معه بضع عشرة امرأة حتى ذلك الوقت من خلال صديق له في العمل اعتاد أن يصلَهُ بصديقةٍ، ابنةِ عمّ أو أخت. جميعهن وبالتساوي، حتى المجنونات والشبقات منهنّ، كنَّ يهربن مشمئزاتٍ من تفاهته ونهمه الإنجابيّ، الذي كان يقطر من عينيه الوادعتين والغراميتين. كما أنّه جرَّبَ حظّه مع الإعلانات المبوّبة، وعشق محنّكاتٍ مطلقاتٍ، نساء باهتات كنّ ينتقمن من الجنس الذكري، متظاهرات بأنّهن يمضين أكثر ما في ليالي المتعةٍ من عبثية، والتي كان لوبو يعرف خصائصها جيّداً ويتساهل معهن لأنّهنّ مستأجرات. ومن كلّ حالات الإخفاق لم يأسف لوبو إلاّ لأنّه لم يستعرض أمام دورا أيّاً من غرامياته الحقيقيّة التي تختبر شهيّة الأمومة

twitter @baghdad_library

عندها. بالمقابل بدا أنَ غياب هذا الاستعراض في تعايش دورا مع ابنها الوحيد، الذي عادة ما يُعَرّفونه في محل حلاقة الحيّ بأنّه مأبون وعانس،كان يُبهجها.

عندما رأى إستِلا اكتشف فيها جوهرةً خاماً. امرأة لا يبدو أنّها عانت ولا أنّها تكرهُ أحداً. كان لها الطبيعة المشاكِسة لشابّة توشكُ أن تصير امرأةً، وهو ما شعر لوبو أمامه في البداية بأنّه منحرف. كان يشتهي المرأة ذاتها التي يشتهيها غالبية السكارى وسائقو سيارات الأجرة الذين كان يأتون إلى المشوى، ويطلقون بين الفينة والأخرى وقذاراتهم اللطيفة مثل "لا أريد أن أعرف أنّ هذه المؤخّرة تجوع". هذا هو النوع من النساء الذي أحبّه دائماً: بالإضافة إلى سمرتها وعينيها الداكنتين، وبفضل أنّها ما تزال شابّة يجب ألاّ تكون قد لقيت معاملة سيّئة، وبالتالي يمكن أن تثق بل وأن تعشق رجلاً مهتمّاً، ليس باللقاءات الجنسية المحضة، بل بشكل سماوي من البناء الإنساني: التخطيط لأسرة. عندها فكّر بأنّ تلك المرأة ليست صعبة المنال. وكانت له ميّزة موضوعيّة: يتداخل مظهره كعانِس، على النقيض من بقيّة الرواد، مع مظهر الرجل النزيه.

زار المشوى مرّاتٍ عديدةً. كان صاحبه رجلاً فاتر الهمّة، له مظهرُ فيلِ بحرٍ، وكان امتلاك محلّ بالنسبة إليه بمثل كبرياء ابنٍ لِـبوِنوسأيْرِس، وكان عادة ما يدعوه لطاولته، وهذا ما كان يعزوه لوبو إلى تساهله معه في عمليات التفتيش الصحية. عندما صار تردّده على المكان مثاراً للريبة، استطاع أن يُكلّم صاحب المحل عن قضية السمراء. لمسَ الرجلُ شاربه كي يُخفي ابتسامته ويُتمتِم: "كان باستطاعتك أن تقوله لي منذ البداية... انظر... الآن بالضبط طَرَدْتُ صبيّاً... تعالَ غداً عندما نُغلق وسأُسَوّي لك كلّ شيء كي تخرجا معاً. تأتي أنيقاً، عندك سيّارة، الأمر منتهٍ. لا يهمّ أن لا يكون معك مليماً زيادة" وعلى الرغم من أنّ لوبو شعر بلمسة احتقار إلاّ أنّه شعر بأنه مرتاح لتفاؤل صاحب المحلّ.

في اليوم التالي صفَّ السيّارةَ مقابلَ المطعم الشعبي. نزل بتؤدة كي تراه إستِلا ينزل من سيارة فورد سييرّا. كان يرتدي ثياباً ذهب في اليومِ نفسه واشتراها من أونثِ: سترة بنّية، قميص مُقَلم، كنزة بمربعات ومعطف مطري لاحتمال أن يصدق الرصد الجويّ فتُمطِر. ما إن جلس في العمقِ بقرب الطاولة التي يقوم فيها المالك بجرد الحسابات في الساعة الأخيرة حتى وجّهت إليه نظرة تواطؤ بل واستعطاء. كانت عيناها تلمعان لمعان العارفة جيّداً. لم يحْتَجْ لوبو أن يقول شيئاً كثيراً حين قامت هي بخدمته: "هل سنتناول شيئاً فيما بعد؟ وهو ما ماءت له إستِلا قائلة: "أخرجُ في الواحدة، انتظرني عند الزاوية".

على جادّة ريبادابيا وعلى مستوى محطّة لينييرس، رأى واحداً من محلات الويسكي التي تقاوم مرور الزمن: أنوار خافتة، أضواء في السقف، جوّ دبق ورومانسيّ، منضدة العرض من المطاط الاسفنجي منجّدة بالجلد البنّي، ومن درجة اللون ذاته المقاعدُ الدوّارة، التي كانت تؤوي حزن التجار المنهكين من التضخّم المالي الكبير.

على منضدة العرض كانت تغفو عاهرتان، تلفان ساقاً فوق ساق، وتسندان مرافقهما على المنضدة، كما لو أنّه مضى عليهما ساعات بل وأيّام في تلك الوضعيّة. كان نور المصابيح القاسي يبرز زينتهما. فيبدو كأنّه يُعاقِبُ تلكَ التقاسيم التي لدمية قديمة.. كلما كان النادل يتكلّم كانتا تتظاهران بابتسامة آلية. كان الفتى قصيراً وله ملامح ضفدع وآداب قوّاد. كان يتأخّر في خدمتهما على الرغم من أنّه ينظر إليهما بين فينة وأخرى، كما لو أنّه يريد أن يمنحهما الفرصة كي تهربا. أمام هذا التأخّر المقصود تساءل لوبو عمّا إذا كان ممكناً أن يتذكّراه في ذلك المكان أثناء عملية تفتيش بعيدة أدّت إلى إغلاق المحل أو رشوة.

twitter @baghdad_library

الطريقة التي كان ينظر بها هو إلى منضدة العرض، باحثاً عن النادل، كما لو أنّه نادم على الموعد، ولّدَ بدوره عند إستِلا بعض الارتباك. "إذا أردت أذهب" قالت جامعةً يديها فوق الطاولة.

"ماذا؟" وقصّر الطريق ـ كما لو أنّ الفريسة تُهدّد بالاختفاء ـ بجُمَلٍ مدروسةٍ وجوفاء، استخدمها دائماً ولم تعطهِ قط نتيجة. أطلقت هي ضحكةً خجولة وتركت لوبو يُداعب يدها، يمرّ على جانب ذراعها ويلفّ برأسي سبّابته والإبهام الزغبَ الناعمَ الذي كان يُغطي جلدها.

"ماذا؟ هل صرت تحبّني؟ نحن لا نعرف بعضنا".

"يا إستِلا، أنا منذ رأيتُكِ أحبُّك. كما لو أنّنا نعرف بعضنا من حياة أخرى"، قال لوبو مستخرجاً من لائحته جملة أخرى جاهزة وناسياً على الفور أنّ رجل منضدة العرض ظل غير آبهٍ به. مرَّت بجانبه العاهرتان وخرجتا. عندها سيارة تاونوس كوب أمام الباب توقفت، فصعدتا إليها بوداعةٍ مثل ضاريتين مروَّضَتَيْن. لم تستطع إستِلا أمام المشهد أن تكبح ابتسامةً بدت للوبو غريبةً: "مِمّ تضحكين؟"

"لا شيء"، نظرت إلى عيني لوبو وأضافت: "مما سيفعلون الآن".

"نحنُ نستطيعُ ذلك أيضاً".

تأخَّرت هي في الردّ: لم يكن لوبو يعجبها كبقيّة الرجال. كانت تحدسُ بأن وراء هذا الاستسلام مستقبلاً، لذلك، ولكي لا تفشل شيء أرادت أن تناوِر بالشيء الوحيد الذي كان لصالحها إذ ذاك. "وماذا لو انتظرنا؟".

حرّك هو رأسه ببطء، كما لو أنّه تلقى جواباً سلبيّاً: "أعرفُ أنَّك ستكونين زوجتي".

لم تعرف هي ما إذا كانت ستشعر بأنّها مُشرَّفة أم أن عليها أن تشكّ بثقته بنفسه، فخلف هذا الرجل المسالم يمكن أن يقبع فاسدٌ. "حسن، لكن فقط ننام... يا سيلبيو، صعب بالنسبة إليّ". أحدثت كلمة "صعب" عند لوبو رضا. تصوّر بسبب هذه الصعوبة أنّ هذه الشابّة التي لا تنتمي إلى طبقة، لم

تكد تنام مع أيّ شخص. وهذا ما يأتي ليؤكّد طهراً عَرَضيّاً يجعلها مرشّحة تامّة كي تتحمّل أسرة.

جاء نزلُ فرعون المؤقّت في لينييرس بالنتيجة مناسباً للوبو. كانت له نظافة عيادة خاصّة، قطع سيراميك مشمّعة وكبيرة كشاهدات قبور. لطف عمّال الاستقبال المحافظين على مسافة مع الزبائن الذين كانوا يَصفون، مثل التجار المسافرين، ميِّزات التجديد الوحيد في العنوان ـ غرف مصنّفة فيها مساجات مائية ـ كانت توفّر الأمان والراحة. الغرفة التي اختارها كانت متوسّطة، خضراء وبرّاقة ولها فناء فيه حديقة شتوية، تُحاكي في هذا الحظار الضيّق الدغل.

مرّة في الأسبوع في اليوم ذاته والساعة ذاتها وخلال شهرين عادا إلى الفندق ذاته، إلى أن استغلّ لوبو أنّهم سرقوا له الفورد سييرّا في مركز المدينة ذاته، كي يُسرّع حيلته ويقترح نقل اللقاءات إلى شقّته التي دشّنها توّاً.

بعد شهرين آخرين من الاختبار قبلت مدفوعة بشخصيّة لوبو المتسلطة ووضعه الاقتصادي، أن تهجر بيت أمّها في الضاحية وتنتقل إلى منطقة المركز من حيّ وثير وحيد اللون، مثل حيّ كابايِّتو. بعد أشهر قليلة ستنطلق الرغبة بالأبوّة عند لوبو، وإستِلا الحامل،، بدأت تُصبح مجهولة لذاتها.

ـ 2 ـ

حين غادر المشفى كان يوم أحد وكان الفجر يبزغ. أوقف سيّارة أجرة. بدت له بوِنوس أيْرِس من خلال النافذة القذرة أطلالاً. رأى أشجاراً منحنية وعارية، يبدو أنّ الفجر يتأخّر فيها. كان المشفى يبدو من بعيد تلك المادّةَ

twitter @baghdad_library

الأبدية لمعملٍ مهجور، ولا ينقصه إلاّ المداخن والنوافذ المحطَّمة. كان كلّما ابتعد أكثر كلمّا أدرك أنّه يعيش مرحلة ما بعد العملية. مرحلة زمنية جديدة، مثل مريض مُخدَّر،لم يتأقلم معها لوبو. إعالة وليد منحته طاقةً متناقضة: أب محصّن، بهيمة مجروحة. راجع أسماء ممكنة لابنه. كان الأمرُ شبه محسوم: إيفان.

كانت بِلِن، كما هي العادةُ، قد أسدلت الستائر، ورفعت صوت الموسيقى. كانت الشموع الاصطناعية تُضفي على المكان جوّاً سرّيّاً. في هذا الجوّ المقفر كان هناك زوج من تماثيل عرض الملابس، آلة خياطة سينجر على طاولةٍ قصٍّ وتصميمٍ وكرسيّ كبير. في الغرفة الأخرى، التي كان لوبو يُفضِّل عدم زيارتها، سرير زوجية وتلفزيون. ما إن كان يدخل إلى ذلك الملاذ ـ المعبد ـ حتى يفقد أيّ فكرة عن الزمان والمكان ويغوص في أسْرٍ تام.

"كانت البارحة أطول ليلة في السنة". اليوم الأكثر نشاطاً. "أين كنت؟".

"في بيت سيّدتي": ردّ هو، مدركاً أنّ لكلمة سيّدة تأثيراً خاصاً على بِلِن.

"وبلغ منك الملل أنّك جئت ترى عاهرتك الصغيرة..."

وافق بابتسامة. أجابت هي بفكّ أزرار بنطلونه. "هل ستأخذني اليوم؟" وانحنت فوق الكرسيّ الذي انهار لوبو عليه. غاصت بلسانها بخاله السعيد، لؤلؤة من فولاذ غير قابل للصدأ راحت تلويه كما لو أنّها ترتجل عملية تنظيف. أصرّت: "هل ستأخذني الآن؟".

"على الأرض، يا عاهرتي الصغيرة".

ثنت ساقيها وسحب لوبو سروالها الخيطيّ، وعلى الرغم من حجمه المنمنم فقد كان رخواً كما لو أنّ جسد صاحبته ينقصه مادة ينشدّ حولها. كان للحم بِلِن وجلدها النسيجَ الرخوَ الذي لتلك الأجساد التي اجتازت المرض وعادت إلى العالم بلا عضلات ولا بنية. كان جسداً مُعلّماً، متبدّلاً وجديداً في آنٍ معاً، كان لوبو يتأخّر في كلّ مرّة في التعوّد على هذا الجسد. يمتلكه مراتٍ

ليست قليلة مهتدياً بسقم رءوم: فكرة أنّه يداوي جسماً مريضاً مغطياً إيّاه بشهوته.

داعب، قبل أن يحملها إلى الأرض، ندبة كانت تُحيط بإحدى حلمتيها. كانت العلامة تُضفي على ذلك الجسد المريض والمجهول ماضياً نبيلاً. على الرغم من أنّه كان يحدس من خلال خصائص الجرح أنّها ناتجة عن عملية جراحية، خيّبه هذه المرّة افتراض أنّه يمكن أن يكون أثراً عاطفياً، على الرغم من إثارة بِلِن المستمرة إلاّ أنّه لم يتمكّن من تحميةِ نفسه تماماً، أو أنّه خرج من المشهد حين وضع اهتمامه على شيء لم يعطِه أهمّية قط: كانت تئنّ، بينما هو يمتطيها، بطريقةٍ ناعمة، كما لو كان أحداً ما، ذلك الشبح الذي نحت تلك الندبة، يحرقها من الأسفل بلهب ناعم جدّاً.

"لا همّ، أحبّ أن تلمسني... ماذا؟ أنت لم تعد تحبّني؟"، سألته هي.

هزّ برأسه، حضنها من الخلف وطلب منها أن تقف وتخرج له حمامته. وبانحناء بِلِن بزاوية خمس وأربعين درجة، حانية ظهرها أمسكت بأحد التمثالين، رطّبت بدفق من فمها إستَها وأبعدت ما بين ساقيها. عانق لوبو تلك الزوجة المصطنعة، ثمّ وقبل أن يستنفد إسفاده صفع هذه وتلك: اختلط صوت اللحم والبلاستيك، كما لو أنّ شكلاً حيّاً حبيساً فيهما يصبُّ في مادّتين مختلفتين. هكذا تدفّقت، بضراوة بطيئة، طاقة حلمية من هذا اللقاء الزوجي الثلاثي. تجمّدت حصانة لوبو العاطفية حين شعر ـ أو تذكّر ـ بالتناقض الوحشي القائم بين عظام بِلِن وعظام إستِلا، كما لو أنّ واحدة منهما كانت القالب والثانية ناتِجَهُ. صادف سقوط تمثال العرض مع نهاية العرض الحيّ. بقيا مستلقيين على الأرض. شعر لوبو ببعض الذنب وإن لم يصل حدَّ أن يسأل نفسه: لماذا؟ ذلك أن فكرة الحماية فرضت نفسها على الفور: كانت بِلِن من غرابة الأطوار بحيث أنّ أحداً لم يكن ليملك الجرأة على حبّها. كانت قصّة الصدود قد فعلت في ذلك الجسد الجميل فعلها واستنفدته. وعلى الرغم من أن انعدام الشخصية والمرض كانا يصبّان في نحولها المطلق، فإنّ الخلاخيل

twitter @baghdad_library

والوشوم التي خلّفتها فيها خلال سنواتها الثلاث من المنفى تلك المخدراتُ القويّة في إيبيثا، كانت ثورتها حيويّة فاجرة، كما لو أنّ كل الذي يحمله جلدها شاهدٌ على مجتمع مستقبليّ.

بقي لوبو صامتاً. حمله شيءٌ في موضوعِ الوشم على الذراعين والخصر إلى أبوّته. كان ابنه قطعة من بهيمة مقدّسة تشظّت ألف شظيّة. لم يشعر بأيّ ذنبٍ لوجوده في ذلك المعبد الخاصّ. فهو أوّلاً وأخيراً لا يستطيع أن يكون في أيّ مكان آخر حين يتزاحم الضيقُ والإحساس الغريب بالسعادة. كانت زياراته الدورية والمتهوّرة، منذ أن أصبحت إستِلا حاملاً، تستجيب لحاجتهِ لأن يكون مجهولاً في ضياعه أكثر مما تستجيب لدوافع الشبق. ومع ذلك كان يُدْرِكُ، بعد يوم أو يومين من بقائه معزولاً عن العالم، كيف أنّه، ككلّ الرجال الذين عرفهم تقريباً، لم يكن عنده الجرأة على أن يُحبّ امرأة مثل بِلِن، وكان يعود إلى إستِلا دون توضيحاتٍ ولا اعترافات.

- 3 -

كان لوبو يخرج خلال أيّام الأسبوع صباحاً ويعود ليلاً. كان يذهب في بعض أيّام السبت ويعود ليظهر مجدّداً الأحدَ مساءً، يخلع حذاءه، يفكّ أزرار قميصه ويستلقي على السرير بكلّ طبيعيّة، كما لو أنّه عائد من شراء سجائر. كان يُبرِّر غيابه بطبيعة عمله في البلدية، ولم يتوقّف قط ليُقدّم توضيحات لم تطلبها إستِلا منها.

صار لوبو، منذ أن عادت من المشفى، يُبالغ بلفتات سخائه المالية كي يُغطّي هذه الحاجة المستعجلة أو تلك النزوة. ولم يكن خلال الوقت القليل

الذي يُشارك فيه إستِلا، حين يُشاهِد التلفزيون ليلاً، يتكلّمُ عن العلاقة الجديدة بينهما. كان يسألها عمّا إذا تكلّمت مع أهلها، وبما أنّها كانت تفترض أنّ السؤال يعني المنع، صارت تُؤكّد له، دون أن تكذب، ما كان يريد أن يسمعه: "لا، لا لم أتكلّم بعد"؛ "ربّما أُكلّمهم الشهرَ المُقبِل". والمسألة ليست أنّها لم تُحاول أن تتكلّم مع أمّها، بل إنّ المجيبَ على الطرف الآخر كان يجيبها بأنّ الرقم المطلوب خارج الخدمة، وعندها لم تكن تصرّ كثيراً: عندما يكبر الصغير قليلاً، سيكون لديها وقت لتخرجَ من البيت وتأخذَ القطار وتعود إلى الضاحية وقد صارت أمّاً، وكانت أمّها نفسها تتنبّأُ، في مشاهد تحدّ وحسدٍ، أنّها لن تصبح كذلك.

كانت إستِلا تدور، كي تقضي الساعات الميتة، حول ذلك الكوكب الصغير، الذي دخل حياتها: كانت بالإضافة إلى أنّها تبدّل له الأقمطةَ، تلبسه ملابسه وتنزعها عنه، تُجرّب له ملابس أمام مرآة الحمّام، تُلاعبه أو تتأمّله طويلاً في مهده. وكان يقنطها أنّه، بخلاف الرضّع الآخرين الذين كانوا يضحكون أمام أدنى حركة، كان يبكي وينام فقط، وأنّه خلال الشهر الذي مضى على ولادته لم يصدر أيّ غمغمةٍ يهلوس بعدها بكلمة. ثمَّ إنه كان عندما يرضع يفتح عينيه وينظر إليها بثبات. كان يبدو أنّه يشع نوراً مؤذياً، وينكشف عن وجهين: وجه طفل ورديّ وطريّ من ناحية، ورجل متوحِّد من ناحية أخرى. هذا النور كان يشير عند الأب إلى حصانة يقشعر لها بدنه. لم تكن إستِلا تعرف ذلك، لكنّ لوبو، الذي كان حتى تلك اللحظة قد امتلكها وعمل كلّ ما بمقدوره على حمايتها ورعايتها، صار مبهوراً وفاغر الفم أمام الأبوّة، مثل أرنب أمام نور سيارة وسط الطريق. وفي كلّ مرّة كان يسير فيها في البيت، متروبصاً ويفتح الثلاجة ـ في كلّ ساعة ـ كان يبدو أنّه يجرّ ثقلاً غريباً. عندما كانت تشعر بيده تحت الملاحف دون شهيّة ولا خبرة كان ينتابها شعور بأنّ حيواناً صغيراً يُشمشم بحثاً عن بقايا، وتتساءل عما إذا كانت هذه اليد أكثر طبيعية قبل الحمل.

twitter @baghdad_library

بعد عودتها من المشفى بقليل اقترح عليها لوبو أن يتعاقد مع عاملة تُخفِّف عنها أعمالها المنزلية فأجابته على الفور: "لا ينبغي أن يترعرع الولد بين غرباء". الآن وبعد شهر ندمت. العاملة ليست جدّة غيورة، خاصّة في العام الأوّل من عمره، فهي لن تحدث عند الصغير تَعَلُّقاً ولا تشوّشاً. فكّرت أنّه إذا عاد لوبو في تلك الليلة قد يعيد طرح الاقتراح. في تلك اللحظة بدأ إيفان يبكي، فأخرجته بسرعة مدمّرة أخرجته من المهد وقرّبته من حضنها مشيحةً بنظرها عنه. أطلّ الوليد برأسه، حرّك ذراعيه جزافاً وأخيراً امتصّ، فأغمضت عينيها كي تبعد فكرة أنّها كانت تشدّ في حضنها على مصّاصِ دماءٍ أدردَ سرقَ من لوبو روحه. تأخّر الرضيع حتى شبع. كان هذا النهم قد أزعجها منذ البداية، ولم تعرف كيف تتكيّف مع مراحل هذا الانفجار الثديي: أوّلاً كَبُرَ البطن والوركان والثديان، والآن: آخر ما كانت تنتظره من رضيع، التماس وامتثال مستمرّ للغذاء اللذيذ الذي يفرزه جسدها.

فجأة غفا الرضيعُ. ركعت هي إلى جانب المهد كي تبكي. كان نور المساء أملس بشكلٍ عجيب، ويحدث نوعاً من اليمبوس في تلك الغرفة التي كان قد قرّر لوبو أن يطليها بالأزرق السماوي، دون أن يستشير أحداً. ابتسمت حين تذكّرت مسلسلات التلفزيون التي كانت تُشاهدها في طفولتها إلى جانب أمّها بعد المدرسة. كان يكفي تهرب كما في تلك المسلسلات التلفزيونية الفنزويلية. تترك هذا الابن يعيش مع لوبو، الأب الحقيقيّ ومسبّب الحمل وسند العائلة. حاولت أن تفهم لماذا وكيف التقيا.

لم ينتبْها شكٌ بأنّ لوبو، ومنذ اللقاء الغرامي الأوّل ـ عندما تبيّن له أنّها كانت واحدة من النساء القليلات اللواتي لا يقدمن عوائق أمام فكرة الإنجاب ـ قد تابع مخطّطه حتى حقق معايشة، بما في ذلك قبول تأجيل الزواج، الذي فضّلت إستِلا تركه إلى ما بعد ولادة إيفان لعدم شعورها بالأمان، كما لو أنّها أرادت أن تحتفظ لنفسها بإمكانية التخلّص من لوبو من خارج القانون. ومنذ الولادة راحت تتحوّل بطريقة غير محسوسة، إلى طفلة ـ أمّ أنجبت بعملية

قيصرية، والمولود الجديد راح يتحول إلى جزء مقتطع من سيلبيو لوبو: روحه المتحولة إلى مصّاص دماء. ربّما كان هذا هو أصل الاستغراب الذي كانت تشعر به إستِلا تحت الملاحف، وتفكّر أنّه بعد مضي الأربعين يوماً من التعافي بعد العملية التي نصحها بها الأطباء، سيعود لوبو إلى حملته بحثاً عن ابن ثانٍ.

خلال النهار تحرّكت ضدّ إرادتها، كي تُرضع إيفان مرّتين أخريين وتبدل له طماقاتهَ. عاد لوبو ساعةَ العشاء. عانقها، كما لو أنّه لم يكن من الممكن أن يحدث شيء بين غيابه وعودته، أخذ إيفان بين ذراعيه، تسلّى ببعض الجامبو والزيتون من البرّاد، صبّ لنفسه كأس نبيذ أحمر، ومن كرسيّ غرفة الطعام تأمَّل اللوحة العائلية التي كانت تشكّلها إستِلا وإيفان. كانت إستِلا واقفة على خلفية إطار الباب في وضعية مصطنعة، كما لو أنّها اتخذت وضعية لرسام. كانت تحمل الصغير، مُتضايقة.

"لماذا لا تجلسين، يا إستِلا؟"

"أنا مرتاحة هكذا، لا تقلق".

"حسن، لكن دعيني أنظر إليكِ، الظلمة شديد، لماذا لا تشعلين النور؟". وقبل أن تقوم بردّ فعل نهض هو ليُشعل أضواء المروحة، وتخلّى عن النبرة العذبة، كما لو أنّه بَدّل مزاجه في الطريق، واشتكى: "خسرنا واحد ـ صفر بضربة جزاء، مارادونا لم يفعل شيئاً، حتى أنه لم تسلل. أسوأ نهاية لكل كؤوس العالم".

"لا تهمّني كرةُ القدم، دعنا لا نتكلّم عن هذا أكثر". ردّت هي: "شربتَ كثيراً، رائحتُك تصل إلى هنا". لم تره إستِلا في تلك اللحظة كغريب فقط، بل ظنّت أيضاً أنّها اكتشفت فيه شيئاً خاصّاً بسيّدة في انحناءة ظهره ووركيه العريضين. هو أيضاً يبدو أنّ الحملَ بدّله. ومع ذلك كان يطفو في نظرته المتعطّشة شيء ذكوريّ، كما لو أنّ النهايةَ المُخزية أمام ألمانيا وجولةَ الشرب مع أصدقاء العمل، قد خبلتاه ويريد أن ينتقم.أما هي فقد تعلَّلت بالتعب

twitter @baghdad_library

حين أفسحت تلك النظرة الطريق أمام الشبق، وأكّدت إستِلا أن إيفان سيجوع من جديد بعد ساعتين.

"ساعتان؟"، حسن، لننتظر معاً ساعتين، حتى يجوع من جديد... ألا تُلاحِظين... كم نحن بعيدين الواحد عن الآخر"؟ ودون أن تستطيع أن تُقاوِم، أخذ هو إيفان بين ذراعيه، وضعه في مهده، وبلمسة خفيفة على ظهرها، كما لو أنّه يُكلّمها بإشارات التانغو، قادها إلى الغرفة، حيث سرعان ما راح يتعرّى: أسند قدماً إلى الكرسيّ، أرخى الحذاء، كرَّر العملية مع القدم الأخرى، أرغى وأزبد، خرج من حذائه، وعلى الفور فكّ الزنار وأزرار البنطلون الذي تركه يسقط بحيث أنّه شكّل على الأرض جبلاً من الطيات. وسرعان أحدثت ساقاه ـ ومناطق غير متساوية من الزغب تحت حافّة القميص المجعّد، والجوربان المطاطيان المرفوعان حتى الركبتين ـ عند إستِلا انطباعاً بغيضاً بأنّها أمام لاعب كرة قدم معتزل.

دون مقدّمات زائدة، أخذ يخرج لها ثيابها المنزلية، وبكلمات ناعمة ومنغّمةٍ أراد، كما لو أنّه يُكلّم طفلةً، أن يُقنِعَها بأنّها قد تعافت، ولا يوجد ما يُبرّر تأجيل العودة إلى ممارسة الحبّ. لكنها بخلاف مرّات سابقة في الأشهر الأخيرة لم تستطِع أن ترفض، بل واعتقدت للحظةٍ أنّها بالفعل "قد تعافت". وشعرت خلال عملية الجماع أنَّ بداخلها ذكراً مختلفاً عن الذي تتذكّره. لم تكن تعاشر مجهولاً وحسب ـ بل وأنجبت منه ولداً ـ بل رجلاً ضبابيّاً، نصفَ امرأة، عريضَ الوركين، يلحس الآن شعرَها ويهمس لها بأشياء سخيفة: أنّها ستكون أمّاً صالحة، وأنّهما ما إن يتزوّجا حتى يكون عليهما أن يُفكّرا بأن يأتيا بشُقَيّق لإيفان، كي يربيا اثنين في واحد..".

هي نافقته: "بلى". وبينما كان فوقها، شدّها من ثدييها وهمس: جميل!" أحست أن في صوته جرساً مجهولاً. وعلى الفور توقّف لوبو متحوّلاً إلى دخيلٍ في المشهد، وتساءلَ من أين جاءته هذه الشين، الملفوظة بشكل تام في جميل. عادَ خلالَ جزءٍ من ألفٍ من الثانية إلى ذكرى شيءٍ لم يخْبَرْه قط، لكنّه ما زال

حيّاً في دسيسة الغيرة التي كان يبقي عليها دائماً مشدودة: هي مع عشيقها السابق. لم يرهما قط معاً، ولا هي توسّعت كثيراً في الموضوع ـ بالكاد ذكرت ما هو ضروريّ كي تتضخّم موجة الغيرة الانتشارية في اللغز ـ لكنّه كان متأكّداً من أنّ شبح ذلك الرجل شغلَ مكانَهُ للحظة.

"ما بكَ، يا سيلبيو...؟"

"لا شيء، لا تقلقي".

وبما أنّها امرأة لا طبقة لها فإنَّ رجالَ إستِلا السابقين كانوا يُثيرون عنده الرفض الخاصّ. كان يتخيّلهم برؤوس سوداء عوّضتهم الطبيعة بقضبان لا تعرف التعب. كان انحرافاً جنسياً متغطرساً لم يدركه هو إلاّ في بعض الحالات الاستثنائية، في عمله. من الحق أن بعض هذه القذارة كان يُثيره جنسيّاً قليلاً: كانت إستِلا قد ورثت في فقرها تجربة سرّية تضعها في خدمته كبرجوازي. كانا يشتركان في بعض الخرافات واتفاقات ضمنية حول ما يجب أن يكون عليه زوجان متحضّران وبعضِ المنافع التي كانت لصالحها: لم ينقص البرّاد شيء قط، الملابس دائماً نظيفة ومكوية، وفي بعض الليالي، تقريباً دائماً بعد نشرة الأخبار، حيث كان يحصل على خدمات جنسية دون أن يتخلَّلَ ذلك أبداً رفضٌ أو مماطلة. بعد كلّ قذف تبشيري، كانت تذهب إلى الحمّام، تغتسلُ وتعود إلى السرير لتعانقه وتربت على ظهره بنفور، كما لو أنّها تقعّر وسادة لتريح رأسها. وعلى الرغم من إصرار لوبو إلاّ أنّه لم يستطِع أن يعرف كم رجلاً سبقه إليها. كان دائماً يصوغ السؤال بطريقة محتشمة، فتأتي ردّة فعلها كما لو أنّ هذا النوع من التقصّي لا يخرق الاتفاق الضمني: "لا أعرف، قليلون" كان أحياناً، حين يُحس بأنّ إستِلا كانت غير قادرة على أن تُزعج نفسها، يُصرُّ عليها، فيتضخّم الجواب نفسه في قبّة غيرته: "قليلون يعني قليلون، لا أعلم ما هو القليل".

twitter @baghdad_library

- 4 -

اعتقدَ للوهلة الأولى أنّ إستِلا قد خرجت للقيام بالمشتريات وضاعت، نظراً لقلّة معرفتها بالمدينة. ثمّ، وبعد أن انتظر يومين، لا يعرف ما يفعل برضيع لا يكفُّ عن البكاء، تقدّم ببلاغ إلى قسم الشرطة، وأمام الابتسامة الخبيثة لصف الضباط الذين كانوا يأخذون أقواله قال: "هي اختفت... نعم، هناك بعض الممتلكات فقدت... أخذت ثياباً... كنا منسجمين وأنجبنا ولم يمضِ على إنجابنا ولداً شيء، لم نكن متزوِّجَيْن". وغرق، كما لم يغرق من قبل، في حالة الرجل المنكود، وسيطر على غيظه مفكّراً أنّه سيبحث عنها حتى آخر ركن في المدينة. جعله الإذلال وضحكة الشرطي ونصيحته: "هذا عمل رجال التحرّي الخاصّين وليس عملنا"، يشعر أنّه أسوأ وضعاً من ديّوث. أدرك أن الهجرَ أكثرُ تجريداً من الفشل العاطفي أو العزلة أو الجريمة: لا يطاله القانون. وأنّه بالتأخر الآلي بالزواج ـ القرار الوحيد الذي لم يستطع التحكم به وإجبارها عليه ـ شهراً بعد شهر، دبّرت إستِلا الخيانة.

عند العودة إلى بيته وجد عند الزاوية باراً لا يراعي، كما يبدو من مواصفاته، القواعد الصحّة الأساسيّة. وضعه منذ زمن نصبَ عينيه، لكن بما أنّه لم يكن ينتمي إلى منطقته ولا إلى منطقة ماتيينثو أو إلى منطقة بيدال، فقد أظهر تساهلاً، بل وتناول فيه أحياناً جرعة.

عند منضدة العرض غاليثي (جليقي) متقدّم في السن، ربّما جاء منذ عقود خلت منفياً من إسبانيا الفرانكوية، وفتى ـ متزين بالوزرة الزرقاء ذاتها ـ كان يمرّ على المنضدة بخرقة خشنة. لمح لوبو تحت ناقوس بلاستيكيّ وعن بعد ستّة أمتار ذبابتين تلعبان وتفركان أرجلهما بقطعَتَيّ حلوى متيبستين وشطيرة جامبو، لو صودرت لما اجتازت فحوص سلامة الغذاء. تدرّب عقلياً على الهجس: "هذه الزرائب يجب إغلاقها، لا أحتاج حتى للدخول... فناجين مشقّقة... بؤر عدوى، أو في حالة سيّئة"، وقال كما لو أنّه تصوّر على الفور مُحدِثاً أمامه: "هل تعلم كم غرامة كلّ هذه المخالفات؟ تصوّر أنّني حتى لم أنظر إلى الحمامات. هل عندك شهادة فحص نظافة؟"

كان النادل وصاحب المحلّ ينظران إلى الشارع. البار فارغ، وكان عند لوبو بالتالي فسحة لزرع الرعب المريع من القانون. اقترب من منضدة العرض. كان على وشك أن يُعَرّف بنفسه، مبرزاً هويّة المفتّش المخلّعة، لكنّ الحزنَ المحفور على وجهي الرجلين جعله يتراجع. قرّر أن يخضع حظّهما لسؤال، فإذا أجاباه بـ لا كما في معظم البارات التي بدأت بعمليات تجديد لصالح نوع جديد من الزبائن الذين من أولوياتهم الصحة والجوّ، فسوف يقع عليهما بثقله:

"هل تسمح لي بالذهاب إلى الحمّام؟"

"أرجوك، تفضّل"، أجاب الغاليثي من وراء الصندوق.

"شكراً"، وبما أنّه لم يكن عنده رغبة بالذهاب إلى الحمّام، وعليه أن يمرّر الوقتَ كي يُغطّي على مناورته، قال: "صبَّ لي أوّلاً كأس جين". شرب الجين، دفع بورقة نقدية كبيرة قصداً كي يتلقى الباقي. وعند الوداع همَّ بمصافحة صاحب المحلّ، لكنّ هذا لم يحرّك من خلف صندوقه، واضطر لوبو لأن يكتفي بالسلام على النادل شادّاً على يده الرطبة بسبب خرقة المسح التي انتهى من غسلها توّاً.

twitter @baghdad_library

في الطريق وزّع لوبو قطعتي نقود على زوجٍ من الشحاذين وعابرٍ لم يكن معه ما يُغّطي ثمنَ بطاقة النقل العام. دخل إلى صيدلية واشترى رضّاعة للحليب الذي أعطاه في الليلة الماضية لإيفان بملعقة الحساء. إذا لم تعُد إستِلا بسرعةٍ فأنّه سيكون عليه أن يلجأ إلى غول أمّه أو أن يتعاقد مع مربية كي تتكفّل بإيفان خلال ساعات عمله. مرّت برأسه فكرة أن يتركه عند بِلِن، يذهب بأيّ ذريعة إلى شقّتها، يضعه على كرسيّ، يخرج ليشتري سجائر ولا يعود أبداً. بدا استسلامه السريع في تلك اللحظة متناقضاً تماماً مع جهده في إنجاب ابن.

تصوَّرَ تعليقات زملائه في العمل حين يجتمعون في نهاية الشهر وسط تبادل النكات البذيئة المتعلّقة بشكلٍ عام بالعاهرات الرخيصات، يسألونه عما إذا كانت السُمَيْراء التي حبّلها قد وضعت. "الفتيات كلّما منحتهنّ مزيداً من الحبّ كلّما خُنّاكَ أكثر"، سيقول ماتيينثو، الذي كان يحسب في مذكّرته العاطفية عدداً من حالات الانفصال. أمّا بيدال، وهو رجل مسكين ولد في فلورِنثو بارِلا وانتقل إلى بوِدو ثمّ إلى بارّيو نورتِ (الحيّ الشمالي) وهو الآن منسّق مفتّشي الصحة والأمن الغذائي، فسيضيف بنبرته، نبرة رِكولِتا، الزائفة: "لا يمكن الثقة بالزنجيات، فهنّ يجعلنك تدفع الثمن غالياً، يسرقنك ويتركنك معلّقاً. والأمر أسوأ إذا كنّ لذيذات"، وسيروي حينها للمرة المئة حكاية الخادمة التي كان يأخذها فقط من أستها، وذات يوم، فعلاً، عادت إلى باراغواي وتركت لزوجته السابقة رسالة تبيّن فيها كلَّ علاقاته وتبرهن لها عليها. خاف لوبو أن تتفوّق قصّته على قصّة بيدال وتحلّ محلها في المجموعة كحالة مشجية، وستتسبّب له إضافة إلى ذلك أنّها بازدراء عرضيّ، في عيني سِغوبيا، رئيس القسم، ويمكن أن تعيق ترفيعاً ما.

من بسطة الدرج سمع بكاء إيفان المرير. ضغط على الرضاعة وصرّة القماطات ورزمة المصاصات، نصحته الصيدلانية دون أن تستطرد في المسألة أكثر من اللازم أن يُبقيها في متناول يده دائماً، ذلك أنّها في الحالات القصوى

مهدئة للأعصاب". عمل بنصيحة الصيدلانية وطبّق أوّل مصّاصة، وإن كان سرعان ما لاحظ أنّ في المهد بين الدمى التي لم يتعرّف الطفل عليها بعد، كان هناك عدد من المصاصات الممضوغة والمنسيّة. شعر بنفسه وحيداً وبائساً جدّاً. على امتداد أسابيع لم تستطيع إستِلا أن ترفع هذه المصاصات المليئة باللعاب والزغب. وهمهم مرة في ذهنه: "مصّاصات مشقّقة... بؤر للأمراض... خشاخيش في حالة سيّئة، عمليّاً حظيرة. تصوّر أنّني لم أنظر حتى إلى القماطات.. هل لديك جَلَدٌ أبوي؟

كره، بينما هو يغلي الحليب ويُبرّده، إستِلا، كرهاً راح معه يعتبرُ شيئاً فشيئاً أنَّ عدم وجودها في البيت رحمة. انتبه إلى أنّه تخلّص دون أن يُريد من شيطانٍ، وأنه بقي مع ناتج الاتفاق. ربّما لم يكن لصالحه أن يبحث عنها ويعثر عليها. كان الذهاب إلى الشرطة زلّةً. إذا ما عثروا عليها وجاءوا بها فلن يستطيع أن يغفر لها ولا أن يستمر بالعيش معها، وأقل من ذلك أن يتزوّجها. ببساطة، لأنّ الغفران لم يكن ضروريّاً. هي بالأحرى تستحق الموت خنقاً. إيفان صار موجوداً ولم يكن ليقبل بامرأة يمكن أن تهرب، وهذه المرّة مع "المُنْتَج"، فقط كي ترضع ابنه. إذا كان قد أبلغ عنها فهذا لأنّه كان يرى أنّ الهجر، على وجه الخصوص، جريمة، ولأنه كان يتطلّع إلى مُحاكمَة وعقوبةٍ تُرمّمان له كبرياءه المجروحة.

استعدَّ لتغيير القماطات. كان قد اشترى طاولة خاصّة، لكنّه انتبه إلى أنَّ العملية تصير بسيطةً إذا ما حضّر كلّ شيء على الأرض. رنّت كلمة محاكمة في رأسه. ومرّة أخرى تنحنح صوته: "المُحاكمة مُمكنة، القانون هو القانون". في الحقيقة كان يُفضِّل أن تختفي تلك المرأةُ، الزنجية المكّارة، إلى الأبد. ـ هذا ما اعتاد أن يقوله له بيدال وما لم يكن يُريد أن يفهمه: أنّ إستِلا لن تكون أبداً زوجة وفيّة ـ محاكمة وعقوبة، في الحقيقة سيعيدان إليه حقوقه وستستعيد هي أمومتها.

twitter @baghdad_library

عاد إلى المطبخ، كي يحضّر الطاولة. وعلى الرغم من أنّه كان ما يزال هناك ساعة للعشاء، فقد قرّر أن يتناول عشاءه هذه الليلة مع إيفان. عندما دخل إلى الغرفة السماوية لم يجده. لم يملك الوقت كي يُقلّب فرضية الخطف اللامعقولة، لأنّه رآه من بعيد من باب الحمّام المشقوق على الأرض وقماطاته نصف مغيّرة، يعض على المصّاصة، ويحرّك ساقيه الورديتين. أخذه بين ذراعيه ومدّده على طاولة المطبخ وهمس له:: لا تقلق، سنعثر عليها". وخطرت له نصيحة الشرطيّ، فنظر على الفور إلى الإعلانات المصنّفة. هتف. بعد دقائق أخذ العربة الصغيرة التي لم يُدشنها بعد.

قابل في ذلك اليوم لأوّل مرّة رجلَ تحرٍّ خاصّ، اسمه المهنيّ روجرز ماركوس. كان وجهه الشاحب، وعيناه الفاتحتان، وطبقات القشرة على قبّة سترته البنّية ذات المربعات، كان كل ذلك يعزز مظهره المحايد الذي يُستشفّ مسبقاً من ملابسه وهيئته غير الرشيقة. داعمتا الركبتين في الكيس وربطة العنق الزرقاء. قال لوبو عندما رآه إنّ هذا الرجل يمكن أن يكون والده، وإنّه إذا كان في المهنة منذ عقود، وكان، كما يُحدّد في إعلانه، أقدمَ وأوثقُ رجل تحرٍّ خاص في بوِنوس أيْرس، لن يتأخّر أكثر من أسبوع في حلّ قضيّته.

سلّمه صورةً لإستِلا، كان يحملها في محفظة أوراقه النقدية، ائتمنه على اسمها وكنيتها وارتجل له وصفاً مختصراً لهيئتها، وأضاف معلومات يمكن أن تكون دليلاً له، أو في أسوأ الحالات خطوط هربها القليلة جدّاً: الأسرة تعيش في تِمبِّرْلِي وأمها، التي كان لا يكاد يعرف اسمها، منضوية في الوحدات الأساسية لحزب العدالة في لوما ثامورا.

"كلّ المعلومات تفيد، حتى الإشارات الزائفة تقود إلى مكان ما.. هكذا يعمل برنامج بحثي. يتم الوصول إلى شخص آخر. وهكذا... فإنّ العالم صغير جدّاً. عاجلاً أو آجلاً سنصل إلى أحدٍ يحتفظ بسرٍّ": قال ماركوز وهو يطرق على المكتب بالسبّابة والبنصر.

بينما كان ماركوز يتكلّم كان يمرّ بلسانه على شفتيه الرقيقتين وينظر إليه شادّاً قليلاً على أجفانه، كما لو أنّه يُحاول أن يُبقي على عربة إيفان خارج المشهد. "لن يكون من الصعب الوصول إلى مكانها، اعتبر الأمرَ محسوماً. فكّر بما تريد. متابعة نشاطات؟ تقارير عن علاقاتها العاطفيّة؟، هذا سيُكلّف أكثر قليلاً، لكن يفضّل قبل اتخاذ أيّ قرار" كانت أسنانه المصفرّة الصغيرة تكمل شكله البرمائي، وحدهما عيناه السماويتان والمفعمتان ببريقٍ بارد، كما لو أنّ النور يؤذيهما، يبدو أنّهما تُدخلان نوعاً من الوداعة، هي عنده جنسية، كما في سنوّري.

قرّر لوبو ـ من طريقته تماماً في النظر ـ أن يأتمنه ويضع التحرّي بين يديه. كان أمام شخص قادر على أن يتحوّل ويتموّه بحسب الوضع. "يا لوبو، إذا سمحت لي أن أدخل في الثقة"، نظر ماركوز في هذه اللحظة ولأوّل مرّة خلال المقابلة كلّها إلى العربة الصغيرة بعينين مفتوحتين جيّداً مُحْوِلاً عينيه قليلاً: "تجربتي تقول لي إنّ النساءَ لا يعدن أبداً. لكنّ حالتك خاصّة، وفريدة، هناك ولد في الوسط. خلال مسيرتي المهنية هذه هي أوّل حالة من هذا النوع. بشكل عام"، تنحنح "بشكل عام الآباءُ هم الذين يهجرون العائلة. وهم لا يعودون أبداً حتى لو عُرِفَ مكانهم. لكنّ الأمرَ مع المرأة مختلف. هذه حالة غير مشهودة، يا سيّد لوبو، شرف لي أن أُقدّم لك خدماتي. إذا كنت موافقاً سأبدأ غداً بتحرّياتي".

دفع لوبو السلفةَ المطلوبة وترك خلفه المكتب المفروش بالسجاد والخالي من النوافذ في بناء من شارع لافاي، في طابقه السلفيّ سينما مكيّفة. كان الوقت قد صار ليلاً تقريباً فمضى سيراً على قدميه إلى بيتِ بِلِن.

تأخر في الطريق من المركز إلى ألماغرو مباشرة عبر جادّة كورّيينتِسْ، ساعة تقريباً. اشترى خزاً محشواً ونبيذاً من محلّ بيتزا، حيث لم يُحسنوا معاملته، ونظروا إليه بريبة، كما لو أنّ دفعَ عربةٍ صغيرةٍ يُحوّله على الفور إلى لصّ أطفال. عبر بقرابة مئة مارّ فتولّد عنده انطباع بأنّ كلَّ واحدٍ منهم كان

twitter @baghdad_library

يتجسّس عليه بطرف عينه باهتمامٍ مختلف. لا شكّ أنَّ الطريقة الغريبة التي كان يسوق بها العربة، كانت تلفت الانتباه،كما لو كان قرداً. كانت الأرصفة متباينة المستوى ومكسّرة، وكان صدى تركيبة حصى البلاط المتباينة يتردّد في رأس إيفان، الذي كان يهتزّ دون أن يشكو، كأنه يسير على أرض مرصوفة بالحجارة. وبين لحظة وأخرى كان يلفظ المصاصة، التي احتاط لوبو فربطها بخيط غليظ إلى عنقه. كان يجدُ نفسه في الزوايا مجبراً على أن يرتجل مناورات كي ينزل الحزام، الذي لولا مساعدة أحد المارّة العرضيين لكان من الممكن أن ينتهي نهاية مأساوية. وقد طوّر بعد عشرين كتلة من البيوت تقنيةً شخصيّة: يدخل قدمه في الكابح الخلفي للعربة ويحاول أن يحنيها خمساً وأربعين درجة ويدفعها دفعة خفيفة كي تعضّ عجلاتُ العربة الرصيفَ.

"إنّه ابن أختي". قال قبل أن تسأله هي شيئاً. لمح في وجهِ بِلِن امتعاضاً خفيفاً، كما لو أنّ في العربة قنطوراً صغيراً. "لا أدري ما إذا كان بيتي جاهزاً...آه". ارتعشت شفتاها وانتشر على جلدها عرقٌ باردٌ واحمرارٌ غير معهود، احمرارٌ، ربّما لم تَخْبَرْهُ هذه المرأة المعتادةُ على التمادي والاكتئاب، منذ مراهقتها. "أين يمكن أن نضعه؟"

"بعدها نرى. ما همّ. فقد لا أتركه لك. عليَّ أن أرعاه حتى تحلّ أختي بعض المشاكل".

"لم أكن أعلم أنّ لك أختاً. ولماذا لا ترعاه زوجتُك؟"

انْبَكمَ لوبو، لم يكن قد حضّر نفسه لسؤال بمثل هذا الوضوح، وخطر له أن يجيب بأنّها في رحلةٍ مع بعض صديقاتها.

"إذن أستطيع أن أذهب يوماً ما إلى بيتِك".

تأخّر في الردّ، مُحاولاً أن يتذكّر ما إذا كان في بيته شيء يشي بالهَجر. عاجلاً أو آجلاً سوف يكنس كلّ ما بقي لإستِلا من مقتنيات. وبما أنّه كان يعتقدُ أنّه لم يحبّها ـ أيضاً لم يكن يشعر بالحنين لأنّ يفعل ـ فإنّه سيرمي بأشيائها إلى

الشارع، بل ولن يمنحها هذا النوع من الحياة الذي يعني التبرّع بها لمأوى عجزة أو لكنيسة الحيّ.

"ما رأيك؟ ألا أستطيع أن أزورك؟ قل لي. ما من مشكلة".

"لا. حسن. كنتُ أفكّر بشيء آخر. هل نصعد؟ فهنا كما رأيت..." ونظر إلى جانبيه.

"اليوم أنت جميل. الولد ينعكس عليك جيداً. يُلاحظ أنّه عندما سيكون لك أولاد ستكون أباً صالحاً". رأى نفسه يوافقها في مرآة المصعد الجانبيّة. كان متغيّراً جدّاً، فلحيته التي لم تُحلق منذ أيّامٍ والازرقاق حول عينيه قد غيّرا مظهره من مظهر رجل عاقل إلى رجلٍ عاطلٍ مزمنٍ عن العمل. ندم لأنّه توجّه إلى المعبد بطريقة رعناء إلى هذا الحدّ، كانت أمُّهُ نفسها أفضل، حتى لو كان عليه أن يعترف لها بهذا الفشل، الذي تكهنت به وانتظرته مكتوفةَ اليدين.

وضعا العربة في زاوية من غرفة المعيشة ومضيا مباشرة إلى الحمّام. ريثما راح حوض الحمّام يمتلئ طلبت منه إذناً بأن تُنظِّفه بلسانها وبقيت هكذا برهةً مأخوذةً، كانت مستمرّة بذلك عندما امتلأ الحوضُ وبكى الرضيعُ وأدخل لوبو، دون أيّ متعة، عضوه المنتصب انتصاباً رخواً، في فمها. سكّرت هي بعد ذلك الصنبور وأمسكت إسفنجة كانت على الرفّ، فركت له ظهره بالصابون، ودندنت له كما لو أنّها تهمس بأغنية مهدٍ: "رَجُلي متسخ جدّاً، لماذا رَجُلي متسخ إلى هذا الحدّ؟". نام لوبو في الماء. عندما استيقظ لم تكن في الحمّام. وبخوف من أن تهجره بِلِن أيضاً، حاملة معها هذه المرّة إيفان، خرج تاركاً وراءه شريطاً من قطرات الماء على الأرض، ووجدها في غرفة المعيشة والرضيع بين ذراعيها وصينية الخبز المحشو فارغة.

"ابنُ أختك صار يأكل خبزاً محشواً"

twitter @baghdad_library

"لكن ألا يمكن أن يضرّه؟"، قال كي يقول شيئاً، مُحاولاً أن يفهم لماذا اخترع أختاً، ما دام قول الحقيقة لِبِلِن يمكن أن يكون عامِل تواصل وليس عامل خجل.

"أعرف، إنني أثقل عليكِ. أنا أكلتها. كنتُ جائعة. الرضيع جميل. ماذا لو اخترعنا تجارة وصار لدينا شيء من مال؟ نؤجِّره لأزواج يريدون أن يكون لديهم ولدٌ لفترة قصيرة؟" أجابت مضطربة.

ابتسم لوبو منزعجاً. "تعرفين أنّه لا مزاج عندي. اليوم جاء ليراك موظّف بلدية". توقّف، حاول أن يجد موضوعاً يُخرج إيفان من الحديث فخطر له أن يسألها عن شيء، كان يجب أن يكون قد تحقّق منه نظراً للثقة:

"ماذا كنت تريدين أن تصيري في طفولتك؟"

"دعني أفكّر... أعتقد أنّهم لو لم يأخذوني ويأخذونني كثيراً وبشكل جيّد لكنتُ أردتُ في طفولتي أن أصير فنّانة. الآن وأنا لا أُؤخذ كلَّ يوم، أمارسُ العادة السّرية. مرّتين أو ثلاث مرّات إذا لم يزرني مثلاً أحد لأسبوع، لا أعرف، لكن تأخّر الوقتُ كي أصير رسّامةً. ألا ترى ذلك؟"

"كم رجلاً يزورك في الأسبوع؟"

" أنت وأربعة آخرون".

"إذن أنتِ لا تحتاجينني".

"أنا لم أحتجك، لا أنت ولا هم قط. ربّما لا أعاملهم كما أعاملك." وأطلقت قهقهة وهي تنظر نحو الحمّام. فكّرّ لوبو المشمئزّ من عدد عشاقها أكثر من تلك الضحكة المشحونة بالفجور، بأنّه لا يستطيع أن يترك الرضيع أكثر في ذلك المكان بسبب نَفَسِ العدد الهائل من الرجال المخزّن فيه. ومع ذلك لم يتحرّك. كان هواء الجوّ نظيفاً بطريقة غير معهودة وموسيقى بلوندي لم تُبرز جوَّ الكوخ ذاك، كانت بِلِن تبدو تامّة، ربّما لأوّل مرّة لأنّه لم يكن يشتهيها: امرأة تامة، لا يكادُ يعرف عنها في الحقيقة شيئاً.

- 5 -

لم يعرف لوبو قط، كما لم يكن باستطاعته أن يعرف من خلال ماركوز، أنّ إستِلا فكّرت في القطار إلى تِمبِرلي أن تتراجع عن خططها، بينما هي ترى، من خلال النوافذ الصغيرة المتسخة، المنظرَ المغبرَّ: كلاباً هجينةً هائمةً لا صاحب لها، بيوت آجرٍّ على مدِّ النظر بأسقف من صفيح، وهوائيات، ومانعات صواعق، وصفائح ماء تبدو باتجاه السماء كأنّها شواهد قبور عالقة.

لم يعرف لوبو قط، كما لم يكن باستطاعته أن يعرف من خلال ماركوز أنّها أعادت في الرحلة البطيئة إلى تِمبِرلي، بناءَ كلِّ أسبوع عاشاه معاً حتى وصلا إلى ذلك اليوم المفصلي، الحاضر الذي حفظته لحظة بلحظة، كما لو أنّها أتمّت شيئاً لا يُعوَّض. كلّ شيء تمّ بالمصادفة على أفضل وجه. لم يكن باستطاعتها أن تتبيّن نتائج ما فعلته. وكان أمامها وقت كي تندم وتعود. لن يعرف سيلبيو لوبو شيئاً أبداً وسيبقى يتوجّه إليها بالإخلاص الذي تختبر به السيدات خادماتهن المنزليات.

لم يعرف لوبو قط أنّها استبعدتْ في القطار "عودة أيّ شيء إلى الوراء"، لأنّها أدركت فجأة أنّ هربها كان ثانوياً بالمقارنة مع الضرر الذي سيحدثه غيابها عنده. قدّرت إستِلا أنّها إذا ما ندمت فإنّها ستندم لاحقاً: لن توفّر على لوبو لحظةَ دخوله إلى الشقّة فلا يجدها؛ بعدها ينتظرها، ثم جولة المكالمات الهاتفية كي يقوم بتحقيقاته، سخريات زملائه في العمل ودونيا دورا منه، ثم

twitter @baghdad_library

أخيراً الشرطة غير الفعالة التي ستطلق عملية بحث عن مكانها، منشور سوف ينتشر في كلّ المخافر يظهر فيه وجهٌ مبهم الملامح، يمكن أن ينطبق على وجوه عشرة آلاف امرأة أرجنتينية بشعر أسود وجلد ضارب للخضرة وربّما دعوة للتضامن في قناة التلفزيون العامّة، حيث سيُعاد إنتاج صورة هويّة كانت قد أهدتها إلى لوبو بعد أوّل ليلة لهما معاً. آجلاً أو عاجلاً، وأمام نقص في بعض الممتلكات، لا بدّ أن يقبل بإثباتات الهجر.

قطع بائع جوّال على إستِلا تخميناتها. كان يتكلّم بصوت رصين، معتاد على أن يفرض نفسه في الأجواء الصاخبة، وكان يعرض حلوى من النوع الثاني بأسعار لم تتردّد إستِلا في استغلالها. على الفور أقلقها أنّها أحسّت من خلال البائع الجوّال، والمنظر الأفطس للبيوت، بشيء في داخلها راح يتآلف مع الأسطح والشقوق في الجوّ، كما لو أنّه لم يمر عامان منذ أن أغواها لوبو في مطعم ماتادِروس، وأنّها أنجبت ولداً. وسرعان ما أطلق صوتُ الباب الحديدي الاحتفالي وصفيرُ القطارِ العنانَ لصورٍ محدّدة: حنين لهذا المنظر الذي مرّت فيه حتى الثامنة عشرة من عمرها، ويَمْثُلُ لها الآن على حاله دون مس، كحادث جغرافيّ.

عبرت المركزَ بشوارعه المبلطة والأبنية الحجرية للإنكليز الذين أنشأوا ذات مرّة في هذه الضاحية قطارات، وكانت كلّما ابتعدت أكثر كلّما انتقل منظرُ البيوت المنخفضة والشاليهات الصغيرة شبه المريحة إلى أبنية رمادية، حُفَرٍ في الإسفلت، أرصفة غير مستوية وشوارع ترابية، شجيرات كسيحة، أبواب متقابلة، وأرض بور تتكوّم فيها القمامة والحيوانات النافقة.

في واحدٍ من هذه الشوارع التي تتحوّل في أيّام المطر إلى مستنقعات، انعطفت. تعرّفت على بيت مسيّج بالأسلاك الشائكة، مراعٍ، أسطح من صفيح، ملاط سميك ساء إنهاؤه على آجر بقي مكشوفاً. هناك كان يعيش خطيبها السابق. وهناك على بعد مئة متر وفي بناء مماثل كان بيت مابِل، أمّها. ما إن أصبحت هناك حتى صفّقت كي تعلن عن وجودها. امرأة في نهاية الثلاثين من

عمرها، لكنّها شاخت مثل امرأة خمسينية أطلّت بجذعها من خلال ستارة من شرائح بلاستيكية ملونة. صمتت صمتاً طويلاً عندما رأتها، كما لو أنّها كانت تشغّل ذاكرتها. وعندما عرفتها أطلقت "أهلاً". كان هذا تعبيرها الوحيد. أسندت إستِلا حقيبتها على الأرض وكانت على وشك أن تسأل: "هل تتذكّرينني؟"، لكنّها فضّلت أن تخفضَ رأسها قليلاً، تعضَّ على شفتيها وأن تنتظر حتى ترقَّ لها أمّها. "عدتِ؟". رجل ربع القامة وأصلع يحمل في يده ساعة سِوارية من البلاستيك الفسفوري كبيرة أطلّ من خلال شرائح الستارة يستطلع بفضول. "هيّا، إلى الداخل، يا روبن". استدار الرجل نصفَ استدارة وهمّ بالذهاب، لكنّه عاد على أعقابه بحذر مديراً ظهره ليسمع. كان القميص الأبيض قصير الكمّين يسمح برؤية زغبٍ داكن يصعد عبر الكتفين ولوحيهما كالطحلب.

"هكذا تأتين، دون أن تُخبري... منذ كم لم تهتفي...؟"

"هتفتُ لكِ، لكنّ الهاتف لا يعمل"، وفي هذه اللحظة أدركت إستِلا أنّ أمّها ستستسلم بين لحظة وأخرى.

"تعالي، يا صغيرتي، ضمّيني". عانقتها بانتحاب من دون دموع، وزعقت بصوتها الدقيق: "ما الذي فعلوه بك؟ هل رفسك ذلك البغل؟ انظري كم أنت بارزة العظام!... تعالي... ستحكين الآن لأمّك كلّ شيء. قلتُ لكِ إنّكِ صغيرة جدّاً على رجل بعمري. فعلتِ خيراً بذهابك إلى الخراء".

لا تكادُ النوافذُ الصغيرة تسمح بدخول شيء من نور رمادي إلى داخل البيت. هناك بعيداً بعض الأعشاب الجافة تتراكم فيها علب صفيح وصناديق بيرة، حدائد ومشوى متآكل: مجموعة فقدت لونها، كانت تسميها مابِل "عمق"، كي يُفهم من ذلك أنّ أيّ شيءٍ يمكن أن ينتهي ويتراكم هناك. في غرفة طعام يبدو أنّها قيد الإصلاح، هناك كراسي استلقاء أمام تلفزيونٍ قياس 14 إنشاً مع هوائي على شكل علامة النصر؛ طاولة ورفوف على حوامل عليها كؤوس وأطباق بلاستيكية وفناجين وقدور صدئة ومظلّة. في البيت كلّه كانت

twitter @baghdad_library

تُشم نتانة شيءٍ ليس منتهياً. إضافة إلى الغبار وأنسجة العنكبوت، كان هناك أطباق متسخة وفناجين مليئة بأعقاب السجائر، ملابس مهملة في الزوايا. كلاب مختلفة تدخل وتخرج من البيت. وإذا كان هناك بالفعل شيءٌ من هذا الجوّ المُنتِن مترصّداً في المكان قبل سنتين فإنّ كلّ شيء يبدو أنّه قد تفاقم بحضور هذا الرجل.

"اجلسي، يا صغيرتي، وأنتَ حضِّرْ متّةً، اعملْ معروفاً"، قالت وهي تُبعد بيدها روبن، الذي كان يحوم حولها ويُداعب وركها بينما هو يحكّ من تحت القميص قصير الكمّين شعرَ الظهر.

"ما الذي فعله بك هذا الرجل؟"، أضفت الأم طابعاً مأساويّاً.

"لا شيء، يا أمّي، انتهى".

"هل عملت بكلامي أم أنّك تزوّجتِ؟"

"نعم. لم أتزوّج ولن أتزوّج أبداً".

"حسن، نقطة لصالحك... كلّ الفتيات يحدث معهنّ هذا. الآن وقد انتهى الأمر تأتين. أليس لديك مكان تقعين فيه ميتة؟".

هزّت إستِلا بكتفيها وأطلقت دمعةً كبيرة.

"اذهبي وابكي في الكنيسة"، صرخت مابِل.

نظرت إستِلا إلى الرجلِ الذي كان ينخلُ المتّةَ مرتدياً قميصاً داخلياً وبنطلوناً رياضياً وشحاطة،كما لو أنّها تبحث عن حماية.

"يا سيّد، ألست برداناً بهذا اللباس؟"

"اسمه روبِنْ،، لا تقولي له سيّد... إنّه خطيبي"..التفت روبن، أمام كلمات مابِل، وحاول دون أن يقول شيئاً، أن يتفحّص مرّةً أخرى وركيها. وانتشر في الجوّ من جديد صخبَ جسدٍ يُبعد آخر.

"لا تلعب بي، يا أخرق، ألا تفهم؟ ابنتي مريضة، أبعدْ هاتين اليدين الوسختين".

ذهب روبن في الممر مستاءً: "انظري، أنا أنخل لك المتّة".

استعادت الأم والابنة بعدها بقليل حميميتهما الضائعة، وقد صارتا وحدهما في غرفة الطعام. حذفت إستِلا جزءاً من قصّتها مع لوبو، وبخاصّة وجود إيفان، والوحشة المخزية التي عاشتها خلال أشهر حملها. وعلى الرغم من أنّها لم تقل إنّ حياتها كانت تُشبه حياة مخطوفة، إلاّ أنّها فعلاً ألمحت إلى أنها كانت تعيش ضجرةً وعدّدت حالات كانت تعتقد أنّها بائسة، بدءاً من أنّها كانت تخلع للوبو حذاءَه عندما كان يعود من العمل وتفجر بثور ظهره، وترفأ سراويله الداخلية وجواربه المثقوبة وتغسلها وتحضِّر له الإفطار والعشاء، وأنّها كانت تنام في بعض الليالي وحدها، دون أن يقدّم لها أيّ توضيحات، تماماً مثل زوجة في الخمسين من عمرها. ردّت عليها الأم بأنّ هذه كانت معاناة كلّ سيّدة بيت من أيّ عمرٍ كان، وأنها كانت تُبالِغ، وأنّها عاجلاً أو آجلاً ستعتاد. المهمّ هو أن يكون هناك تعويض: هدايا، نقود في طاولة المصباح. لم تعرف إستِلا بماذا تجيب. فقد تلقّت بعضَ الهدايا، لكن سرعان ما كانت تكتسب من الطريقة التي كان يُقدّمها بها لها، صفة الإغفال، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بإرسالية لا تحمل عنوان المرسل، أو بشيء عثرت عليه في الشارع.

"من كان يشتري الملابس؟"

"هو، أو بالأحرى أنا، هو كان يعطيني النقود، أو كنّا نخرج معاً، كان مفتوناً بالذهاب للشراء".

"انظري، أنا روبن لا يأخذني ولا إلى المحطّة، فهو لا يُفَكِّر إلاّ بكرة القدم وبأن أمصّه له "

"وهل تغسلين له ثيابه؟"

"ليغسلْها هو، لذلك وُجدّت الغسّالة".

"لكنّكما متحابّان."

twitter @baghdad_library

"يا صغيرة، هناك لحظات يتكيّف فيها الأشخاص مع بعضهم، ولا يعني هذا أنّهما متحابّان... ليس هناك عودة إلى الوراء، كما يحدث مع الكلاب. بالنسبة لامرأة في عمري، تركُ الرجل أصعبُ من ترك الكلب وسط الطريق".

"لكنّ القول..."

"لا. لم يعد باستطاعتي أن أبقى وحيدة، الآن أو لا... لكن حذارِ.. خيراً فعلتِ، فأنت شابّة، هربت من براثن سيّد. هل حدث أن أحببته ذات مرّة؟".

"في البداية بلى...، كنتُ مرتاحة، لا أدري ماذا أستطيع أن أقولَ لك أكثرَ من ذلك، لا أتذكّر." وضربت بأظافرها على الطاولة، وراقبت على النافذة المصغرة قطعةً من السماء غائمةً، كما لو كانت جزءاً من منظر في بلدٍ آخر، ولّدت عندها إحساساً بالمسافة والمنفى. وبدا كأنّه قد مضى على سفرها أيّامٌ وأسابيع. خَبَّت في رأسها ذكريات.

كان لوبو بعد أن يغسل أسنانه بينما هي تُحضّر الفطور، ينتقل إلى درّاجة ثابتة موجودة في حجرة المغسل. كان يمارس مرتدياً سترةً وقميصاً وحذاءً رياضياً خمس عشرة دقيقة من التمارين. كان يذهب بعد الفطور ـ خبز محمّص وجامبو وقهوة وعصير برتقال ـ إلى الغرفة، يستحمُّ ويوائم بين طقم، من بين الأطقم الخمسة المماثلة التي يملكها ـ وربطةِ عنقٍ وقميصٍ ـ كانت هي قد عزلته ووضعته على حافّة السرير. كان عندما تكون نهاية أسبوعٍ وينام في البيت يرتمي فوق إستِلا، كي يأخذها بإطالةٍ مرضيّة بدلَ أن يرتدي طقمه بعد التمارين. باستثناء المرّات الأولى، عندما كان يدرسُ الواحد الآخر في نزلٍ مؤقّت ويصبو إلى مأثرةٍ جنسية حيث كان كلُّ شيءٍ يتمّ في وضعيّة واحدة، وفي مدة زمنية معتدلة واحدة. كان لوبو يمتطيها ويتمايل بتناسق صامت. وكانت بدورها تُظهر لطفاً وتُزَيِّف آهة تزيد من خيلاء هذا الرجل الذي يقدّم نفسه كغريب.

نهضت مابِل وبحثت عن مرمدة وضعتها بتمهّل على الطاولة. ثمّ، وقبل أن تشعلَ السيجارة، حَكَّت سطح المرمدة الخشن، كما لو أنّها تقشط بقايا رماد. أشعلت عودَ ثقاب وبدا أنّها تنظر إلى ابنتها من خلال لهبه.

"هل فكّرتِ مرّةً أنّه كان يخونك مع أخرى؟"

"لم أفكّر يا أماه، فهو كان يخونني".

"ولماذا أنت واثقة كلّ هذه الثقة؟"

أجابتها هي أنّه كان يغيبُ كلّ نهايات الأسابيع تقريباً، لذلك بادرت إلى ملاحقته ذات يوم، ليس غيرةً، بل كي تطمئنّ وتعرف إلى أين كان يذهب، ورأته يدخل بنايةً حيت استقبلته امرأة لها مظهر حشّاشة أو عاهرة، لم تكن تعرف تماماً.

"كلّ الرجال سواء. هنا ستتعلّمين معاملةَ الرجل. يا روبن، تعال إلى هنا، تعال إلى هنا، فوراً". أمرتهُ بصوتها الناعم وبطريقةٍ سخيفة قليلاً. "عليكِ أن تراقبي الثورَ وتمسكيه من قرنيه، هل تفهمين؟ يا روبن!".

أطلّ روبن برأسهِ خائفاً من الممرّ. عندما رآهما تراجع.

"أقول لك تعال إلى هنا".

تقدّمَ هو في المشهد. كان قد بدّلَ ثيابَه وارتدى بنطلوناً قصيراً أملس وكنزة متقنة في تقليد علامة لاكوست.

"احكِ لابنتي كيف تعارفنا".

"لا تزعجيني، ليس الآن، فأنا أشاهد التلفزيون".

"أهكذا تردّ على زوجتك، انظر، عندنا ضيفة، لذلك اجلسْ وتكلَّمْ بأدب".

حكى دون أن يجلس أنّهما تعارفا في القطار، أو بالأحرى تعارفا من جديد، لأنّهما ـ من المؤسف ـ كانا زميلي مدرسة. وأضاف أنّه لولا ذلك ما كانت لتقترب منه وتكلّمه أبداً، أيضاً لو لا هذا السبب لكان ترك هذا البيت لأنّها تعامله كخادمة. أضاف أنّه طفح الكيل عنده من كثرة الحيوانات التي تدخل

twitter @baghdad_library

وتخرج من البيت، ثمّ أشارَ، قبل أن ينسحب، ببطء إلى كلب كان ينامُ تحت طاولة المطبخ، كما لو أنّه أراد أن يبين بجلاء أنّه ما زال عنده أثر من تمرّد.

"ابن العاهر، إذا لمستَهُ مرّة أخرى فلن تدخل هذا البيت ثانية".

أجاب من الممرّ وهو في أوج هربه نحو تلفزيون الغرفة: "اخرسي، مجنونة، في المرّة الثانية أطبخ كلباً بالمقلاة".

كانت هذه المناوشةُ التي دامت ثوانٍ كافية لتجعل مابِل تنسى الحوارَ الذي كانت تجريه مع ابنتها، ولتذهب عبر الممرّ خلفَ روبن، صارخةً:

"ارتد ملابسك، فالزنجية وخوسِه قادمان، أقول لك ارتدِ ملابسك. لا تجعلني أشعر بالعار". سرعان ما غيَّرت إستراتيجيتها، صحّحت، بينما الكلبُ المتمدّد تحت طاولة المطبخ ينبح كما لو أنّهم داسوا على ذيله، أو أنّه لم يعد يتعرّف على صاحبه: "لماذا لا تذهب وتشتري لي بعض الأشياء؟ هل حضرت المتة؟". زعقت. بعد قليل سمعت إستِلا طرقةً على الباب، صراخاً ونباحاً كانا يحجبان صيحاتِ منشّطٍ في التلفزيون الموضوع على أعلى صوته.

أحدثت غرفة إستِلا عندها نفوراً عميقاً. بدت لها أصغرَ وأبردَ بكثير مما تتذكّره: نوعاً من الحفرة بأرضيّة إسمنتيّة ونافذة جدّ صغيرة. لا تكاد تتسع لوضع أشيائها. كان هناك خزانة صغيرة تعود إلى طفولتها، تحتوي على كلّ أنواع الملابس الداخلية التي تأخّرت في التعرف عليها. راجعتها متخذة مسافة، ومع تآلفها مع كلّ قطعة ومع بعض مشاهد الماضي لم تستطع إلاّ أن تنظر إلى ذراعها الممدودة في شبه الظلمة، كما لو كانت لغريب.

خفّت الضجة في الغرفة المجاورة، وبعد دقائق كافية لتدخين سيجارة، عادَ الجدلُ والصراخُ. تفقدت إستِلا دروج الخزانة الصغيرة فعثرت على أشرطة التسجيل التي كانت تستمع إليها قبل سنوات ـ The Clash, The exploited, Iron maiden ـ الموسيقى التي كانت أمّها، نصيرةُ خوسِه لويس بِرالِس وخوليو إيغلسياس ورافائل وخوان رامون، تشتمُها. كانت النافذة

الصغيرة تقطع منتصف العمق بأعشابه وبئره المسدود، ومشواتِهِ الصدئة وخمٍّ دجاجه في جانب منه تحت سقف من صفيح.

سُمِعتْ طرقاتُ كفٍّ وقرعُ جرس على الباب، خرجت مابِل من الغرفة قائلة: "يا الله"، وأخطرت على الفور من الممرّ أن الزنجية الصغيرة وخوسّهْ قد وصلا. سمعت إستِلا وهي تخرج من حفرتها كيف كانت مابِل تُبالغ أمام زائرَيها بعودة ابنتها: "ذهبت مراهقة وعادت امرأة".

كان الخال خوسه قد ازداد وزناً وإن بقيت فيه ملامح الرجل الذي كان عليه، كان يبدو أنّه مستقرّ على بنية عظمية لشخص آخر. لقد غيّرت السمنة حتى طريقتَهُ في المشي والتنفّس. سلّمت عليه إستِلا مُصافحة بيدها: "ألم تعرفيني؟ أقلعت عن التدخين"، قال لها وشدّها إليه. الزنجية الصغيرة، وهي امرأة صغيرة الحجم عندها استعداد مسبق لأن تمرّ دون أن يُحسّ بها، لكنّ طولها يبلغ أكثر من متر وسبعين سنتيمتراً. "أكّدت: "إنّه خالك، ترك التدخين فسمن أربعين كيلوغراماً". اعطِه قبلة: أمرت مابِل على الفور.

عادت إستِلا في الزمن عشرَ سنوات إلى الخلف، عندما كانت تضعُها أمُّها عند قدميّ إيّ مدعوٍّ، كي تقيم لهم حفلة. العامان اللذان قضتهما في بيت لوبو كانا قطعاً كبيراً مع الماضي، حتى أنّها شعرت بأنّها دخيلة على بيت طفولتها. كان بيتاً أصغر بكثير من الذي تتذكّره، مسكوناً بأشخاص وحيوانات مجهولة. ومرّةً أخرى استبعدت أن "تعود بكلّ شيء إلى الوراء" وتُشاطرَ سيلبيو لوبو فراشَهُ. فكرة أنّها أمّ، والأسوأ من ذلك أنّها حملت تسعة أشهر من غريبٍ، بدت لها خيالية. لقد تغلّبت على كلّ هذا، وعيشُها خارجَ بيتِ الأمومة بدا لها بالمقارنة شرّاً أخفّ. استجمعت إرادتها كي تُقبّل خدَّ خالها البدين وتنضمَّ عبوراً إلى الحوار. وعندما لم يعد أحد ينتبه إليها بعد الكثير من السيدرا والبيرة والبتزا ذهبت لتنتظر في غرفتها. وما إن نام الجميعُ حتى خرجت عبر ستارة الشرائح البلاستيكية ومعها أشرطة تسجيلها القديمة والحقيبة ذاتها التي جاءت بها.

twitter @baghdad_library

-6-

كان لوبو يعرف أنّه سيكونُ، نتيجة إعادة الإدارة هيكلة إدارة الصحة والأمن الغذائي، أمامَ شيء مهمّ.: الترفيع أو التسريح، وأن مسامرة ما بعد العشاء مع بيدال وماتيينثو وسِغوبيا ستمتدّ إلى ما بعد منتصف الليل. لم يتشجّع على حمل إيفان معه خوفاً من الأسئلة التي تقود إلى اعترافٍ سيترجم إلى سخرية خفيّة، وربّما إذا ما أخذ بعين الاعتبار طول لسان بيدال، إلى استهزاء. أيضاً لم يتشجّع لترك إيفان عند بِلِنْ، المربّية التي تعاقد معها لم تكن تعمل في نهايات الأسبوع، لم يكن أمامه غير أن يتركه عند أمِّهِ ويعترف لها بأن إستِلا اختفت.

قرّرَ أن يضعَ إيفان في العربة كي تستطيع دورا تركه يستريح فيها، إذا لم تبغ أن تنيمه على سريرها أو على كرسيّ كبير. تنزلُ امرأةٌ غير مهندمة بثياب البيت مسبلةً شعرها، كما لو أنّها خرجت توّاً من الفراش، مجرجرة شحاطتها عند سيرها، لتفتح له الباب عندما قرع الجرس. قدّمت نفسها على أنّها المرأة التي تعتني بدونيا دورا، لم تقل أكثر، وحرفت نظرتها بطريقة فظّة. استخلص لوبو أنّ تلك المرأة تُقلّد حركات أمِّهِ كي ترهبه. صعدا في المصعد دون أن ينظر أحدهما للآخر. سمع تنفّسَها، ثمّ ظنَّ أنّه شمّ نسمة هواء زنخ: جفاف فم شديد الظمأ. عندها بدا له، وللحظة عندما تجّسس عليها في المرآة، أنّ جانبها الهندي جذّابٌ وأنَّ عينيها وديعتان. تخيّل أنه يحشرها في الزاوية، لكنّه

سرعان ما فكّر أنّه سيقبّل فيها شيئاً من إستِلا. ما إن توقّف المصعدُ في الطابق الرابع، وقبل أن تفتح هي البابَ ذا الدرفتين، حتى سألها عما إذا كانت تُحْسِنُ دورا معاملتَها، آملاً من ذلك أن ينال ثقتها، ويتلقّى منها مُسارّة ما حول الفظائع التي ترتكبها أمّه يومياً، فأجابته بأنّها سيّدة طيّبة، لأنّها لحسن حظّها تنام كثيراً.

"لم تكن في السابق هكذا".

"تغيَّرتْ منذ أن وصف لها الطبيبُ حبوباً".

كانت دورا، على الرغم من الحبوب المهدّئة ومن عمرها الذي تجاوز السبعين، ما زالت تحافظ على غريزتها الخبيثة، فقد سألته بعد أن عانقته ببرودة، ما الذي جاء به معه في تلك العربة؟ وعمّا إذا كان قد ذهب للقيام بالمشتريات أم ماذا؟ أجاب هو إنّ حفيدها في العربة. أطلت عليه دون أن تتشجّع وتلمسه. "الشيء الوحيد الذي ينقصني هو أن يبدأ الآن بالبكاء. وبالفعل أطلّ الرضيع من تحت اللحاف الصغير، فتح عينيه، شنّج عضلاتِ وجهِهِ الطرية كالغضاريف، وراح يبكي عندما رأى جدّته يبكي محرّكاً رجليه. "أسكته، أسكته، أرجوك... يا نويمي احملي العربة إلى المطبخ، واتركينا وحدنا".. أطاعت نويمي مذعنةً. وسُمِعَ من المطبخ بكاءُ الرضيع وتهويدةٌ بإيقاعٍ غواراني[1].

شعر هو بأنّ لحظةَ الاعتراف قد أزفت فبقي صامتاً خافضَ الرأس. اشتمّت أمّه المسألة، دمدمت بحركة ماكرة، اتخذت أفضل صوت وقاراً وأوغلت إصبعَها في الجرح: "تركتك؟ كنتُ أعرفُ، أنت لم تُخلق للنساء". فكّر هو أنّه لو راح يبكي أو سمح بنوبة غضب أن تظهر لقَدَّم مشهداً سيملأ روحَ دورا الشريرة متعةً.

---

(1). وبوليفيا والبرازيل والأرجنتين نسبة إلى شعب من السكان الأصليين ما يزال يعيش منه حوالي الستة ملايين نسمة في باراغواي.

twitter @baghdad_library

"تشاجرنا، وطردتُها من البيت"، أجاب، على الرغم من أنّه لو فكّر بالأمر جيّداً لأنكر كلَّ شيء، ولادعى بأنّ إستِلا ذهبت لأسبوع لزيارة عائلتها. بدا من طريقة ردّة فعلِ دورا أنّها لم تبلع الكذبةَ بل ورسمت حركةَ سخريةٍ مُغضِّنةً فمها.

"منذ متى ذهبت؟"

"قلت لك طردتها" أصرَّ.

"منذ متى وهذا المخلوق من دون أمّه؟".

وعلى الفور لمح في استخدام كلمة مخلوق مدخلاً للرأفة، وبالتالي إمكانيّة أن تلعب منذ تلك اللحظة دوراً في القضيّة.

"منذ شهرين"، بالغ كي يُدوّر رقماً "في هذه الحدود، أقل قليلاً"، وقام ببعض حركات الامتعاض، كما لو أنّه يستعدُّ للبكاء. "أتركه عندك حتى الغد. عندي جملة أعمال أنهيها في ساعة متأخرة. في العربة الرضاعة والمصاصات، الأقمطة، وكلّ شيء"، أضاف وتخيّل أنّ أمّه كانت في تلك اللحظة، تستحضر سنواتِ رضاعتهِ وتقع في بئر أمومة لزجٍ لن تستطيع أن تخرج منه في أسبوع.

"من أمرك أن تنجب ولداً من بهيمة؟ أنت تعرف أنّني لا أحبّ الأطفال".

"لكنّه لا يتكلّم ولا يمشي، يا أمي. لن يكسر شيئاً".

"لا. لكنّه يبكي، ويجوع ويجب الانشغال به". تردّدت دورا، كما لو أنّها رقّت وهي تتذكّر أنّها قبلت قبلَ بضع ساعات بالهاتف الالتزام شريطة أن ترى لدقائق هذا الابن، الذي منذ أن استبدلها بامرأة لم يزرها قط. "لنرَ، متى تعود؟ نويمي غداً عطلتها وأنا أريد أن أكون حرّة في الثانية عشرة".

فكّر لوبو بأنّها أكاذيب عجوز وأنّه لن يكون عندها غداً شيئاً تعمله، ولا حتى من تخرج معه، وأنّها ببساطة أرادت أن تنصب له هذا الكمينَ كي يُضْطَرّ للعودة باكراً من حفلة الشواء كي ينامَ ويستيقظَ على الأقل في الحادية عشرة، ويمثل عندها في الثانية عشرة، وتحصرَهُ من خلال الغداء حتى العصر.

توقّف بالقرب من بيتِ سِغوبيا في هاتف عمومي لشركة نارنخا. أدار رقمَ ماركوز الخاصّ. أخذ رجل التحرّي الهاتفَ عند أوّل رنّة كما لو أنّه ينتظر مكالمة. وعندما عرف لوبو سارع ليوضّح له أنّه ليس عنده أخبار هامّة، وأنَّ القضيّةَ ستكون أصعب مما كان قد فكّر. كان قد قام في اليوم السابق بعمل ميداني في المنطقة ولم يعثر إلا على مؤشّر صغير. "في هذا الأسبوع علينا أن نجتمع لنتكلّم. فلربّما يهمّك أن تعرف، إستِلا مرّت ببيت أمّها في تِمبِرْلي ولم تعد إلى هناك ثانية، اختفت، تماماً، ـ خ ـ ف ـ ت ولا أحد يعرف أين هي. هل تريدني أن أعترف لك بشيء؟"

"ماذا؟".

"سأرى كيف أقوله لك... المرأة التي تبحث عنها لا أحد كان يُريدها... لا أحد يتذكّرها. إنّها كالشبح. تقول الأم إنّها رأتها، يوماً واحداً، تماماً في اليوم الذي هجرتك فيه. في اليوم التالي اختفت. وتعرف..."

"ماذا؟" قال لوبو آليّاً.

"أرجوك، لا تُقاطِعْني. هل تعرف شيئاً؟ أمّها ليس عندها أدنى اهتمام بالعثور عليها. هذا يعني في قانون المحقّقين أنّ هذه المرأة كانت خائنة منذ صغرها وتربت في عشّ أفاعٍ. لا أحد يريد عودة خائنة. أليس كذلك؟ أخيراً، هل يبدو لك مناسباً أن نلتقي الاثنين مساءً في المكتب ونسوّي بعض الأشياء الصغيرة كي نتابع التحقيق؟".

تابع لوبو المكالمة، ثم حدس على الفور، بعد قطع الاتصال، أنّ هذه الأشياء الصغيرة تتضمّن سُلفةً أخرى.

على الرغم من أنّه يعرف أنّه تأخّر، إلا أنّه لاحظ عند وصوله أنّ سِغوبيا لم يُشعل حتى النار بعد. لم يكن يبدو أنّه ينتظرُ أحداً. بل إنّه حين فتحَ بابَ الشارع نظر إليه لثوان باستغرابٍ، قبل أن يدعوه للدخول. كان كأسا النبيذ على منضدة غرفة المعيشة المنخفضة، والمدخنةُ المشعلة، على الرغم من الحرارة الدافئة، والزوجة الجالسة بفتور، كل ذلك يشير إلى أنّ الزوجين

twitter @baghdad_library

يعيشان بعض المشاهد الحميمة، ربّما كان حديثاً معتدلاً أو مشهداً من مشاهد المصالَحَة تلك التي يُحضرها الأزواج المستنفدون بجانب المدخنة. حدس لوبو بأنّه قطع عليهما شيئاً ما، لكنّه لم يجرؤ على الانسحاب: كان الموعد في التاسعة والساعة الآن التاسعة والنصف، وبما أنّه لم يتخلّل ذلك أيّ دعوة فقد بقي واقفاً عند منضدة المطبخ الأمريكي التي تفصل غرفة المعيشة عن المطبخ الواسع والمظلم. لاحظ أنّ سِغوبيا يهمس بشيءٍ في أذن زوجته. كانا جدّيين يشدّان على أحناكهما. كان البلاط القرميدي والجدران المطلية بالكلس والأثاث الريفيّ تُضفي على المكان جوَّ بيتٍ ريفيّ مُنَمْنَم. على الطرف الآخر من النافذة الكبيرة حديقة صغيرة كغرفة، تتراكم فيها المشواةُ الملتصقة بالجدار وكراسٍ بلاستيكية وطاولة قابلة للطيّ، وعلى طرفها كدسة أطباق خشبية وعدد من الملاعق والشوك والسكاكين تدلّ بالفعل على أنّهم سيشوون وسيحتفلون بشيءٍ ما عاد لوبو يتذكّر ما هو.

"هل تريدان أن أشرع بإشعال النار؟" سأل لوبو كي يقول شيئاً، وليس لأنّه يعتبر نفسه قادراً على ذلك. "إلى العمل، ادخل. ساعد ماتيينثو، أعتقد أنّه موجود هناك". في زاوية من الحديقة الصغيرة كان هناك رجل منحنٍ يقطع الحطب بحذر، كما لو أنّه لا يُريد أن يُزعج جاراً. عندما رأى أنَّ أحداً يدخل، انتصب بقليل من الخجل والارتباك. كان العشب قد خلّف على بنطلون الجينز عند الركبتين بقعة من الرطوبة. شدّ ماتيينثو على يدي لوبو بقوّة وابتسم كما لو أنّه يشكره على شيء.

"ماذا تفعل مبكّراً بهذا الشكل؟"، ثمّ أضاف قبل أن يستطيع أن يردّ لوبو عليه: "جئت مبكراً لأنّ الرئيس طلب مني ذلك، كي أشرع بتحضير كلّ شيء...، لكن... لم أفكّر أنّني سأجد نفسي أمام هذا". وأشار، رافعاً حاجبيه، دون أن يُحرّك رأسه، إلى الجانب الآخر من الباب الزجاجي: "عندما وصلتُ كانا يتجادلان، يبدو أنّهما سينفصلان... الزوجة جهّزت حقيبتها... ستذهب مع آخر إلى إسبانيا".

"اليوم بالتحديد؟" قال لوبو مُثْبَطاً بشكل بادٍ وهو يُفَكِّرُ في الجهد الذي قام به كي يضعَ إيفان في بيت أمّه ويعثرَ على سوبر ماركت ليشتري نبيذاً. كان يُفضّل لو أنّه تواعد مع ماركوز، حتى عندما يكسر موعدٌ ليليٌّ ومفاجئٍ كهذا بروتوكول المهنيّة. افترض أنّ أمامه وقتاً، وأنَّ رجلَ تحرّيهِ لا يبدو أنّه واحدٌ من أولئك الرجال الذين ينامون في العاشرة كي يخرجوا مسرعين ما إن يطلع الفجر. ثمّ اقترح بصوت خافت، كما لو أنّ الفكرة تُخجله: "ماذا لو ذهبنا؟". قال لنفسه: إذا كان ماركوز مشغولاً يستطيع أن يستغلّ الليل ويذهب إلى عند بِلِن من دون إيفان.

"لكن كيف سنفعل ذلك؟"

"عبر الباب، لن ينتبه، أو أنّه سيعتبر ذهابنا معروفاً، إنّه في ورطة، اسمع منّي"، أجاب لوبو.

"وماذا لو جاء بيدال؟"

"ليأكل هواء..."

"لا. نهتف له، ربّما لم يخرج من بيته بعد. يعيش قريباً من هنا".

على الجانب الآخر من الجدار الفاصل كان هناك بيت مُطابق، الطراز نفسه من الشاليهات، النوافذ نفسها، ذات الحديقة الصغيرة المقطوعة التي لا مستقبل لها. قال لوبو نصفَ مازحٍ إنّهما يستطيعان أن يقفزا إلى الجانب الآخر ويخرجا من هناك. جحظ ماتيينثو عينيه البنّيتين منزعجاً، إذ لسببٍ ما كانتا تبدوان للوبو محايدتين، العينين اللتين كانتا ترفضان الواقع بصبر: "هل أنت مجنون؟". هزّ رأسَهُ وانفتحت عينا المحاسب الخائب أخيراً، كما لو أنّهما أتمّتا دورةً: "توقّفْ. تغابَ، انظر إليهما بطرف عينك، اقبع بحذاء الأخشاب"، عمل لوبو بكلامه فزحف على العشب ورأى عبر الباب البلوري مشهداً كان يدور بكاميرا بطيئة: رجل وامرأة يصرخان. هو يرمي بأوراق وصورٍ إلى المدخنة المشتعلة، وهي ترفع سبّابتها على طريقة التهديد، وبين ظلال تروح وتغدو، كانت تتدبّر نفسها كي تسوّي شعرها بيدها اليسرى. شدّ سِغوبيا على

twitter @baghdad_library

معصمِها ولم يتضح ما إذا تراجعت كي تبتعد أو كي تجرّه إلى الكرسيين. الأكيد هو أنّهما اصطدما بمصباح عمودي تحوَّل توليب زجاجه إلى شظايا على الأرض. وعلى الفور فرّغ سِغوبيا على وجهها صفعة كبرياء من قفا يده. "يا ابنة ألفِ ألفِ عاهرة، تُريدين قتلي،، تُريدين أن تكسري بيتي، سترين، سأريك، (...) أمّك، قتلت لي دانييليتو"، ثمّ، وبعد صفعتين أخريين، لم يعد باستطاعة المرأة أن تُقاوم شدَّ زوجِها لها فتركته يحملها على الدرج إلى الطابق العلوي من الشاليه الصغير، درجة فدرجة، كما لو كانت كلّها معطفاً يُجرجره صاحبه خلفه من كمّه بعد سهرة طويلة.

"ماذا نفعل؟ سوف يقتلها".

"تستحقّ"، ردّ ماتيينثو.

"لكن نحن ماذا نفعل؟".

في النافذة العليا المطلّة على الحديقة اشتعل ضوء. كانت الستارة مسدلة والنوافذ مغلقة. كانت صيحات وشتائم الزوجة تصل مطفأة. شيء ارتطم بالنافذة. "هيّا بنا نولّي الأدبار، يا سيلبيو، الاثنين سيشكرنا سِغوبيا على ذلك. بقاؤنا سيكون بشعاً قليلاً. اللحم يبقى على حاله في البرّاد". بدت هذه الإشارة الأخيرة للوبو باردة وبائسة، كما لو أنّ ماتيينثو اجترّها بعينيه المحايدتين. على كلّ الأحوال التقى معه على أنّ من المناسب أن يختفيا في تلك اللحظة. كان يخاف أن يجد نفسه متورِّطاً في جريمة كشريكٍ أو شاهد أكثر من إمكانيّة أن يزعج الرئيس في جلسة ضربه. كان يرعبُهُ أن يصبح شاهداً على جريمة غريبة أكثر من أن يرتكب هو نفسه جريمة، في إذا ما رغب بذلك، إذا جاءت الفرصة في المستقبل والتقى بإستِلا.

خرجا إلى الشارع. كانت السماء مرصعة بالنجوم.

"ما بك؟"، سأله ماتيينثو... "هل انزعجت؟.. من الأفضل لهما أن ينفصلا. منذ أن فقدا ذلك الولد..."

"لم أكن أعرفُ شيئاً"، وضّح لوبو، وعلى الفور اضطرّ لأن يسمع حكاية مفصّلة من رفيقه. توقّف ماتيينثو على بعد أمتار من البيت، كما لو أنّه لا يستطيع السير والكلام في آن معاً، ووضّح أنّ زوجة سِغوبيا حملت بعد محاولاتٍ متتالية ومعالجاتٍ مُكْلِفة جدّاً من أجل الإخصاب. بعد خمسة أشهر انقطعَ الحملَ بمن كان يُفكّر سِغوبيا أن يُسمّيه دانييل. الخسارة كانت رهيبة. "كان سِغوبياً دائماً شحيحاً"، سُمِعَ لوبو يقول، وماتيينثو كما لو أنّه لا يُصَدّق ما سمعه. توقّف عن الكلام، رفَّ أهدابه عدّة مرّات وحرف الحديث:

"هي كانت سيّئة المزاج. كانت تقيم له فضائح. بعد الإجهاض، لم يستطع النوم إلا بعد حقنه بالمهدّئات، تتذكرّ كيف كان وجهه.. منذ، دعني أرى،... أربعة أشهر. كان فرانكشتاين".

"أتذكّر، فكّرت أنّه..."

"موتيس، ها هو، لا تقل شيئاً مما أحكيه لك" وجمع سبابته وإبهامه على فمه مشكلاً حركة إغلاق باب. "هو ذا بيدال قادم هناك".

كان بيدال يهزّ ذراعاً من الزاوية، وقبل أن ينضمّ إليهما قال لوبو بصوت منخفض بالنبرة الوديعة ذاتها التي تكلّم بها كي يقترح عليه أن يُغادرا الشاليه الصغير دون إخطار: "هل تعلم؟ سِغوبيا بائس، سبق وقلت أنت ذلك،... انظر شاليه الكرتون الذي يعيش فيه. يكسب خمسة أضعاف ما نكسبه نحن، ولا ينتقل من الحيّ".

الطاقة التي جاء بها الشابُّ بيدال سرعان ما تبخّرت أمام تعبير رفيقيه. لم يكن يستطيع أن يُصدّق أن الشواء، الذي استعدّ له كثيراً، قد أُلغي. أخذه ماتيينثو جانباً وشرح له ما جرى بصوت منخفضٍ، وبتعبير خبيثٍ قليلاً يظهر في الطريقة التي كان يورب بها فمه، ويراقبُ المحيطَ، دون أن يرفّ لهُ جفنٌ، بعينيه اللامباليتين.. نظر بيدال إلى زجاجة النبيذ التي جاء بها في يده: "يا للخراء...". لوبو عمل الشيء ذاته ولاحظ أنّه بينما كان يقطع الخشب

twitter @baghdad_library

ويزحف على العشب كان يبقي على الزجاجة تحت إبطه. سرعان ما اكفهرّت ملامح بيدال وكأن شيئاً خطر في ذاكرته.

"إذاً لم تتكلّموا، لم يقل لكما شيئاً".

"لم يكن هناك وقت".

"أكلنا هواء. أوّل من سيذهب هو سِغوبيا. عندما كان في إجازة جاء التفتيش".

- 7 -

مرَّ لوبو يومَ الإثنين التالي، صباحاً باكراً، على بيته كي يغيّر ملابسَهُ ويذهب إلى العمل. أيضاً تذكّر إيفان في تلك اللحظة. في مجيب الهاتف هناك أكثر من خمس رسائل، تشهد على اغتياظ أُمِّهِ. "إن لم تمرّ خلال عشر دقائق، سأتركه وحده"، "سأنتظرك حتى العاشرة وإلاّ هتفت للشرطة" ؛ "إذا لم تهتف لي قبل منتصف الليل، سأذهب إلى بيتك"؛ وآخر رسالة كانت يوم الاثنين في الثانية صباحاً ولم تعد فيها نبرة دورا عدوانية، بل مُتَوَسِّلة، وإن كان التغيّر في مقام الصوت قد اكتسب حماساً في جملةٍ غريبة، كأنّها منطوقة بالمصادفة "ضناي مع ضاد الضبع". كما قالت إنّ العاملة لم تعد، واضطرت هي لأن تترك إيفان وحده كي تستطيع أن ترتاح، لأنّه كان في صدغيها وخز.

بينما كان لوبو يُسوّي ربطةَ عنقه سمع أحداً يدخل البيت فاستنفر وبقي لثانية واثقاً من أنّ إستِلا عادت. مكث مشلولاً أمام المرآة. وقفز من فكرة أن يخنقها إلى فكرة أن يُعانِقها، لن يُكلّفه شيئاً أن يغفر لها إذا كانت الغاية الأخيرة أن تعيد ترتيب حياتها. عملياً كان باستطاعتهما أن يتكلّما ويوضّحا

بعض الفظاظات، كيلا تعود وتحدث مثل تلك الصراعات. ومع ذلك انهارت كلُّ تصوّراته حين رأى المربية التي كانت تعتني بإيفان خلال أيّام الأسبوع. شعر الغضب وعمل بأوّل ردّ فعل: "اغربي عن وجهي، اليوم لا يوجد عمل، إيفان مع أمّه". بقيت المرأة ساكنة ومرتبكة. "اغربي! أغربي، هيّا اخرجي"، وهزّ يده كما لو كي ينتهي من طردها.

"هل تريدني أن أعود فيما بعد؟"

"عودي غداً أو بعد غدٍ، لا أعرف، سأهتف وأقول لك. إذا لم أهتف لك، لا تأتي".

"هل أنا مطرودة؟"، ثمّ وقبل أن يجيب لوبو، أخذت حقيبة يدها وسارت ببطء في الممر نحو باب الخدمة. بدت من الخلف ونور الصباح على كتفيها كإستِلا في ذهابها. توقّفت قبلَ أن تخرج، كما لو أنّها تُريد أن تعثر على لحظة كي تعود فلا تجرؤ. تصوّر لوبو للحظة أنّها تفهّمت الوضع وتشعر بالحزن لأنّها ليست إستِلا، وأرادت أن تعرض نفسها لتحلَّ مكانها بدل أن تعتني بإيفان. ابتسم أمام مهزلة فكرته نفسها، وما إن سمع في البعيد بابَ الخدمة يُغلق حتى أجهش في البكاء.

ذهب لوبو يومَ السبت مُباشَرةً إلى بيتِ بِلِنْ بعد أن تناول الغداءَ في مشوى مع بيدال وماتيينثو، وفهمَ من فم الأوّل، قوّادِ رئيسهِ سِغوبيا، أنّه بإعادة هيكلة القسم، ستسقطُ رؤوسُ بعضِ المفتّشين المُحالين للتحقيق أو من عندهم المشاكل القضائيّة. أن يأكل مع هذين المتآمرين بعد حفل الشواء المُلغى في بيت سِغوبيا، فذلك قرار مشؤوم. كانا قد حشرا نفسيهما في حياته الخاصّة، وعندما تكلّما عن إستِلا بالغا في تقديراتهما التحقيرية المعتادة التي اعتادها قليلاً. فضّلَ لوبو، كي لا يزيد من المعاملة السيّئة، ألاّ يذكرَ الهجرَ، وتظاهرَ، أمام كلّ سخرية صبيانية، بأنّه عثر على المرأة المثالية. تحمَّلَ بارتباك الهجمات قائلاً: "هكذا هو الحبّ"، أو "من لا يُحبّون يَحْسدون" حتى ساعة العقبة، عندما قرّر أن يطلبَ الحساب، ويدفع ما يتوجّب عليه تفادياً لسخط

twitter @baghdad_library

حانِقَين، كانا يأكلان جيفةَ روحِ رجل مهجور، دون أن يدريا. "لقد قصّت جناحيك. من كان سيقول ذلك... بعودتك باكراً إلى بيتك. النساء يتضايقن منك فتهرب. في النهاية الحبّ بين الرجل والمرأة يتحوّل إلى علاقة بين أبْلَهَيْن".

كان الجوّ في المكتب كئيباً. لم يكن سِغوبيا في مكتبه. وكان بيدال وماتيينثو قد تلقيا، بحسب سكرتيرة المنطقة استدعاءً، وتركا مكتبيهما عند وصوله. إنّهما مجتمعان الآن مع الرئيس الجديد. بدت كلمة "جديد" للوبو ماحقة، فالمرأة لفظتها بخبثٍ وهي تنظر إليه من فوق نظارتها. الإحساس بالطرد مضاف إلى أبوّة صارت أمومة سخيفة، كان يُضفي عليه ملمح الرجل المهزوم والجبان، أمرد ما زال خاضعاً للحمية العاطفية لأمٍّ لا تشبع.

راقب النوافذَ المنمنمة والستائر المُسدلة لنصفها، التي كانت تسمح بدخول ما يكفي من النور كي يتمكّن من هم هناك من التعرّف بعضهم على بعض أثناء المشي والكلام. لم يحدث أن عاش كما يعيش الآن الانطباع بأنّ كل الذين كانوا هناك يتجوّلون في شبه العتمة البيروقراطية، ينتظرون لحظة تنفيذ الخيانة.

السكرتيرة نفسها أبلغته بأنّهم ينتظرونه في الطابق السادس. توجَّه لوبو آلياً إلى المصعد. ولكي يطلبه ضغط على زرّ أسود، متآكل. بصق المصعدُ من الأسفل قيئاً هائلاً، كما لو أنّه كان ينفجر. رائحة الأرضيّات المشمَّعة توّاً جاءته بذكريات طفولته. خرج من المصعد سبعةُ أشخاص على الرغم من أنّهم ينصحون في لافتة بأربعة أشخاص كحدّ أقصى. حيّاه الخارِجان الأخيران بيدل وماتيينثو واقتصرا على القول له بأنّ سِغوبيا قد استُبْدِل وأزاحوا معه عدداً آخر. "ونحن ما علاقتنا؟"، قال لوبو لمجرّد أنّه يريد أن يتشجّع. هزّ بيدال كتفيه. وشدّ لحمة الشفتين قليلاً، وبدا أنه يُقدّم مؤشِّراً.

كان بيدال وماتيينثو قد وصلا أبكر من المعتاد، ومثلا أمام رئيس القسم الجديد. بَدّلت الإدارةُ الجديدةُ سِغوبيا، وكان قد وُضِع بناء على اتفاق ما في الأسبوع الماضي الملفاتِ المحفوظة لعددٍ من المُفَتِّشين رهنَ الإشارة. كان على

مكتب الرئيسِ الجديد ملفات ثلاثةٍ من مفتّشي الصحة والأمن الغذائي مكدسة فوق بعضها، كانوا قد نُبِّهوا وقدّموا للمحاكمة بسبب شراكات غير شرعية ورشاوى و ومنح أهليات غير قانونية. كان الرئيس يريد مسؤولاً. وبيدال وماتيينثو اقتنعا من مجرد تبادل النظرات أنّ لوبو هو المرشّح، فأشارا إليه. خرجا بصمت، ماتيينثو حزين قليلاً لافتراضه أنّ على لوبو وحده أن يعيل عائلة، وبيدال حزين لأنّه يُفكرّ أنّه كان يُفضِّل التخلّصَ من ماتيينثو وليس من متعاون كفء مثل لوبو، على الرغم من أنّ الضرر كان قد حصل.

"أكثر الملفات مخالفةً للنظام هو ملفّك" قال رئيس القسم بشكلٍ شبهِ آليّ، كما لو أنّه تدرّب على خطابٍ، وكرَّر الشيءَ ذاته عندما أجاب لوبو بـ"لا أفهم". اقترح عليه بعدها أنَّ الاستجابة للانسحاب الطوعي مخرجٌ جيّد، لأنّ لوبو لم يكن ضمن خططه، وسيأتي بناسه لتغطية عملٍ بمثلِ تلك الحساسية. "إذا قبلتَ إحالة طوعية فسوف تبقى مؤهَّلاً للعودة للعمل عند الدولة وستتلقى تعويضاً... بالمقابل إذا أحلتُ هذا إلى القضاء ومن دون أيّ بِيسو فسوف تُفصل خلال وقت قصير. شيء أفضل من لا شيء".

خفضَ لوبو رأسَهُ. تساءلَ ما العروض التي عرضت على بيدال وماتيينثو. فكَّر أنّ أول من يخونهم، على كلّ الأحوال، لا لمسألة شخصية بل كي ينجو بجلده، هو سِغوبيا. راقبَ المكتبَ. كان للرئيس ميّزة صغيرة هو أنّه لا أحد يُشاطره مكان العمل. في صندوق صغير بجانب النافذة كان مكتبُ السكرتيرة التي يبدو أنّها اختفت مع سِغوبيا. كان هناك فوق ركائز متداعية صناديق بطاقات وكلّ أنواع القماطر والملفات المهترئة. لم يكن عنده فكرة عمّا يحتويه ذلك الملف الذي كان يشدّ عليه الرئيسُ الجديد من الطرف الآخر من المكتب، وكأنّه يُعالج حكماً، لكن لم يبق أمامه خيار آخر.

"لو كنتُ مكانكَ لقبلتُ"، جمع يديه ولعب لعبة فرك حمّالة الأقلام بكفيه. كانت الحركة متوعّدة وتشي بواحدٍ من رجالات الطبّ أو الحقوق، شخص معتاد على الترهيب بالهمهمة بتشخيص الحالة. "إذا كان يواسيك أن

twitter @baghdad_library

تعرف، فأنت لستَ الوحيد. هناك آخرون سيذهبون شيئاً فشيئاً، إنّها عملية تنظيف ضروريّة، كي يصبح هناك سلطة، الأمر الذي لم يفعله سِغوبيا. في المرّة القادمة سيكون شأنك أن تبقى... هكذا هي الحياة. التجربة تصنع اللص. أنا قضيتُ سنوات أعملُ مخلّصاً تجارياً، أجبروني على إجازة ووصلت إلى هنا نظيفاً غير ملوّث"

حطَّت حمامة على نجران النافذة. فساد على الفور، وبفعل تدفّق النور، صمتٌ وجمود. بدا للوبو أنّها طائرٌ، كان دائماً هناك يُراقبُ أحشاءَ الوزارةِ الرماديّةَ. عاد لوبو، بعد أن اتفقا على أن يتنازل مقابل تعويض مشرّف إلى هذا الحدّ أو ذاك، إلى بيته سيراً على قدميه دون أن يودّع ماتيينثو ولا بيدال. جميعهم صاروا بين لحظة وأخرى مجهولين في ذلك المكان. أراحه بطريقة ما التأكّدُ من أنّه غير مرتبطٍ بهم بشيء.

هتف من هاتف عموميّ لأمّهِ، التي ما إن سمعت صوتَهُ حتى أطلقت سلسلة من الشتائم، لتُهدّده بعدها بأنّها ستترك الرضيع من دون طعام، إذا لم يمرّ في ذلك اليوم ذاته ويأخذه.

"أمرٌ ليلاً".

"ليلاً لا، الآن".

"أنا في العمل، يا أمي".

"هتفتُ لك وقالوا لي إنّك غير موجود".

"كنتُ قد خرجت لآكل".

"هتفت لك صباحاً"

"كنتُ في جولة تفتيشية".

"لا توجد قماطات. عندما تخرج من العمل تعال إلى هنا... هذا الوضع... تكلّمتُ مع الجيران حولَ الوضوع. يجب العثور على جرذ البلاليع، هذه التي تقول...". ترك لوبو السماعة تسقط على الجهاز ببطء، سرّه التفكيرُ بأنّ وجودَ

إيفان يعذّب أمّه أكثر منه هو نفسه في طفولته.. الزمن والمصادفة والمأساة منحته إمكانيةَ انتقامٍ تامّ.

اجتازَ حديقةً عامّة لم يتذكّر اسمها، لكنّها بدت مكاناً ممحوقاً في شتاء أبدّي. توقّف مشوّشاً. على الرغم من الحديث الأخير إلاّ أنّه سار إلى بيته كما لو أن إستِلا تنتظره وليس عندهما بعد إيفان. حضره كلُّ الذي عاشه في السنة الأخيرة كما لو أنّه خيال: هي تنتظره خلال الحمل كلّ يوم، خاضعة لنظام منزلي له إلحاحُ طَقْسِ مُذلّ. استلقى على العشب. وفكّرَ كم سيكون رائعاً أن تحدث معجزةٌ أو سحرٌ يعيد له الزمن الماضي، ويعيد الوضعَ إلى أيّام تعايشه الأولى مع إستِلا. كان يعرف أنّ فعاليةَ السحر نسبيّة، وأن المعجزاتِ في الحقيقة تعزيز اعتباطيّ للسعادة في حياة البائسين، تسهّلها الجينات ـ الجميلون ـ أو النسب ـ الإثرياء ـ كان يعتقد أنّ إستِلا كانت تجلّياً لمعجزة. وكانت تكفيه هذه الخرافة الشخصية كي تستحوذ عليه فكرة الابن، دون أن ينتبه إلى أنّ علامة هذا التجلّي قد اختلطت عليه: امرأة، يمكن أن تُقدّم إلى الرجل، إلى جانب السعادة، إمكانية إدانته.

تاهَ لساعاتٍ، بكثير من العطش وقليل من الجوع. توقّف في كونغرِسو كي يشرب ماءً من منهل حجريّ يبصق من منقارهِ خيطاً ضعيفاً. وجد في هذا نموذجَ الندرة التي ترتب الواقع. فراغ هائل من حوله، وفي ما وراء ذلك ابن لا يتشجّع على إنقاذه. لا اليوم ولا غداً سيذهب إلى بيت أمّه للبحث عنه. تنحنح صوتٌ في داخله: "الأبوّة حالة من الاستنفار الدائم"، وكونه لم يشتق لإيفان يبرهن على فشل أبوّته الظرفي. لم يتمكن لوبو من الإحساس به كابن له من دون أمّه. افترض أنّ أيّ رجلٍ في وضعه، سيبحث عن الزوجة الضائعة متصرّفاً كبطل مستوحد. كان لوبو يعتقد أنّه يتفوّق على إستِلا بامتلاكه لإيفان كرهينةٍ واعتمادِهِ على خدمات ماركوز. كان بمنجاة من التوتر العصبي الذي يستنفد الرجل المهجورَ ويُبطل مفعول البحث في غالبية الحالات غير المتجانسة. ربّما كان هو من بقي رهينةَ ابنٍ وكانت هي من حقّقت تحرّرها

twitter @baghdad_library

النهائي. ولكي يستثمر علاقة القوى في عقله ويُخفِّفَ من وابل التخمينات الذي يمكن أن يُدْخِله في حالة عجز، قرّر أن يُخصّص كلَّ المال الضروري لماركوز دون تقتير. طبعاً بما في ذلك تعويضه.

حاول في ذلك المساء نفسه أن يخفي عدم ثقته بصبر واعتدالٍ تعلّمهما من مهنته. لم يبدُ أن ماركوز وهو يرتدي السترة ذاتها المرشوشة بالقشرة قد أعطى أهمّية لاعتراضات لوبو المتتالية على خططِهِ. كان معبَّأ بنوع من المونولوج المهنيّ:

"لا يمكنُ أن تكون قد ذهبت بعيداً جدّاً. دائما هناك في الحيّ من يعرف أحداً رآها تمرّ؛ أو أحداً سمع عنها. يجب أن يكون المرء هناك كي يسمع الإشاعات. لا أعرف إن كنتَ تفهمني. إنّه عمل كامل. عدّة مساءات في الأسبوع. يجب كسبُ ثقة مابِل، أمّها.. ثمّ إنّك تقول إنه ليس لها أصدقاء... يجب أن ننتهي من البحث هنا. أن نعتبر أنّنا عجزنا. لكنّ هذا هو عملي، عملي المستحيل، وكلّ حالة فرصة للخلاص. لا أدري ما إذا كنت تفهمني. سيكون مهمّاً أن نعرف ما إذا كانت قد عادت من منطقة الجنوب إلى بونوس أيرِس. وسيكون من المهمّ أن تتذكَّرَ أنتَ من هم الأشخاص الذين زرتماهم معاً. مَنْ مِنْ أصدقائك كانت قد عرفت؟ أليس عندك قرينة عن أحدٍ استلطفته؟".

"الحقيقة لا أعرف ما الذي تريد أن تقوله لي. كانت تعرف بعضَ معارفي، لا أكثر. أيضاً أنا ليس لي أصدقاء".

"يا لوبو، أنا لا أريدُ أن أحشرَ نفسي في حياتك...، لكن هذا جزء من تحرِّيَّ، سيكون عليك أن تكشف لي عن بعض الأشياء. فصِّل لي ما هي علاقاتها خلال السنتين اللتين عشتاهما معاً. وإذا ما أعطيتني العناوين والهواتف يكون أفضل. أعدك أنّني لن أسيء إليك".

لم يستعجل لوبو كي يردّ. علّق أخيراً قائلاً بأنّه لا يملك غير عناوين وهواتف من كانوا زملاءه في العمل. وقال لنفسه إنّه لا بأس أن يشتمَّ قليلاً من الشفقة

عند ماركوز، وحكى له عن فصله عن العمل. هزّ الآخرُ رأسه مهتمّاً، كما لو أنَّ أيَّ معلومة يمكن أن تُضَمَّن في التحقيق، وسأله عمّا إذا كان يتوقَّع ذلك.

"لا. كان مُفاجِئاً تماماً، مثل حالة إستِلا".

"أستطيع أن أنصحك بمحامي عمل... هذه القضايا دائماً تُكسَب".

"لا. سوّينا الأمر. استقاله طوعيّة".

سمع لوبو كيف كان ماركوز يصالبُ ساقيه النحيلتين تحت المكتب ويمرّ بيدٍ على بنطلونه المطري، كما لو أنّه ينفض رماداً.

"أيّ إنّك تملك الآنَ كلّ وقت العالم". أشار لوبو بالإيجاب. تفاجأ لوبو بأنّ ماركوز كان يُدخِّن. لم يلحظ في أيّ لحظة أنّه أشعل سيجارة أو حملها إلى فمه.

"والرضيع؟".

"مع أمّي".

"لنبدأ إذن بأسرتك".

كان استجواب ماركوز تامّاً، وفي بعض اللحظات مفرطاً، كما لو أنّه يبرز كلّ جزء من حياة لوبو، تحرى أحداث طفولته، الأشخاصَ الذين يعتقد أنّهم يحنقون عليه، علاقاتِهِ الغرامية الماضية والحاضرة. لم يفهم لوبو لماذا كان ماركوز يوسّع مروحةَ تحقيقه، لكن لم يبدُ له مُزْعِجاً كثيراً أن يُجيبَ على أسئلة مجنون العظمة المهني، الذي كان يُبرِّر هذا التمادي المطلق في الفضول، مُتعلِّلاً، وإن كان وقعه غير منطقيّ، بأنه في منعطف الماضي تولد أيضاً أسباب، ولدوافع لا يمكن تفسيرها، تُحدِثُ هذه الأسبابُ تأثيراتٍ على حياةِ آخر، بعد زمن طويل. كانت قوانين التأثيرات المتأخِّرة تسيّرُ عمل العالم.. إنّ زلزالاً في الصين، مثلاً، يمكن أن يُثير بعد قرون كارثة طبيعية على الجانبِ الآخر من الكرة الأرضية، ببساطة لأنّ الحركة في الصفائح الصخرية تُبقي على التأثير موقوفاً أو مُغَلّفاً عقوداً، إلى أن ينهار هذا التوازن. بالطريقة ذاتها، حتى لو لم يرَ المرءُ بعدها معظم الأشخاص الذين تعامل معهم وأحبّهم في حياته، يبقى

twitter @baghdad_library

هؤلاء أحياءَ في نسيج الأسباب الباطني الذي كان يصنع ـ وفي الحقيقة يُحدّد مسبقاً ـ أكثر الأعمال حميمية وعنفاً في حياته. على هذا النسيج ترتكز المصادفة، ويختلط الماضي بالحاضر والمستقبل، تماماً مثل تأثيرات زلزالٍ كان ينام تحت الأرض قروناً كي يظهر في نصف الكرة الأرضيّة المقابل، وتصرُّف المادّة العاطفية في الذاكرة لا يمكن التكهّن به، ونتائج حادثٍ خارجي بقي دون حلٍّ أو ابنٍ غير مرغوب بهِ، يمكن مثلاً أن يظهر بعد سنوات تحت شكل الكراهية. كانت الذاكرة مريرة وخائنة ويمكن أن تتحكَّمَ بغريزة إنسان ما؛ من هنا جاء أن هناك قتلاً لا تفسير له، وعمليات انتحار نموذجّية وحالات هجر مباغتة. إنّ أيَ قضيّة صغيرة، أدنى جرح، أيَّ اهتزازٍ متوقّف خلال عقود، كان يقتحم تناسقَ النسيج ويستطيع أن يمزّق التعشيقات الميليمتريّة للأسباب التي كانت تسمح لإنسانٍ لا على التعيين أن يعمل في كلّ الأيّام، لا يقتل أحداً، ينام مع زوجته، يُربّي أبناءه بنزاهة، دون أن يتمادى معها ولا برفيقاتها الصغيرات. لذلك كان يسأل كلّ من كان يصل إليه، فَمُهمّته لم تكن فقط العثور على إستِلا، بل أن ينزل قبل ذلك إلى باطن الأرض، يعثر على إشاراتٍ، صانعاً توازناً في النسيجِ السليم، ليصلَ بعدها إلى الثقب الذي عجّل بالانهيار.

"هذا الخطأ موجود أيضاً في نسيجك، يا لوبو" ويتصادف مع نسيجِ إستِلا، لذلك أسألك كلّ هذه الأسئلة، تصوّر حجراً يسقط فوق نسيجَيّ عنكبوت متوازيين في الفضاء. يخترق الحجرُ الأوّلَ، ثمّ بعد ثانية الثاني.. بعدها تتدمّر البنيةُ ويبقى النسيجان مجعّدين على الأرض. إذا جمعناهما يتساوى قطرا الثقبين. الحجر هو السبب الأصغر والاهتزاز المتوقّف الذي يصير تأثيراً ولا يهمّنا، نستبعده، لأنّنا نعرف أنّه موجود، لا يهمّنا على الأقلّ الآن قانون الأسباب الصغرى، نبحث عن الكيف وليس عن السبب. لكن إذا اكتشفنا بأيّ اتجاهٍ سقطَ الحجرُ، سنستطيع أن نعرف بأيّ اتجاه اختفت إستِلا. نستطيع أن نستنتج تصرّفها. هل تفهمني؟

أجاب لوبو المصعوق قليلاً بنعم، وقد أراحه أنّه لاحظ أنّ جميعَ أجوبته، كانت تحتوي على اتجاهٍ أحاديّ في التحقيق، إضافةً إلى التخفيف من ذنب غامض. افترض أنّ هذا الذنبَ كان عرضيّاً، هبّة هواء تتسرّب من الثقب المفتوح في النسيج. سأله ماركوز بغتةً بماذا كان يُفكِّرُ؟ ومصَّ السيجارة آخرَ مصّة بدت أبديّة، وأجابه لوبو أنّه عندما يظهر على وجهه أنّهُ جدّيّ أو مغمومٌ لا يكون يُفكّر بل يُعاني.

"كنتَ تُفكِّر بشيءٍ، حاوِلْ أن تتذَكَّر... فنحن دائماً نُفكِّرُ. جزئيّاً، يجب أن تكون مشدودَ الانتباه، فالمفاتيح يجب أن تظهر في تفكير غير ذي أهمّية، سترى في النهاية كيف أنّ سلسلةَ السبب / الفعل تنغلق وأنّ كلَّ الأفكار، حتى أكثرها تفكّكاً لها مكانها".

عندما سمع لوبو هذا انسدّت حنجرته. لم يفهم ما إذا كانت سلسلةُ الأسباب ستنغلق في نهاية القضيّة أم في نهاية حياتِه. شعر بنفسه مُحاصراً بشكل مطلق بهذا الرجل المتضعضع، الذي كان مع ذلك يملك في طريقته في التفكير عنادَ لاعبِ شطرنج.لم يشعر قط أنّه يمكن أن يموتَ بين لحظة وأخرى مسحوقاً بجملةٍ أو أنّ شيئاً في داخله، مثلاً قنبلةً أدخلتها أمُّهُ في جسده قبل أربعين عاماً، خلال حملها به يمكن أن تكون على وشك أن تنفجر. كان المكتبُ أكثرَ ظلمة مما كان يتذكّر، أو أنّه مرّ وقت طويل وهما يتكلّمان وأن الوقت صار ليلاً في الخارج.

"أعتقد أنّني كنتُ أُفكِّر بالذنب. لأنّني كنتُ أشعر بأنّني مذنب... ثقب إستِلا تركَ في حياتي...".

"لم تكن إستِلا، لِنَقُلْ، كانت النتيجة، كما قلتُ لك: أثر سببٍ بعيد في الزمن".

"لا يهمّ، من هذا الثقب رميتُ دون أن أنتبه ابني". هزّ ماركوز كتفيه منزعجاً من زبون يتبنى لغته بسرعةٍ غير معهودةٍ.

"حسن، أعني أنّني أخرجته من حياتي... وما لم تظهر إستِلا".

twitter @baghdad_library

في تلك الليلة ذاتها وقع لوبو في عادة جديدة لم يستطع أن يتحكّم بها طوال الأشهر التالية: المجون في الحلم. حلمَ بأنّه كان يمارس مع بِلن ومعهما آخر يمكن أن يكون ماركوز، على الرغم من أنّ سيماءه لم تكن محدّدة تماماً، وفيها ملامح من سِغوبيا وبيدال، وكان يمارس معها في وقت واحد، بينما الغرفة من حولهم تتجمّد، ويظهر الثلاثة في قاعة التحقيق في مطارٍ مُدمّر. في الصباح وجد بقعة رطبة على الملاحف ومادّة لزجة على الأُريبة لها رائحة وطعم أقوى من اللذين لمنيِ اليقظة. كما لو أنّه تأذى في نومه، اغتسل بالكحول ووضع على الفور الملاحف في الغسّالة، التي تعلّم تشغيلها في ذلك اليوم نفسه وهو يتصوّر نفسه مكان إستِلا.

فاصل

twitter @baghdad_library

رجل العينين الفاتحتين لا يأتي أبداً إلى الموعد. يشكّ إيفان في البداية ويُفكِّر أن واحداً منهما كان يُخطِئ البابَ وبالتالي فإنّ الموعد آجلاً أو عاجلاً سيتمّ. يبدّل البطاقةَ ببطاقة حافلة ليليّة تتوقّف في عدد من البلدات ويبقى ينتظر، ساكناً ومحبطاً قليلاً لغياب الرجل ذي العينين الفاتحتين، وكأن إمكانية العثور على والده تقلّصت إلى واحدٍ في المليون.

يهتف بعد ساعتين للعجوز عدّة مرّاتٍ ويترك في المجيب رسائل تذمّرٍ وعتب. لو كان معه عنوانه لذهب للبحث عنه، لكنّه لا يتذكّر حتى في أيّ حيّ يوجد كشكه.. يُحاول أن يقنع نفسَهُ بأنّه لا بدّ أنّ شيئاً خطيراً حدث معه وهذا ما يطمئنه بشكل غريب: لم يخونوه. حدث سوء حظّ. لو أنّ الرجل لم يلتزم يومَ أمسٍ بمرافقتهِ، ما كان إيفان ليتشجّع ويشرع في مغامرة لا رجعة عنها؛ وَلَوَجَدَ ذريعةً كي يبقى، على الرغم من جَدّته. الشيء ذاته يحدثُ له عادة مع النساء؛ فهو يتراجع قبل دقائق من الموعد، كما لو أنّ كلّ خيالاته تفقد حجمها أمام واقع اللقاء وتتكشف عن أوهامٍ أحاديةِ البعد وساذجة لشابٍّ قادر على أن يعشق وينصرف عن عشقِ ما يقدّمهُ جسدٌ أنثوي في اليوم ذاته.

يفكّر على الفور أنّ العجوزَ لا يعرفه ولا يمكن أن يكون قد فكّر بالخطر على أمنه.

twitter @baghdad_library

ينظر إلى بعض النساء الشابات بثياب مشدودة. نبرتهنّ غير معهودة ويُخَلِّفْنَ وراءهن رائحةَ مواد تجميل دبقة وثياب نظيفة. عند مخرج المحطّة بطاقات دعاية تعرض مساجات وساونا في المنطقة. ما من شيء يُثير قرفه مثل الأجساد المعروضة. يتصوّر أنَّ أيّ عاهرة ستتخذ شكلَ جَدّته عندما تشيخ.

يُفكِّر أنَّ عليه ألاَ يبتعد كثيراً عن المحطّة ويسير في الشارع ذاتهِ مرّةً بعد أخرى، مُتجسّساً على بسطات البائعين الجوّالين، لكنّه عندما يُلاحظُ أنّ رجلاً يلاحقه يُقرّرُ أن يعبرَ الجادّةَ ويغوص في قلب هذه المدينة، التي كثيراً ما سمعهم يتكلّمون عنها. الرجلُ لا يعبر، فيفترضُ إيفان أنّهُ لصٌّ مترصّد، يلتفت من الجانب الآخر من الشارع فلا يراه، لكنّه ينتبه إلى أنّ جيوبه فارغة، كما لو أنّ قوّةً خارقة اختطفت البيسوات الثلاثين التي زادت عن سعرِ البطاقة. "صِفر" يُفكّر، حتى إذا أرادَ لن يستطيع أن يعود إلى تِمْبِرلي. يجلسُ على درجة أمام بناءِ مكاتبَ يخرجُ منه رجال متطقمين، معه بطاقة سفر وهذا هو الشيء الوحيد الجيّد، إلى جانب حقيبة الظهر التي تحتوي على الملابس البديلة والأساور يدويةِ الصنعِ التي كان يُفكّر أن يبيعها في الطريق.

يستيقظ عندما يخرج أحدهم من البناء ويضربه بشكل خفيف برأس قدمه. لا يُفكّر إيفان بالاعتذار ويقفز كما لو أنّهم اقتلعوه ظلماً من فراشه. رجل نظيف ومتطقّم يمرّ هازّاً برأسه: "سكران الخراء". حركة الرجل المزدرية تشحن إيفان بجرعة من حبّ الذات. يبدو له واضحاً أنّ أصل كلّ كوارثه هو أنّه لم يعرف والده. قصّته ستكون مختلفة لو كان له، مثل بقيّة الأشخاص، أب ـ حيّاً أو ميتاً ـ يفترض أن شخصاً له أب يستطيع أن يتفادى بعض العثرات أو يضع حدوداً تسمح له بحياة عاديّة لا حياة انعزالية كما هي حياته. عادة ما كانت جدَّته تقول أمام أمِّه أنّ من المعجزة أنّه لم يصبح، هو الأسمر الوسيم والانطوائيّ، مثليّاً بعد. على الرغم من أنّهم لم يُنكّلوا به في المرحلة الثانوية، ربّما لأنّه لم يُكن له مظهرُ الحيوان الضعيف النموذجي، مرّ دائماً على أنّه رفيق محايد وغير مرئي، لم ينبذوه لكنّهم أيضاً لم يضمّوه إليهم.

حزمة نور غليظة تتسرّب من بين الأبنية، والدخان المكثّف على الإسفلت سرعان ما يغشى النهار. الناس الذين يسيرون على الرصيف فيهم شيء من الأشباح وأصوات السيارات تبدو قادمةً من زمنٍ آخر. يُغمض إيفان عينيه ويُفكّر أنّه بدءاً من هذه اللحظة إيفان لوبو، وليس إيفان فقط ولا إيفان دوران، كما سجَّلته أمّه في المدرسة. وبينما يمطّ ساقيه على الدرجة، يتكيّفُ عقلُهُ مع كنية أبيه الطازجة والغامضة.

twitter @baghdad_library

II. ثقب ماركوز

twitter @baghdad_library

- 1 -

تخطّى سيلبيو لوبو، بفضل عربدته في الحلم، زوجتَهُ الهاربة وملاحقةَ أمّه له، وشعورَه بالذنب بسبب إيداعه ابنه وخيانة زملائه له وخضوعه لإرادة ماكوز.

كان ينتظر بلهفة مجيءَ الليل، فيدخل في سريره في العاشرة والنصف أو في الحادية عشرة كحدٍّ أقصى. كان لا يكاد يستيقظ خائباً تقريباً. من خلفِ نساءٍ يتظاهرن بأنّهنَّ ممثلات في جلسات مجون كانت تطلّ أجزاء مستعادة من إستِلا. كانت بِلِن تعودُ مع صديقاتها يتبادلن القبل ويتلاحسن في مناطقَ من المدينة مزدحمةٍ بالمارة وفي وضح النهار: مستشفيات عامّة، حمّامات، محطّاتِ قطار، مدارس وساحات. تجربة المجون هي دائماً ذاتها. تجربة تحنيط يصل إليها متأخّراً دائماً. كما لو أنّه، ومن خلال مجون الحلم، يزيح طبقات عن حقيقة خفيّة. في أيّ من الممثلات اللواتي كنّ يُضفين البهجة على راحته الليلية، كان يكتشف بَقِيَّةً ملوَّثة من إستِلا.

كان لقاؤه مع ماركوز يشكّل أبرز نشاطاته. أو يكاد يكون نشاطه الوحيد. يلتقيان مرّتين أو ثلاثاً في مكتبهِ أو في مقهى. كان لوبو يخرج قبل الموعد بوقتٍ طويل، يسيرُ ببطء في جادّة ريبادابيا. وكان، كي لا يكون دقيقاً جدّاً في موعده، يجلس حين يصل إلى ساحة لوس دوس كونغرِسوس (المجلسين)، على مقعد ويتسلّى بمراقبة الحمائم، التي كان يطعمها أحياناً. كانت حالة هذه

الحيوانات الوسخة والمريضة تثير عطفه. كان بعد أن يوزّعَ البشمةَ ويراقبَ مندهشاً كيف كانت أكبر ذكور الحمام وأكثرها قمقمةً تقاتل من أجل حصّتها، منقضّة على أكثرها هزالاً، يقوم بجولة في الساحة، يتجسّس على أزواجٍ معهم أطفال، يُحاول أن يتعلّمَ سلوك الآباءِ ويستمتع بردّات فعل هؤلاء التلقائيةِ والعنيفةِ على شقاوة ابن.

كان ماركوز يصل دائماً مُبكّراً إلى مكان اللقاء. الموعد الثالث جرى في بارٍ في شارع قرطبة، المقصود كثيراً من المحامين والموظّفين الذين يبحثون عن رفقة أنثى. يرى لوبو في المرآة الجانبيّة كيف أنّ ماركوز عندما ينهض قليلاً عن كرسيّه كي يُصافحه، ينقرصُ البنطلونُ القصير سنتيمتراً، كما لو أنّه يُشمّره، عند مستوى الركبتين. بدا له أنّه لمح ربلتي رجليه، الجلد المبقّع. تحوّلت للحظةٍ كلُّ الثقةِ التي أودعها عند هذا الرجل إلى ريبة أمام الشكّ في أن يكون قد أصابه مرض جلديّ، أو في أنّه أكثر شيخوخة مما يبدو. لكنّه ما إن بدأ يتكلّم حتى عادت ثقة لوبو إلى مجراها، وأصغى إلى خطاب ماركوز بانتباه، كما لو أنّه عاد صبيّاً يغويه ولعُ راشدٍ بالكذب.

"كان من الممكن أن يكون أسوأ. لكنّ الحظّ حالفنا". قال وأخرج من جيبه مغلّفاً مجعّداً يحتوي على صورٍ تبين من زوايا مختلفة واجهةً رمادية لبيتٍ نموذجيّ مؤلف من طابقين من عقد الخمسينات، بشرفاته المقفرة ونافذته الواسعة التي أُسدلت ستارتها حتى منتصفها.

"هذا هو بيتُ فرساي الذي تعيش فيه ثِثيليا، أفضل صديقات شبابها. بعد أسبوع من التحقيق الحذر في تِمْبِرْلي وصلت إلى عمّةٍ تعيشٍ في لوماس دِلْ ميرادور، أعطتني بدورها اسمَ ثِثيليا ـ وهي متزوجة وعندها ولدان، وزوج ميكانيكي. أعني ثِثيليا، صديقتها... العمّة عانس".

تحسّس لوبو الصورَ التي مرَّرها له الآخرُ بأصابعه؛ وقال لنفسه "إنّ ماركوز يدور حول أشخاص معروفين ويخرج صوراً لبناء مبتذلٍ وعادي لأنّه لا يملك أيّ مؤشّر حقيقيّ. لكن لنذهب إلى العمّة البعيدة. فهي نعم، وبخلاف

twitter @baghdad_library

الأمّ، تكلّمت عن إستِلا. لم تكن مطلعة على أيّ شيء... فقدت التواصل معها... منذ أربع سنوات" هزّ لوبو كتفيه. "نعم، يبدو هذا غير مهمّ، لكن، هل تعرف أنتَ شيئاً عن ماضي إستِلا؟" تحدّاه ماركوز.

"الماضي العاطفي، مثلاً؟".

"الماضي وفقط، يا لوبو، الماضي كتلة".

"قليل جدّاً، عندما كنّا نتكلّم، إذا لم تحكِ لي هي، كنتُ أفضِّل ألاّ أسألها. لكنّني أعتقد أنّ ماضيها هو ماضي كلّ فتاة. كانت يافعة جدّاً عندما تعرّفتُ عليها. شبه مراهقة. ماذا يمكن أن يُتوقّع؟".

"كلّ شيء، كلّ شيء يمكن أن يُتَوَقَّع، يا لوبو، إستِلا صار لها ماضي هاربة. هناك شيءٌ أنتَ لا تفهمُه. الفقر يُحوّلُ الأشخاص بطريقة ما إلى فارّين. ربّما أنّك لم تنتبه قطّ، لكن بالنسبة لشخصٍ دون إمكانياتٍ ليس من السهل أن يحمل على كاهله حياة كالحياة التي خطّطتَ لها... بحسب هذه العمّة" وأخرج من ظرفٍ صورةَ العمّة الثانية، واقفة في مدخل بيتها الصغير في لوماس دِل ميرادور. "بحسب هذه العمّة، التي هي ذاكرة الأسرة ولذلك طردت منها، فإنّ إستِلا أظهرت منذ شبابها تصرّفاتٍ غريبة". توقّف وقفة طويلةً كي يُحَضّر المعلومة في ذاكرته. جاب لوبو بنظره الطاولةَ، كي يبعد عن خياله صورةَ أمّه، التي سرعان ما اعتلت صورة العمّة الثانية. أيقظ البارُ عنده ذكرياتٍ مبهمة. كان متآلفاً إلى هذا الحدّ أو ذاك مع الديكور. عندما شرعَ ماركوز بسلسلةٍ أخرى من الحكايات المتعلّقة بالعمّة الثانية، انتبه لوبو إلى أنّه كان يلجأ أحياناً، قبل سنوات مضت خلال اكتئاب العذوبة عندما كانت تُحاصره الرغبة غير المشبعة، إلى المقاهي ومحلات الويسكي في هذه المنطقة ذاتها، وأنّه على طاولة ما كان ينتظر أن تطلبَ منه امرأة ما ناضجة، غير مستنفدة، إذناً كي تجلس، وتطلبُ أن يأتوها بشيء لتتناوله؛ وبعد حوار سليم يتفقان على الخدمة والتعريفة ويذهبان إلى فندق شعبيّ عند الزاوية.

"ولماذا أُريدها"، قال بعد أن عاد بنظرته ووجد نفسه وصورة ذلك البيت في يده. كانت ردّة فعل ماركوز كما لو أنَّ زبونه قال له شيئاً رهيباً: "إذا كنتَ ستلومني على كلّ شيء، فلن نتابع. الذي يتولّى القضيّةَ هو أنا، وأنت لا تستطيع أن تعرف الفائدةَ التي تنطوي عليها صورةُ بيت. سبق وقلتُ لك إنّ هناك أسباباً تطفو بعد زمن طويل، ولا أودّ أن أكرّرَ عليك كلّ الذي قلته لك في المرَّة السابقة".

"لا تُكرِّرْهُ أرجوك"، سارع لوبو إلى القول.

"إذن سأنتقل لأحكي لكَ ما اكتشفتُه من خلال العمّة، ومنّ ثمّ من خلال صديقتها، وسنرى ما إذا كانت الصور مفيدة أم لا، تمام؟" وأدار له ظهره كي يُنادي النادلَ ويطلب منه مزيداً من السكَّر.

"يبدو لي حسناً"، ردّ لوبو كي يهدّئه، وسرعان ما شكَّ، وقتها، بأنّ كلّ ذلك: الصور والخطابات الطويلة، وما يسميه ماركوز تقفّي النسيجِ السليم، ليست غير زخرفاتٍ يفرضها الغرور المهني والعمل والذرائع كي يغطّي على غياب النتائج.

بحسب ابنة عمّ أمها، العانس الظريفة، قدّمت إستِلا دوران ـ الآن إستِلا فقط ـ في الثانية عشرة من عمرها بعد طفولة ليس فيها مفاجأة أخرى غير إصابتها بجدري الماء والدوخة، أوّلَ حالة غريبة. لم تستطع أن تتصالح مع النوم مدّة عشرة أيّام، وأُدخلت بناءً على تشخيص ظنّي إلى المشفى، ودرجة حرارتها أربعون. جازف بعضُ الأطباء بالقول بأنها اضطرابات كبدية، وآخرون افترضوا بالوحيدات العدوانية. خُرِّجتْ بعد ثلاثة أيّام من دخولها المستشفى، دون أن يتمكّنوا من معرفة أصل الالتهاب، ولم يعد أحد ليتكلّم عن الموضوع خلال ثلاثة أشهر. ومع ذلك لم تعد إستِلا في بيت تِمبِرْلي لتكون نفسها. هجرت حلقةَ الصديقات في العام ذاته، وعندما انتهت المرحلة الابتدائية بدأت تتردّد على أصدقاء أكبر منها بقليل، مراهقين يلعبون لعبة أن يكونوا بالغين، جامعة الخوفَ من أن تموت مع الرغبة بالحياة. في الرابعة عشرة من عمرها قطعت

twitter @baghdad_library

دراستها للصف الثاني ثانوي، كي تصبح خطيبة لطالبٍ سابق كان يُغنّي في إحدى فرق دارك الجنوبية. دامت رومانسيتها مع بِتو كاستيّو، قائد المجموعة خمسةَ أشهر. كانت حياتُها في هذه المرحلة حياة الناضجة المبكرة والنموذجية بالنسبة لفتاةِ ضواحٍ مُتَمرِّدة. كانت تحضر كلّ حفلة من حفلات فرقتها المُفَضّلة. مابِل، أمّها، الخامِدة والوسنانة دائماً منذ انفصلت عن أبي إستِلا، لم تكن تلحظُ في غالبية الأيّام غيابَ ابنتها، وإذا لاحظت اعتبرته نوعاً من النعمة من أجل توازنها العقليّ.

ترك بِتو كاستيّو إستِلا بعد ستّة أشهر، بحسب ما روته هي لابنةِ عمّة أمّها. في العام السابق على هذا أمضت إستِلا وقتها بمشاهدةِ المسلسلات التلفزيونية والاستماع إلى ثرثرات الحيّ. بعدها مباشرة ومن دون مقدّمات عادت إلى الثانوية. وقد منحها كونُها أكبر من بقية الطلاب، وخرجت مع بِتو كاستيّو، الطالب الأسطوريّ السابق، هالة زاد من خفرها الطبيعي بدل الجرأة. غالبية صديقاتها رحن يتوجّهن إليها كساحرة ليستشرنها في أيّ قرار، لكنّهنّ لم يطلبن صداقتها قط. هذه السلطة الغريبة، الناتجة عن الصمت كانت تختلط أحياناً بالتكبّر، وتسببت بعداوة المدرسين لها فأعادت الصفّ. الأم، وبعدم مبالاة السنة الماضية ذاتها، لم توبّخها، واختارت أن تتبع نصائح الجيران، فسجّلتها في مدرسة ثانوية ليلية في العاصمة الفدرالية حيث كانت تنجح بمبلغٍ زهيد في كلّ المواد. ذهبت إستِلا إلى مدرسة الجنرال بِلْغرانو الليلية، في حي فلورِستا بشكل مُتَقَطِّع. بعد تسجيلها بقليل شكّلت فتيات مثلها، لم يستمررن في الحياة بالتقسيط والطرد فقط بل بالتجارب الغرامية البائسة أيضاً، مجموعةً للتعليم الديني والمساعدة الاجتماعية لمساعدة المُهمَّشين والمُقْعَدين. في واحد من تلك الأحاديث شبه التنصيرية، التي كانت تمتدّ أحياناً حتى قطار الصباح، وضعت إستِلا فكرةَ الشروع بالعمل واقترحت أن يبدؤوا كمتطوّعين في إحدى الكنائس. وعلى الرغم من أنّه تمّت الموافقة

على الفكرة فوراً، إلاّ أنّه في وقت الجدّ، كانت هي التي عملت مقابلَ الاستضافة في كنيسة في فلورِس. هناك تعلّمت أن تصلي وتتوب عن الآثام التي ارتكبتها وأن تترك أيدي راهبات مُغفَلة وورعة تواسيها، وتكتبَ رسائل، وتفتقد أباها الذي لا تكاد تعرفه، أن تتحدّث مرّةً في الشهر مع أمّها، وتُعدّدَ أخطاءَ الشباب لابنةِ عمّتها التي كانت تُخرجها في نهاية كلِّ أسبوع لتتنزّه. كانت تذهب أيّامَ الاثنين والجمعة إلى جمعية دون أوريونتِ للمعاقين، تُحَمِّم المعاقين الذين هجرهم أهلهم. هناك تعرَّفت على ثِيليا، التي صارت أفضل صديقة لها خلال هذه الفترة من الرأفة والإيمان، والتي ستظهرُ لاحقاً كمصدر رائع للمعلومات بالنسبة لماركوز.

ظنّ لوبو أنّ ماركوز يُبالِغ في نقله لبعض المعلومات. لم يتشجّع لمناقضته، لكنّه حين كان يسمع كلّ خمس أو عشر دقائق أنّه يوضّح أن ابنة العمّة كانت تشكّل "ذاكرة العائلة"، كان يتساءل ما الذي يحمل شخصاً على أن يختزن أسراراً ويُضحّي بشخصيّته كي يصبح، حين تأتي اللحظة، الشخصَ الموثوق عندَ رجل مجهول. لا شكّ أن ابنة العمّة كانت الوحيدة، بحسب ما كان يقوله ماركوز، التي وثقت بها إستِلا طوال حياتها.

كشفت ابنةُ العمّة لماركوز ـ وماركوز لِلوبو ـ أنّ أبا إستِلا، إرْنِستو دورانْ، ذهبَ في ظروف غامضة، محاصَراً بالديون والخيانات الزوجيّة، وعلى كاهله امرأة شابّة. قصّته هي قصّة الكثيرين من الأرجنتينيين الذين وقعوا في محنة أمام سلسلة النكبات السياسية ـ الاقتصادية. كان قد وُلِد في كارمن دِ باتاغونِس ووصل وهو في العشرين من عمره إلى العاصمة في بداية عقد الستينيات، كجزء من الهجرة الداخلية. كان يملك، ربّما لأنّه قدم من بلدة تبدأ فيها باتاغونيا، وعياً للشرف مختلفاً عن غالبية أبناء وطنه: أخلاق اللهو، على العكس من يرقة العاصمة النموذجية، يرفقها بشيء من منطق التضحية. افتتح محلاً لبيع الخبز تحوّل بعد عقد إلى أكبر سلسلة محلات في لوماسدِ

twitter @baghdad_library

ثامورا. ومع عودة بيرون[*] باع سلسلة محلات خبزه، تزوّج من ماري بِل وافتتح أكشاك صحافة في عدد من محطاتِ خطّ روكا إلى أن أفلس مع فشل برنامج مارتينِث دِ هوثْ لقيمة العملة، خلال الدكتاتوريّة. استثمرَ، بعد عودته إلى السهل، أموالَهُ التي استطاع إنقاذها في محلٍّ للوجبات الجاهزة. بعد سنتين من العمل أربعَ عشرة ساعة يومياً مع مابِل راح يعطي الجهدُ أكله، فتعاقدا مع عاملة، جدّدا المطبخ، وآلة تسجيل المدفوعات النقدية، جاءا بأكياس أسمك وورق صرّ، بل وصارا يرسلان الطلبات إلى المنازل. بعد وقت قصير انتبهت مابِل إلى أنّ زوجها يملك عشيقة أفتى منها. هجرته دون أن تقدّم توضيحاتٍ ـ توضيحات هو بدورهِ لم يطلبها، كما لو أنّه حسب اللحظة- وأخذت على عاتقها تربية إستِلا، ابنة التاسعة وقتها دون أن تطلب مساعدة أو تقبلها. لم يُعرف شيء عن إرنِستو حتى عُلِمَ من خلال ابنة عمّة، صديقة لعمّ له، أنّ زوجته هجرته وخانته، وأنّه أفلس مع التضخّم المالي الهائل في نهاياتِ الثمانينيات.

عندما انتهى ماركوز من كلامه كان الليل قد حلَّ وأُضيئت جادّة قرطبة بشكل خفيف. كان تنفيذيون نضرون متقدمون في العمر وعاملاتٌ شابات أقل هزالاً من فتيات النوبة المسائية، يشكلون المشهدَ الليليّ. ماركوز، كما لو أنّه من كثرة ما تكلّم قد جفَّ فمه، شكّل فمُهُ نوعاً من الخطم، تطلّ منه أسنان نامية ووبيلة وينظر إلى النساء وكأنّهن يُؤكلن. كان يريد أن يُضيف

---

[*]. خوان دومينغو بيرون، (1895- 1974) عسكري وسياسي أرجنتيني وواحد من مجموعة الضباط المتحدين. صعد نجمه في أربعينيات القرن المنصرم بعد انقلاب 1943، حين لم تتمكن الأحزاب السياسية الأرجنتينية من تلبية مطالب الطبقة العاملة، وحين عرف كيف يسمع صوت الشعب الأرجنتيني. انتخب رئيساً للجمهورية عام 1946 وأعيد انتخابه في عام 1951. أقام البيرونية القائمة على العدالة فأمّم الطرق الحديدية والهاتف، حقّق شعبية عالية. لجأ إلى إسبانيا بعد انقلاب 1955 العسكري وعاد إلى الأرجنتين عام 1973 وتسنّم الرئاسة من جديد حتى موته بعد أشهر قليلة فحلّت محلّه أرملتُه، ماريّا إستِلا مارتينِث، التي عُرفت بإيفا بيرون. وقد كتب الروائي الأرجنتيني الشهير توماس إيلوي مارتينث روايته (سانتا إيفيتا) عن حياة إيفا بيرون منذ نشأتها حتى علاقتها مع بيرون وترؤسها الأرجنتين، وقد ترجم هذه الرواية إلى العربية صالح علماني ونشرتها دار الحوار.

شيئاً، ويبدو أنّه إمّا نسي ما الذي كان يريد أن يقوله، وإمّا أنّه لم ينجح في أن يجد الطريقةَ التي يضمّ بها ما كان في عقله إلى الحديث. خبّأ الصور في المغلّف الرماديّ ووضّح أن تحقيقاته لا تنتهي هناك، لكن وبما أن الوقت قد تأخّر فإنّه يُفضّل أن يحتفظ بشهادات صديقة إستِلا آنيّاً، حتى الإبلاغ التالي.كان لديه عدّة خطوط مفتوحة في التحقيق، وربّما يصلُ في الأسبوع القادم إلى المقهى ذاته، إذا ما منحه لوبو سلفةً جديدة، بأخبار عن الحاضر وليس عن الماضي.

أخذت ذكريات العزوبية تتدفّق فجأة على لوبو بينما ماركوز يمرّ بنابٍ مصفرٍّ على شفته السفلى، كما لو أنّه يزيل قشرةً من جلدٍ يابس. خاف، بعد كثير من الأوهام الزوجية الفاشلة، أن يعود ليكون ذلك الرجلَ الذي كان يبحث في ساعات متأخرة عن حنان مدفوع الأجر. فقط الآن وبخلاف زمن مضى خسر الرهان، وسيكون مع ابنة هوى انطوائياً لا شفاء له، منتكساً، تهزّه موجة الخيانة العريضة. كان قد أودع ابنه عند أمّه، ولذلك هو شخص تستحق مأساته دائماً تواطؤ ورحمة الحنان المدفوع الأجر.

اقترح تحديد موعد اللقاء التالي كي يخرج بسرعة من المكان. "أهتفُ لك ربّما كان عندك شيء جديد قبل ذلك. قال لوبو قبل أن يفتح حافظة نقوده: "لا تهتمّ أنا أدفع".

"شكراً" وهزّ بكتفيه، وتحرّك في المكان كما لو أنّه يريد أن ينهض.

"لا تذهب... منذ برهة أريد أن أعرف لماذا طردوك من العمل؟".

"للسبب ذاته الذي ذهبت فيه إستِلا: الثقة المُفرطة. العالم يتغيَّر. النساء ما عدن اللواتي كنّ سابقاً"، وأراد أن يغمز بعينه، لكنّه أغمض الاثنتين.

"ممكن... أنا لن أخونك. لكن أنت لا تكذب عليّ، فعددٌ من الكذبات المحبوكة جيّداً تُعادل الخيانة".

سار لوبو على غير هدى، وقرَّر على الفور أن يهتف لِبِلِنْ بعد أشهر. توقّف عن رؤيتها منذ اليوم الذي طردوه فيه من العمل. لسبب ما كان يبدو

twitter @baghdad_library

له أنّ الحالة الثانية كانت النتيجة المنطقية للأولى، كما لو أنّه لم يبغِ أن يخرّب كلّ الروعة التي عاشاها عارضاً انحطاطه ذاته بعد أن خسر الشيءَ الوحيد الذي كان مديناً به لأبيه، والوحيد واقعيّاً الذي عمله أبوه لأجله: أمّنَ له عملاً في البلدية. دخل كإداريّ، انتقل بعدها ليصبح عاملاً دائماً، وبعد عقدٍ من الزمان وموتِ أبيه الرائد في القوى الجويّة الذي استشهد في العام 82، عندما صار الراتب غير كافٍ لإعالة أمٍّ مُتبَجِّحة، قَبِلَ لوبو اتباعَ دورةِ تأهيلٍ ليترفَّع إلى مُفتّش بلدية. والآن تلاشت كلّ طموحاته وميراث أبيه البائس في فترة أشهر قليلة بتآمر من القدر، الذي لا يمكن أن يُسمّى إلاّ محنة. كانت بِلِن ما بقي من تلك الحياة المسرفة: البرهان على أنّه كان قريباً ذات مرّة من السعادة. مع أنّ من المحتمل أنّها لم تلحظ اختفاءَهُ، إلا إنّه كان يتذكّرها عند استيقاظهِ بعد كلِّ حلمٍ ماجِنٍ، وبينما كان يستحمّ ويشعرُ للحظاتٍ بأنّ هذه الذكرى المباشرة، ذكرى الجنس وليس الحبّ، كانت تُعوِّضُه عن غياب إستِلا، الذي هو في كلّ مرّة أكثر غموضاً وأقرب إلى الفراغ. كانت ذكرى تلك اللقاءات السرّية تنطوي على السعادة المُطلَقة، التي تُخلّفها مع الزمن العواطفُ دون ارتباط.

ما كادت بِلِنْ تقولُ "أهلاااااً" حتى قطع لوبو الخطّ. كانت هذه المرأة، التي يعبدها الآن لاستسلامها وأسلوبِها الداعر والمستنفد باكراً، خارجَ دائرة محنته، كانت ما تزال حيّة تعيشُ في جوّ ألماغرو الصغير، في عالم الوشم المماثل في رقّته لعالمه. أدار القرصَ مرّاتٍ متتالية وقطعه مع كلّ "أهلاً". إلى أن جاءت لحظة ما عاد فيها هناك جواب، ربّما لأنّها سحبت الفيش من المأخذ. سار في الشقّة فارغ الرأس. اكتشف فجأةً أنّ ذلك المكان كان الآن أوسع من اللازم. لن يستطيع أن يعود ليعيشفي كلّ هذا الفضاء الخالي بسلام. مع أنّه لن يعود إلى بيت أمّه تحت أيّ ظرف، كما لم يكن يتصوّر على المدى القصير إمكانية أن يدخل إيفان من جديد في حياته عبر "ثقب ماركوز"، فقد فكّر بالانتقال إلى مكان أصغر. كان ماضي إستِلا يشغلهُ أكثر من هربها. كان الماضي يعيش

ويبدو أنه يزداد في الغرف الفارغة، ومع خزّان ماء الحمّام المكسور، صحون المطبخ الوسخة، والحشرات. شعر بالاشمئزاز من التفكير بأنّ امرأةً مجهولةً، امرأة ربّما بقيت إلى جانبه كي تنسى، كي تصير أخرى شاطرته لياليه، إلى أن حطّمَ شيءٌ الزيفَ وكشف هويّةً جمّدتها الأمومةُ حتى تلك اللحظة، واستبعدتها.

ـ 2 ـ

طلب خلال الأسبوع أن يقدروا ثمن الشقّة، وعرضها للبيع. جاءه رجلٌ قصير، بلحية غزاها الشيب ومظهرِ طبيب أطفالٍ، يحمل ورّاقةً، أخذ القياسات واقترحَ حين شعر بأن لوبو لا يُبادر: "في نهاية الأسبوع نستطيع أن نقوم بأوّل مناوبة"، وناوله على الفور تسعيرة منتفخة قليلاً وافق عليها لوبو، كما لو أنّ هذه القيمة تنطوي بحدٍّ ذاتها على إطراء، أو أنّه يعني عرضاً.

استغلّ يوم المناوبة ذاته، وكان سبتاً، كي يرتب موعداً مع ماركوز. في الثانية مثل في بيته شابٌّ له مظهر الخليِّ المزمن، حاملاً تحت إبطه كتاباً، وقال إنّه قادم من المكتب العقاري كي يقوم على المناوبة. تركه لوبو يدخل بارتيابٍ جعله يشعر على الفور بنفسهِ عجوزاً. أراه البيتَ بسرعة. لو كان في لحظة أخرى من حياته، قبل إستِلا، لكان رأى في ذلك الفتى كلَّ ما ليس مفيداً من الشباب، وما كان حتى ليقبله قريباً منه على طاولةٍ في بار. بالمقابل الآن لا يستطيع أن يرفض أن يبقى هذا النموذج من الخمولين ـ موذج الهيبي مسترسل الشعر، الذي كان والده نفسه سيُحاربه بإصرار ـ في بيته لبضع ساعاتٍ. "هل عندك ولد؟" سأله الفتى حين انتقل إلى الغرفة السماوية.. "لا.

twitter @baghdad_library

ما عاد عندي" أجابه لوبو، ومنذ تلك اللحظة قامت بينهما ألفة لا يمكن التعبير عنها.

وعندما نظر لوبو إلى هيئة الشاب ـ بذقنهِ الخفيفة وشعرهِ الواصلِ إلى كتفيه، على الرغم من تراجعه المبكّر ـ والتي تبرز شحوباً مرضيّاً عنده، تذكّرَ سلسلةً من الأحلام ليس فيها أيّ منطق، لكنّها دخلت في سلك المسألة ذاتها: المجون. خان في أحد أحلامه إستِلا مع صديقة شبابها، التي كانت بدورها ممثّلة مشهورة تعيش حياةً سرّية في حي فرساي. وفي حلم آخر ظهرت أمّه نفسها عارية في سرير الزوجية، تعلوها الندب، الناتجة، كما قالت هي نفسها عن العادة السرّية::لأنّني الآن وأنا لا أضاجع يومياً أمارس العادة السرية"، بينما كان هو يُحاول أن يخفي المشهد عن إيفان.

في تلك اللحظة ذاتها توقّف الشابُّ أمام صورة إيفان الوحيدة، الموضوعة على حاملة صورة.

"وأنت هل عندك أولاد؟"، تجرّأ لوبو وسأله.

"لا. لم يولد قطّ. هي ضيّعته" وأضاف بصراحة وقحة كما لو أنّ للوبو علاقة "بها" أو أنّه يفهم في المسائل العاطفية: "أنتَ تعرف، بعدها تركتني".

"إذن لم تنجب ولداً".

"تقريباً لا... لكن ابني موجود، وإن لم يكن هنا الآن".

فكّر لوبو بأنّ هناك مصادفات مدمِّرة بشكل مضحك. كما لو أنّه اكتشف شبيهاً في طريقه إلى الانقراض أو في شروط أدنى، فترك جانباً الأحكامَ المسبقةَ، التي تأتي ولا شكّ من التربية التي فرضها عليه أبوه، فقرَّر أن يُخضع بيعَ البيت إلى غريزة ذلك الفتى. وأدرك قبل أن يخرج أنّ ذلك الفتى قد طوّر بفعلِ الهجرِ قدرةً خارقة على الملاحظة، مثل رجلِ تحرٍّ تقريباً.

"يوجد نمل في كلّ مكان: في المطبخ، في غرفة الطعام. إذا ارتأيت قتلتها".

قال له لوبو أن يشعرَ كأنّه في بيته وأن يقتلَ النملَ وكلَّ الحشرات التي يصادفها أمامه؛ وذهب بعد أن شدَّ على يده شدّاً طويلاً وغريباً.

تم اللقاء مع ماركوز مساءً في بار المركز ذاته. كان الرابع في سلسلة لقاءاته التي راحت تُعزِّز رفاقيةً قائمةً فيما هو أبعدُ من العلاقاتِ المالية والتشاركِ في كره النساء. على الرغم من أنّ ماركوز كان يملك كلّ شيء، مثل فتى المناوبة، كي يكونا اثنين في طريقهما للانقراض، لم يترك قط مؤشرات حياته الغرامية تظهر أمام زبونه. إنّ نزعة ما عنده لسد فراغ رفقة الأنثى بنتاجِ عمله تحمل على افتراض وجود غياب مزمن للعلاقات العاطفية أو لكآبة الترمّل. ربّما كان جذرُ الضعف، الذي كان يشعر به لوبو تجاهه، في هذا. عندما دخل إلى البار ووجده جالساً إلى الطاولة، وجد فيه فارساً من زمنٍ آخر، أضاع من أجلِ أن يعيش في هذا الزمنِ بعضاً من شرفه ويعاني من مرض عضال.

كان المكانُ مُقفِراً وماركوز يتناول في زاوية منه الفيرموت، وبعض الجبن والزيتون ويُدخّن. كانت يده ترتعش في الهواء كأنّها محتبِلة بالدخان. لم يكد يسلّم على زبونه، حتى كشف له عن شيء كي يُهيّئه. "الصديقة تكلّمت هذه المرّة. اكتمل شيء قليلاً. توصلنا إلى تحديد أوّلي. ما عداه أعتقد أنّه سيأتي تلقائياً". تكلّم بعدها عشرين دقيقةً دون توقّف، رافعاً يديه ومدخلاً، أمامَ أيّ حركة ارتياب من لوبو، لازمة: "دعني أتكلّم، لا تُقاطِعني".

في المرّة الأولى التي هتف فيها إلى ثِثيليا رفضت أن تستقبله، وأدلت بأنّها تتذكّر إستِلا بشكل مشوّش كأي واحدة أخرى من جمعية رعاية المعوقين. في المرّة الثانية، وكانت منفتحة قليلاً، اقترحت عليه أن يهتف لها خلال أسبوع: ستُفكّر بالأمر. ماركوز الذي لم يكن بطيئاً ولا كسولاً مَثَلَ، بعد مؤشّر الانفتاح، في شاليه فرساي الصغير في اليوم التالي كي يتسرَّب إلى حياتها. من خلال قضبان الباب أطلّت امرأة متدهورة الصحة. وضّح لها لماذا هو قادم وفرض بنبرته سلطةً ورعباً: كان قد تعلّم في سنٍّ مبكّرٍ جدّاً تقليدَ رجال القانون وكان التغيير في نبرة الصوت الذكَرِيَّة يحمل ذكريات مرحلة التعلّم قبل عشرين سنة، في السبعينيات. تركته المرأة يدخل وراحت تبكي أمام مسرحية الاستجواب.

twitter @baghdad_library

"لا أدري ماذا فَعَلْت. ذهبت منذ ثلاثة أيّام. كانت عندي هنا، هنا على هذه الأريكة ذاتها. لم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل جدّاً" ثمّ أضافت: "لم نكن على علاقة طيّبة. لم تكن تثقُ بأحد. كنتُ أخاف أن أتركها وحدها مع الصغار. تغيَّرتْ كثيراً. فقط جاءت ونشّفت خرقها تحت الشمس، طلبت مني أن أقرضها نقوداً، سرقتُها لها من زوجي، لأنّه ما كان ليعطيني إيّاها ولا حتى لو كان مجنوناً...". ضغط ماركوز على النقطّةِ الدقيقة، فعلّقت الصديقةُ بينما هي تنتقدُ حركات أبنائها وصراخهم من حولها بشيء يُوصِّف حالةَ إستِلا: "قالت لي إنّها أنجبت ولداً؛ وتحنّ إليه".

تأخّر لوبو في ردّة فعله عندما سمع أنّ إيفان ما زال موجوداً بالنسبة لإستِلا. تصوّر أنّها قد تكون قالت ذلك كيلا تبدو بلا رحمة أمام صديقتها، ولكي تحصل منها على النقود، أو ربّما كان الأمر يتعلّق باختراع عرَضيّ من ماركوز، كي يُبقي على هدفِ التحقيق حيّاً. وفكّر أنّه أعطى أهمّية كبيرة لكونه هُجِرَ، ولم يعطِ أيّ أهمّية لكونها هجرت ابنَها ذاته. دائماً كان عنده انطباع بأنّها باختفائها بتلك الطريقة ضربت عرض الحائط بأمومتها. شعر بفضول نهم لم يمرّ به ربّما منذ آخر مرّة زار فيها بِلِن. كيف تشعر بنفسها إستِلا؟ تراها تعيش محكومة بذكرى أمومتِها الغريزية، مثله هو بذكراها؟ هل ما زال جهازها جهاز أمٍّ؟

سوّى ماركوز طيّةَ سترته، نادى النادلَ وطلب كأس فيرموت ثانٍ وهمس: "هو نفسه نادل ليلة البارحة... إنّه مُرهَق... حتى الآن لم يُنهِ مناوبته. فقط انظرْ كيفَ يمشي".

"ماذا؟... هل التقيت ليلةَ البارحة بأحد؟" سأل لوبو غيوراً فجأة من إمكانية أن يكون عند ماركوز زبائن آخرين.

"التقيت بسيّدة... وليس بزبون. أنت الوحيد. أكرّس نفسي لقضيّتك كلّياً، وفي كلّ يوم أرفض عملاً. أنت تعرف ليس عندي شركاء ولا مستخدمون. لم

يعد من الممكن الثقة بأحد.. فقط أحياناً بزبون مثلك. لا أدري لماذا أقوله لك، فأنت تعرف هذا جيّداً، لولا ذلك ما كنت لتجدني هنا".

انتقل ماركوز بعدها على الفور، كي يُغيّر الموضوع، ليُفَصِّلَ له الاستنتاجات التي تُستَخلص من شهادة ثِيليا، صديقة شبابها. سيّان أن أحكي لك أو لا أحكي ما فعلته إستِلا قبل أن تعمل في مشوى ماتادورِس، بعد طردها من الكنيسة لاختلاسها صدقات الأحد مرّتين ونشرها الفظاعات ضدّ الزواج بين رفيقاتها. خلال هاتين السنتين حدثت عودة إلى بيت العائلة، إلى الثانوية، إلى الحبّ غير الملائم لرفيق صفٍّ لها، أصغر منها، جار متواضع وجاد في الدراسة، كان يعمل لها كلّ يوم واجباتها المدرسية إلى أن عثرت على عمل كنادلة في مشوى وتركت الدراسة. المهم هو مروحة الاستنتاجات التي تركتها الشهادة: إنّ إستِلا لم تتخلّ عن الأمومة، وكانت تُفكِّر بإيفان، وكلّما مر زمن أكثر ازداد شوقها إليه. أي إنّها لن تبتعد أبداً إلى الحدّ الذي يجعل، عندما تحين اللحظة، بحثَها عن ابنها كالبحث عن إبرة في متبن.

"هذا مهمّ، يا لوبو. لتوفير الوقت والمال. إذا ابتعدت يمكن أن يصبح هذا طويلاً. إلى أين أنت مستعدّ أن تصل؟".

"إلى النهاية".

"وماذا لو لم تكن النهاية موجودة؟ هل تتذكّر الثقبَ؟...".

"كيف لن أتذكَّر..."

"حسن. وجدناه. الثقبُ هو إيفان. والآن الطريق يمكن أن يكون قصيراً أو طويلاً جدّاً. هذا يتعلّق بالسرعات. تصوّر متاهة في العتمة. تظهر أحياناً في العمق نقطة مضيئة ثمَّ تتلاشى. المسألة في بلوغها، أن تكون هناك جاهزاً لصدور إشارة أخرى. هذه المرّة كنّا قريبين. لكن كي تكون هناك في الوقت المناسب يجب أن تُبَكّر. لا أستغرب أن تكونَ إستِلا الآن تحوم حول بيتكَ لترى ما إذا كانت ستراك تخرج بالعربة... أنت تعلم أنّها أشياء من فيلم سينمائي، لكنّها تحدث في الواقع. لذلك ليس من السوء أن تزور غداً ـ تحديداً ـ أمّك".

twitter @baghdad_library

فضّل ماركوز، على الرغم من سكرهِ وانزعاجهِ الخفيف من تكشيرة عدم التصديق عند لوبو، أن يحذف ما علّقت به ثِيليا. مع أنّه، ولسبب ما، كان يحبُّ لزبونه أن يتعذّب أكثر من اللازم ليس لأنّ لوبو مقيتاً على وجه الخصوص، بل ببساطة لأنّ عزلةَ بعض الرجال المفرطة كانت تُغيظه. لم ينقل له شهادات انزعج هو نفسه من سماعها: الرجل الذي عاشت معه كان مريضاً، كان يمنعها من زيارة أُمِّها؛ ويختفي طيلة نهاية الأسبوع، وكان من الصمت بحيث أنّ إستِلا كانت تخافه، كما تخاف شخصاً مجهولاً.

وجد لوبو كلّ شيءٍ مرتّباً في شقّته، باستثناء البار، الذي يبدو للنظرة البسيطة أنّه انكمش تماماً مثل كلّ أشيائه الرخيصة من أصلٍ وطنيّ -فودكا، جين، ويسكي-. على طاولة غرفة الجلوس كان هناك ملاحظة طويلة من شابٍّ مناوبة المكتب العقاري، يقول فيها إنّه قطع الماء عن خزّان الحمّام لأنّه فاض، وإنه قضى على النمل على طاولة المطبخ، وإن من بين الزيارات الخمس كان هناك ثلاث لأزواج وواحدة لرجل والأخيرة لامرأة مريبة جابت البيتَ كما لو أنّها تعرفه عن ظهر قلب وتبحث عن شيء ما. زوجان من الأزواج الثلاثة أبديا اهتماماً بالشقّة وسيتصلان بالمكتب العقاري. أمّا البقية فلم يبغوا أن يتركوا معلوماتهم.

بعد برهة، حين هتف لأمّه ليتلقى تقريراً عن نشاطات إيفان، الذي كان في الحقيقة دائماً متشابهاً وغير مهم، سمع لوبو تقريراً غير متوقّع. فقط فكّر في أنّ ماركوز سيُصاب غداً عندما يزور دورا بمفاجأة غير سارّة، لأنّه لم يستبق الأمر بأربعٍ وعشرين ساعةً: فبدل أن يثرثر مع زبونه في بار في في مركز المدينة، كان باستطاعته أن يحضر عن قرب النقطة المضيئةَ، الإشارة، وربّما كان أنهى كلّ شيء في ذلك اليوم بدل أن يسهب بالتبجح بنفسه.

بحسب دورا، سمعت إستِلا، بعد أن تكلمت برهةً، بكاءَ إيفان. أدركتْ أنّه كان هناك، رجتها أن تتركها تحمله بين ذراعيها وتأذن لها بأن تخرج به لتنزهه في العربة.

"كيف لا أتركها تخرج بإيفان، إنّها أمّه، ضع نفسك في مكاني، يا سيلبيو، هذا حقّها تماماً. قالت لي إنّها تكلّمت معك... وصدَّقتُها، ثم رأيتُ أنّها لم تعد، فهتفتُ لك، فردّ علي فتى... تركتُ لكَ رسالةً".

"لم تصلني رسالتُك. ثمَّ إنّني لم أكن موجوداً".

"هل أنت تعيش مع رجل، يا سيلبيو؟ ألا تثق بأمّك؟ ألا تحكي لي أشياءك..."

"أعيش الآن وحدي، يا أمّي". توقّف: "هل تريدينني أن أقول لك شيئاً؟ أنتِ عجوز شمطاء... والآن ماذا سنفعل؟ هل قالت لك إلى أين ذهبت؟".

"ماذا تقول...؟ أنا لا أعرفك، يا سيلبيو. أنت لست ابني".

"أين ذهبتْ؟..."، صاح.

"إيّاك! لن أسمح لك بأن ترفع صوتك في وجهي وتُكلّمني بهذه الطريقة، هل سمعتني! انتبه إلى لسانك، أنا أمّك، ربّيتك وليس عليّ أن أتحمّلك وأن أرعى صبياً تافهاً لأنّكَ استُثِرْت مع سوداء. عملت خيراً هذه المنحطّة حين أخذته، الحقيقة أنّه كان يُثير قرفي، نعم قرفي، اسمع جيّداً، مقرف هذا الرضيع".

"لا تستطيعين أن تُساعدي حتى ولدكِ" عند هذه النقطة حاول لوبو أن يكبح بكاءه.

"حذارِ، سوف تندم على كلّ ما تقوله. سوف تأتي على ركبتيك كي تطلب منّي العفوَ، وسأجعلُك تلعق كلّ الأرضيات. ستطلب الصفح منّي ومن أبيك أسكنه الله فسيح جنانه، فقد سبق وقال إنّك ستصبح نعجة للمرأة وعانساً... لا أدري لماذا لا تُصبح لوطيّاً وتخلّصنا.. فاشل".

"ما هذا الذي تقولينه، يا ابنة العاهرة؟".

"بلى، فاشل، لم تنفع ولا حتى بأن تصبح طبيباً"، أنَّتْ دورا ولمح لوبو من الجانب الآخر لحمها المرتعش في واحد من تلك الفساتين المصوّرة والفضفاضة

twitter @baghdad_library

التي ترتديها النسوةُ المتقدمات في السن أيّامَ الحرّ، فانفجر بصرخة هائلة: "دمَّرتِ حياتي...".

"أربعون عاماً وتتباكى على سوداء، كان عليك أن تخجل... أنت لستَ ابني".

"اسكتي! ألا تَرَين أنّك لم تكوني امرأة ولا حتى لأبي؟".

"نعم؟ ومن كان المرأة؟ أنت...؟ كان عليك أن تبحث عن سوداء... ألم يكن باستطاعتك أن تبحث عن فتاة جيّدة؟ أنتَ عنّين بكلّ معنى الكلمة، عِن ـ نّ ـ ين".

"لماذا لا تشطفين مؤخرتك، يا مصّاصة الدماء دائماً عشتِ من مال أبي ولم تُحرّكي ساكناً عندما مات". وعلى الفورِ قطع لوبو الخطّ: فقد بصق في ثوانٍ الحنقَ الذي بقي سنواتٍ يلوكه ويؤجّله. بقي بضع دقائق بجانب الهاتف، مقتنعاً بأنّ أمَّه ستهتف لابنها الوحيد وتصالحه. عندها سيروي حفيظتَهُ ويشفي غليلَه بانتقامه التام منها، حين يسمعها تبكي وتذوب متوسِّلةً إليه كي يصفح عنها. لكنّ الهاتف لم يرّن، لا في تلك الليلة ولا في صباح اليوم التالي. داوى لوبو أرقَهُ بخنق النمل في الماء أو بتحويله إلى رماد في محارق بالكحول الوطني.

ـ 3 ـ

"إذا كنت تبحث عن المسؤول عن كلّ هذا، فاذهبْ وقابِلْ ابني. وأنا أعطيك العنوان والهاتف"، قالت دورا لماركوز بعد أن دعته إلى غرفة المعيشة والطعام. "أنا لا علاقة لي بكلّ هذا".

"هل أنتِ أرملة؟".

"لماذا تسأل هذا؟".

"بسبب الأثاث..."، ردَّ ماركوز وهو يشير بشكلٍ مُبهم بسبّابته إلى ما حوله.

"هل تُريد أن تشتريه؟"

ردّت دورا بمكرٍ، تُطوّرُهُ الأراملُ كحاسّة سادسة أمام التهديد الذكري: "أنت شرطي وتريد أن تشتري أثاثاً من الضحايا؟".

"أنا أستجوبُك فلا تُراوغي وتجيبيني على أسئلة لم أوجّهها إليك بعد. لا أنا أشتري أثاثاً ولا أنتِ ضحيّة. واضح؟".

"ابني... سوف أوضّح لك. هو قبل أيّ شيء، كذّاب. لو لم يترك إيفان في هذا البيت، ما كان حدث شيء. لكنّه لصقه بي...".

"يا سيّدة، أنا لا أتّهمك. جئتُ لأستمِعَ إليك. أريد تفصيل الأحداث منذ البداية. لنبدأ: كيف وصلت إستِلا إلى هنا؟".

"وحدها، كيف ستصل؟".

"منذ سنوات وأنا متفرّغ لهذا العمل، وبمعرفتي قليلاً أناساً مثلك أكتشفُ إن كانوا يكذبون. لنعد ونبدأ: كيف وصلت إستِلا إلى هنا؟".

"لا أفهم الأسئلة، ثمّ ماذا تعني بأناس مثلي"؟

تخشّبت وأشاحت بنظرها كي تتظاهر بأنّها أُهينت.

"لنر إن كنت تفهمين، لماذا جاءت إستِلا البارحة ولم تأتِ الاثنين أو الأربعاء؟".

هزّت دورا بكتفيها مُبالِغةً.

" إذن لأجلك سأجيب بـنعم أو لا. وأنت تقول":

فتح ماركوز رزمة سجائر وبدأ يُدخّن.

لفتت دورا انتباهَهُ بصوتٍ نحيل وخجول إلى أنّه لا يمكن التدخين في البيت، لكنّها أمام نظرة ماركوز التي كانت من الخبث بحيث بدت أنّها تنقل بصمتٍ حنق ابنها سيلبيو، صحّحت على الفور: " وإن تركتك تفعل لأنّك رجل

twitter @baghdad_library

قانون... لكن، أرجوك ألا تنفض الرماد على الأرض"، وفتحت النافذة كي يتبدل الهواء وتستطيع أن تصرخ وتُنْجَدَ، في الوقت ذاته إذا ما ارتكب حماقة الإفراط بالثقة.

"عودي الآن واجلسي في مكانك نفسه".

قال لها ماركوز وهو يأخذ من يدي دورا فنجاناً سيعمل منه مرمدة."يا دورا، علينا ألا نحيد عن الموضوع، يا دورا،..." ورافق موسيقى الاسمِ بطرقة من كعبه. "إستِلا كلّمَتْكِ بالهاتف"، وافقت دورا مستحيية. راجعت بينها وبين نفسها، كما لو أنّها تُخَفِّفُ بهذه الطريقة من تواطئها معها، مجملَ الشتائم التي وجّهها إليها سيلبيو في اليوم السابق.

"حسن. متى هتفت لك؟".

"ألم تقل إنّ عليّ أن أجيب بنعم أو لا؟".

"هل هتفتْ لكِ في اليوم ذاته الذي جاءت فيه؟".

"نعم"

"حسن، هي أرادت أن تعرف كيف حال إيفان وأنتِ قلتِ لها إنّه موجود في بيتك".

"هاها"

"هي طلبت أن تراه".

"نعم".

"أنت لم تقولي شيئاً لِسيلبيو لأنّك كنت تأملين بأنّ إستِلا ستأخذ إيفان، أم لأنّك خفت أن يأتي للقائها؟ ليكن ما يكن، أنت أردت إمّا أن تتخلّصي من الصغير وإما أن تُبعدي ابنك عن زوجته السابقة.

وافقت دورا مرتبكة ومرتاحة في آن معاً لهذه المروحة من الاستنتاجات: قد تكون أرادت أن تحمي ابنها دون أن تنتبه. تابع ماركوز كلامه بنبرةٍ وحيدةِ النغمة، كما لو أنّه يُفكّر بصوت عالٍ: "كلّ ما تحكينه لي سيبقى بيننا.

من أين هتفت لكِ إستِلا؟ ماذا حكت لك عن حياتها، إلى أين ذهبت؟. احكي لي كلَّ شيء، خطوةً فخطوة".

هتف ماركوز بعد الظهر لزبونه. كان لوبو نائماً على أرض المطبخ فاستطاع، على الرغم من الدوخة، أن يُميِّزَ صوتَ ماركوز الجزل في المجيب. كان يتكلّم كما لو أنّه في إذاعة على الهواء. "يا لوبو، اسمعني، عندي خبران، واحد سيّئ وآخر جيّد. اهتف لي".

"أسمعك، أسمعك".

"هل أيقظتُك؟".

وأمام غياب الردّ تابع: "مرّة أخرى بسبب يومٍ، بسبب بضع ساعات نصل متأخّرَيْن. هذا ليس سلبيّاً، ويبرهن لنا أنّ الهدف واقعيّ". ماركوز، على الرغم من احتقاره الكبير لتلك الأرملة، التي لم تُقدِّم له حتى كأس ماء، وكانت تمشي في غرفة المعيشة وتخرج إلى الشرفة، متذمّرةً من سجائر تبغه الأسود، فضّل أن ينقل لزبونه، كي يحميه من نوبة عاطفية، الروايةَ البريئة بأنّ إستِلا حضرت بمحض إرادتها وأنّها خدعت دورا، ثمّ دفع بمبادرتين واضعاً مصلحتَهُ الخاصّة فوق المصلحة القانونية: أن يلجأ إلى الإبلاغ عن القضيّة، وليأتِ بعدها الطوفان، ذلك أنّ الشرطة غير فاعلة بطبيعتها. وإذا كان هناك من حالة صعبة الحلّ فهم يرسلونها للحفظ؛ أو أن يستمرّا، على حالهما، وهو ما ينصح به كيلا يخلق لهما القانون مشاكل أكثر مما عندهما. "لدينا مؤشّرات ولن يكلّفنا شيئاً العثور عليها. اتصلْ بأمِّك، فهي في وضعٍ سيّئ جدّاً. فكَّرَتْ أنّني شرطي فخافت".

اتصل لوبو بأمّه. عمل كلّ ما بوسعه كي يُقنع وإن لم يكن هناك حاجة لذلك ـ ماركوز بأنّ دورا هي المسؤولة عن مجرى الأحداث الأخيرة. وختم بأنّ الكارثة كانت حاضرة منذ اللحظة التي وُلِدَ فيها إيفان. في ذلك اليوم، يومِ الولادة، كان قد قسم حياتَهُ إلى قسمين. حضَرَهُ الماضي المليءُ بالإشارات الغريبة والأحداث الدقيقة والغامضة، كما لو أنَّ قِطَعَ أحجيةِ صورةٍ تتكامل.

twitter @baghdad_library

عندما حكى ذلك لماركوز في اليوم التالي طلبَ منه هذا أن يُفرِّغ على ورقة كلّ المؤشرات الغريبة التي قسمت حياته في ذلك اليوم قسمين. أجابه لوبو بمزاج سيّئ أنّه لم يكتب قط"حَدْسُ رجلين في قضية أفضل من حدسٍ شخص واحد"، أصرّ ماركوز، "ربّما غيّر حياة إستِلا وليس حياتك..."

1. رائحة سيّارة الأجرة التي حملتنا إلى المستشفى. كان السائق يقودُ من دون رغبة، كما لو أنّه لا يريد أن تكون له أيّ علاقة بالولادة. (سائق سيارة أجرة: سلبية خبيثة، يسجّل ماركوز على الهامش بينما هو يقرأ). الصدقة مذلّة لأنّها تمارس عمودياً ومن الأعلى، أما التضامن فهو أفقي وينطوي على الاحترام.

2. كان المكان مُقفراً، كما لو أنّهم ينتظروننا. كمين. لأوّلِ مرّة في حياتي أعرف نظام الإشارات في مستشفى. ممرضون جاهزون لمثل هذا النوع من الطوارئ، حملوا إستِلا في كرسيّ بعجلات (كمين، نظام الإشارات، فاجعة $؟ يخلط بين النقّالة وكرسيّ العجلات. بيم بام بوم).

3. إيفان في حاضنة. تولَّد عندي انطباع بأنّ ذلك الولد لم يكن ابني. تساءلتُ عمّا إذا كانت إستِلا ستبقى نفسها. كذب ليس هناك مستقبل وماض. هناك أجزاء من الجسم عاشت أشياءَ لم تعشها أجزاء أخرى (مستقبل وماض. الصدر يدخن، يتذكّر المستقبل، يُخربش ماركوز).

4. أرى نفسي كما أرى غريباً. لا يبدو لي أنّني ذلك الرجل الواقف أمام الحاضنة. إستِلا: في غُفلية تامة خلال سنتين. سنتان معاً وما من شيء يربطها بماضيها أو أصلها. هل يترك الفقرُ المرءَ بلا أصل؟ دائماً رأيت إستِلا ببعدين.

وبدل أن يسجّل ماركوز ملاحظاتهِ جعّد المنديل وضغطه كما لو أنّه يعصر سؤالاً إذا ما طبّق على أية علاقة حبّ لا يعود سؤالاً، لأنّ من يحبّ محصّن من مازوخيته ذاتها: لماذا كان مع تلك المرأة؟

-4-

ما إن حُرِّر العقار واتُّفِق على تاريخ التسجيل، حتى وضع لوبو وماركوز مخطّطاً مشتركاً لاحتمال أن يتأكَّدُ شكهما المرهوب بأنّ إستِلا قد شرعت في طريق اللاعودة إلى الداخل الأرجنتيني، خائفةً من فعلتها نفسها. في المدينة لم يبقَ أثر غير شهادة غير ذات معنى: شهادة صاحب مشوى ماتادِروس، الذي استقبلها على حين غرّ ة ورفض أن يُقرضَها مالاً، مُعامِلاً إيّاها كعاهرة.

عبّر لوبو لماركوز عن رغبته بمرافقته في تقصيّه، وعرض عليه أيضاً أن يُغطي نفقات منامته وطعامه، واعداً ألاّ يزعجه. لم يكن يزعجه من فكرته هذه غير خوفه من أن تختفي مغامراتُ أحلامِهِ عندما يُشارك هذا الرجلَ الرماديّ غرفةَ الفندق. ثمّ إنّه لم يغبْ عنه الشعور باحتمالِ أن تكون مشاطرته رجلاً آخر الغرفةَ أكثر ما في المغامرة من جاذبية: اختبار الطريقة التي تَغْمرُ فيها الألفةُ شخصاً مجهولاً. شيء شبيه بما شعر به، دون أن يدري، حين تعايش مع النملِ بعد رحيل إستِلا.

أودعَ لوبو، في اليوم ذاته الذي وقّع فيه عقد البيع، نصفَ المبلغ في صندوق أمانٍ وحمل الباقي معه كـ"رصيد للاستثمار" للقبض على الخائنة، وبالمناسبةِ استعادةِ إيفان، وإن بدا له هذا، لسببٍ ما، أمراً ثانوياً، ولكي لا يُثير جشع مستشاره ودليله قرَّر التكتّم الشديد على المبلغ المخصّص للمهمّة. فصل خمسة آلاف بيسو كي تبقى في متناول يده، ولفّ ثلاث رزمٍ، كلّ رزمةٍ

twitter @baghdad_library

من خمسة آلاف دولار في أكياس نايلون صغيرة ووضعها في ثلاثة جوارب في أسفل الحقيبة، التي سيحمل فيها أشياءه القليلة وبعض الغيارات.

سلَّم البيت مع مجموعة من الأثاث الغثّ: ملاعق وشوك وسكاكين، خلاّطة وبقية الأدوات الكهربائية المنزليّة التي جلبها بناء على إلحاح إستِلا. حمل معه السكين السويسرية متعدّدة الوظائف ومصباحَ يدٍ كهربائي، الشيئين اللذين بالإضافة إلى أنّهما قد يفيدانه، كان يحترمهما لأنّهما كانا لوالده. وبطلب واضح من ماركوز حضّر حقيبة إسعافٍ فيها خمسة ظروف أسبرين، ماء أوكسجين، هيباتالجين، قطن، لصقات جروح وميترودول.

غادر في ذلك النهار نفسه مع حقيبته إلى فندق في المركز. وما إن سوّى وضعه في الغرفة التي تطلّ على ساحة مايو، حتى فكّر أنّه قد يستطيع أن يقود عملية البحث ويصبح ماركوز مساعداً له. فعمليات البحث لم تعطِ حتى الآن إلا بيانات مضحكة، آثاراً ومعلومات، لكن ما من شيء دقيق أو أكيد، باستثناء أنّه دائماً يصل متأخّراً إلى المكان المقصود.

بدت له بونوس أيرس من الشرفة مروِّعة: مكتظّة بالحمام، شرفاتها كالتوابيت، أشجارها ملتوية، حافلات نقلها تُصارع كي تقف قربَ حافّة الرصيف متجاوزةً خطّ سيرها في الشارع. المدينة التي كان يتذكّرها اختفتْ وصارت الآن تجمعاً هرمونياً من أسمنتٍ وأبنية صفقاتٍ هجينة، تتضاعف في كلّ جزء من ألف من الثانية. شيء مشابه جرى له مع إستِلا. ما عادت هي التي يتذكّرها. أخذ ماركوز على عاتقه أن يخمدها بنكات متعلقة بماضيه. تساءل عمّا إذا كان ماركوز يستمتع بِقَدَرِيّته وتحقيقاته "الناجحة"، التي كان ينقلها إليه في كلّ لقاء موسّعاً دائرة مأساته. ربّما كان هذا الاستهزاء الذكيّ والتلاعب، هو ما يميّز ميوله، وأنَّ استعداده المتعلق بمهنته يكمن في هذا: الوشاية بما دبّره من وراء ظهر الزبون وتحضير الزبون لما هو أسوأ، أو بالأحرى مواجهته بذلك الشيء الذي تعايش معه في الخفاء. نبش ماركوز ماضي إستِلا، كما لو كان سرطاناً سرّياً يقضم أحلامه الذكريّة. وأكثر من اقتفاء الأثر في

النسيج السليم كان الثقبُ الذي سرّع بالانهيار، عثر على حبكة كانت تؤكِّدُ في الواقع عدم وجود الفجوة. فقط وببساطة لأنّ إستِلا صارت امرأة أخرى.. كان من المحال العثور عليها نفسها.

أوّل ما قاله له عند جلوسهما في المطعم ورؤيته لتعبير وجهِ ماركوز النائس ما بين المكتئب والمحتال، كان أنّه سيدفع هذه المرّة حصّته من العشاء، وأنّه منذ تلك اللحظة سوف يقتطع النفقات، وسيتولّى بنفسه حسابات الاستقصاءات التي سيقومان بها مستقبلاً. كلّ واحد يدفع ما عليه، فلأمر ما عملَ هو سنوات، ولأمر ما يتلقى ماركوز سلفاً.

"لا أدري ما الذي يجعلك تفترض أنَّ من الممكن أن يحدث هذا بطريقة أخرى؛ أنا رجلُ تحرٍّ خاصّ ولستُ مُحاسِباً. أتركُ أمورَنا المالية بين يديك"، وابتسم ناشراً المنديلَ على فخذيه."ماذا سنأكل؟ شيء مطبوخ؟. اليوم أنا الداعي. اطلبْ ما تشاء.لا تُخطئْ، نحن طرف واحد، أنا رجل ثقتِكَ، ولن أنصب عليك. أنا أكبر من أن يستطيع أن يأتيني نصبٌ ببعض الفائدة. ماذا تظن أنّني سأفعل بالمال لو أنّني نصبت عليك؟ أبني لنفسي ضريحاً؟".

بقي لوبو صامتاً، مكسوفاً لهذا النوبة من البخل، التي سرعان ما بدت له غير مُبرَّرة. على الرغم من أنّه كان منزعجاً جدّاً من السُّلَف، ومن التمادي القليل في الثقة، ومن اللف والدوران المسهبين، ومن أنّ رفيقه يُجسّد اليهوديَّ النموذجيّ الذي كانت تعيّره به أمّه لسنوات ـ "بخلاء، متمادون، خونة، لا تثق أبداً بـمويي ـ يهوديّ" ـ الآن يتساءل عمّا إذا لم تكن هذه الكنية الألمانية تنطوي على سلالة مختلفة بل وحتى نبيلة. فكّرَ بأنّه لا بدّ أن خلفيّة الإيثار عنده قد تدخّلت بالضرورة في اختياره لمهنته.

طلبا (كِفتَ) بحرياتٍ بالرزّ ونبيذاً أحمر. لاحظ لوبو كيف كان ماركوز يأكل ويشرب بشكل أعمى. افترض أنّ هذه التلقائية لا تعود للجوع بل لفعل التفكير: "لا بدّ أنّه يرتّبُ المعلومات ويُفَعّلُ مُسنّنات ذاكرته. بالتأكيد كان يتكلّم مع أيّ شاهد مزعوم كي يستغلَّ بعدها ساعاتٍ وأياماً في ترتيب

twitter @baghdad_library

شهاداته. يبدو أنّه لا يُسجّل ملاحظاتٍ ولا صوتاً. كان يُصغي بانتباهٍ كي تستقرّ كلّ معلومة في ذهنه وتظهر، كما في ملفٍّ، حين تتطلّبها المناسبة.

قبلَ أن يأتي على كِفتِه، حين كان كلّ شيءٍ يدلّ على أنّه سيرفع بصره عن الصحن، أعلن بتأخُّرٍ مهنيّ، أنّ عليه، نظراً للركود الذي يوجد التحقيق فيه، أن يجد نقطة انطلاق جديدة ويترك الغريزة تهديه: مثلاً هناك احتمال أن يكون والد إستِلا قد عاد إلى مسقط رأسه، كارمِن دِ باتاغونِس، وبحذر أقل من الذي اتخذته ابنته. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يخطر له الآن. لا بدّ أنّ هناك من يعرف شيئاً عن والد إستِلا. هزَّ لوبو كتفيه بنوع من الشكّية المفتعلة، التي ألقت بتأثيرها فوراً على ماركوز: "انظر، لا شيء، لا شيء في هذا العالم منطقيّ. لا يجب استبعاد إمكانية أن تذهبَ فتاةٌ، بعد أن دمّرت حياة أسرتها وكلّ الذين مرّوا في طريقها، إلى أبيها كي تتابع مجزرتها. أنا لن أخدعك. بما أنّه ليس لدينا مؤشرات، علينا أن نُراهِن. الرهان يعني الاستمرار في الحياة. قضيتُ حياتي مراهناً. كلُّ شيء شَمٌّ".

الجملةُ التي كانت فارغةً في البداية بدت للوبو بعد ثوانٍ مشحونةً بمعان لا يُسبر غورها. كما لو أنّ الرهان كان أكثر من ذلك: إنقاذ حيوات، كذب، حبّ، أي كلّ الطاقة الإنسانية المستجمعة في هدف. لاحظ أنّه لا يعرف شيئاً عن ماضي ماركوز. ربّما لأنه كان الوحيد الذي طرح أسئلةً حتى تلك اللحظة..

"هكذا كما تراني...، قضيتُ حياتي مُراهِناً. عملي كرجل تحرّ خاصٍّ مهنة متأخّرة، جاءتني مع الزمن، أعمال قمت بها تكليفاً، في البداية لأصدقاء، رحمهم الله، بعدها صرت أكثر مهنية. لكن ما كان يهمّني هو اللعب، أن أعيش من اللعب. شيء يكاد يُشبه العيش من النساء، هل تتصوّر كم من الترف في هذا؟ لكن بدل أن تستخدم بنتاً صغيرة تستخدم عقلك ذاته... لكن هذا يحتاج إلى عمر ومالٍ، وإلا فإنّ اللاعبين يتحوّلون إلى متسوّلين. سأحكي لك ذلك ذات يوم. ليست هذه باللحظة المناسبة. والآن لننتقل إلى موضوعنا". وختم بجشع: "الرحلة".

اتفقا على الانطلاق في اليوم التالي. "لا تأخّر بعد الآن" استحثَّه ماركوز، كما لو أنّ دوافع التأخّر السابقة مصدرها تردّد لوبو، وليس انعدام المبادرة الشخصية. وضّح أنّه إذا لم يعثرا عليها، فإنّ من المناسب أن ينتظراها، كيلا يعزّزا المصيبة، فهي عاجلاً أو آجلاً ستذهب إلى هناك. يُقدّمان نفسيهما خلال ذلك على أنهما مستثمِران، كي يُبرِّرا إقامةً طويلة، ويُراقبا عن كثبٍ من تبقى من أسرة إرنِستو ودوران.

أحزنته في اليوم التالي مغادرتُهُ للفندق أكثرَ من تركه لبيته. صادف في طريقه إلى رِتيرو بيدال، الذي بدا هزيلاً وبرّياً، كما لو أنّ أيّاماً مرّت عليه تائهاً. كان في حركتهِ شيءٌ من دمية مفكّكة. تأخّر في التعرّف على لوبو، لكن ما إن عرفه حتى حاول التعلُّقَ به كما لو كان قريباً، ووضّح له أنّ لعبةً من الرئيس الجديد تركتْهُ في الشارع، لا يستطيع أن يدفع الإيجار ولا أن يعيل أسرته. لم يعرضوا عليه حتى الاستقالة الطوعية، ولذلك هجر عائلته، مُرتكباً فعلةً جبانة، لم يكن عنده مشكلة أن يعترف بها، ليعيش في نزلٍ في وسط المدينة. ومع ذلك لم يكن هذا هو أسوأ ما في الأمر، فقد اكتشف نتيجة لهذه المأساة أنّه لا يُحبُّ أسرتَهُ، ويستطيع أن يستغني عنها. "إذا شربنا فنجان قهوة سأحكي لك عن الوضع بشكلٍ أفضل..." وضّح له لوبو أنّه مسافرٌ إلى الداخل في تجارة. شدّ غريزيّاً على حقيبته التي تحتوي على الدولارات الملفوفة بالجوارب، خشية أن ينتزعها منه بيدال، الذي عرف دائماً كيف يقرأُ أفكارَهُ ومقاصدَهُ، ويهرب بها.

"لم يكن هناك شيء ضدّك...، لكن كان يجب أن يُفْصَلَ أحدٌ منّا. وكان هذا من نصيبنا واحداً بعد الآخر... أنتَ خرجت منها رابحاً. كل طاقم المفتشين المحالين للتحقيق تقريباً جُدِّدَ له بعد خمسة أشهر، وحده ماتيينثو أُفلِتَ، لسببٍ ما. يبدو لي أنّه باعنا جميعاً".

وافقه لوبو وهو ساهٍ. العمل الذي بقي فيه عشر سنوات لم يكن يهمّه قيد أنملة: كان يُشكّل جزءاً من حياةٍ أخرى. لم يفهم كيف بقي كلّ هذا

twitter @baghdad_library

الوقت في عملٍ ليس له أثر في حاضره. الرجل الذي كان أمامه كان مجهولاً، لكنّه ولثوانٍ ولّد عنده ذلك الاحتقار المتأجّج الذي لا يستطيع أن يولّد إلا من أحببنا وخَيَّبنا، وحده. كرّر أنّه لا يريد أن يضيع الحافلة، ووضَّح له أنّه حتى لو لم يكن مسافراً، ما كان ليُرافقه إلى القهوة ليستمع إليه: لم يعد يوجد شيء مشترك بينهما. "لكن، يا سيلبيو، من أجل الصداقة الماضية، ساعدني، أنا أعيش في نزل". تلطّف لوبو به لحظة وهو يُفكّر أنّ هجر إستِلا كان غير ذي معنى مقارنةً بالهجر المدمّر الذي اختاره بيدال، وقرص شيئاً في جيبه. لكنّه سرعان ما انكمش: فرفيقه القديم كان يستحقّ تماماً ما كان يعيشه، تصوّره للحظة شريكاً أساسيّاً لإستِلا، وسمح لنفسه مُؤخِّراً يده في جيبه، باللعب بأعصاب رئيسه هذا الذي تحوّل إلى شحّاذ.

"ألن تُعطيني شيئاً؟"، استعادت عينا بيدال بريقهما الخبيث، الذي كان لهما في زمن آخر. "ولا حتى خمسة بيسوات؟". زلّق لوبو كلمة "لا" من بين أسنانه. "أنت مدين لي بكلّ شيء. عملت مغك معروفاً. أنت ذاهب في رحلة"، شدَّ بيدال بعد أن قال هذا على عينيه فبهتَ بريقهما، كما لو أنه استنفد كل احتياطيّه الإنساني.. مرّة أخرى صار رجلاً بلا نظرة.

سار لوبو عشرين متراً مسرعاً وأوقف أوّل سيّارة أجرة مرّت به. راقب من خلال الزجاج الخلفي، بينما السيارة تبتعد، صورةَ بيدال، التي راحت تصغر في كلّ مرّة أكثرَ وسطَ شارع سانتياغو دِل إسترِو، وهو يُلوّح بيده مثل طفل يوَدِّعُ أمّه.

كان ماركوز ينتظر على رصيفِ القطار ومعه حقيبة يدٍ جلديّة وحقيبة عملاقة، ربّما كان ينقل فيها كلَّ ممتلكاته. تبادلا التحية بحرارة، وشدّ كلٌّ على يد الآخر. انتابت لوبو رغبةٌ بأن يحكي له عن لقائه مع بيدال. لكنّه كبح اندفاعه واكتفى بوضع حقيبته بجانب حقيبة ماركوز ليقارن بين حجميهما. "أنا المسؤول عن التحقيق، وعليّ أن أحمل معي كلّ المواد التي يمكن أن

تُساعد على جلاء حالة ما، بينها ملابس مناسبة لاستنطاق المخبرين المحتملين، وأرشيفاتي الشخصيّة، كي أستنتج وأربط"، قال مستبقاً أي عتاب.

"ماذا؟ إذن أنت تُسجّل ملاحظات؟"، سأل لوبو منقبضاً قليلاً.

"عن كلّ الأشياء... وأُعيد قراءتها دائماً، لأنّ قضيّة ما قديمة يمكن أن توضِّح قضية حاضرة... كما أحتفظ بقصاصات بوليسية منذ العام 1972 وحتى الآن، عندي كلّ شيء".

أمام تعبير وجه لوبو غير المُصدّق، توسّع في حديثه منزعجاً قليلاً، ووضّح له أنَّ ما يعيشه هو، مثلاً، ليس استثنائياً، ولا حتى فريداً، فهو في جزءٍ منه تكرارٌ لقضيةٍ أخرى، وهكذا دواليك إلى ما لانهاية. ليس هناك قضيّة معزولة، حجريّة، في الأعماق هناك ملايين القضايا المستطرقة التي كانت تشكّل قضيّة فرعية وحيدة من الخطيئة. كان هناك سلوكيات كونية، ثابتة، مقاييس للسلوك. لقد ثبت أنّ ستين بالمئة من البشر أمام وضع ما، كانوا يجيبون بالطريقة ياء. "وإلا لكان من المحال حلّ قضايا لا تملك أي مؤشّرات. لذلك أنا بحاجة إلى أرشيفي. نحن ذاهبان إلى البلدة التي وُلِد فيها الوالدُ، لأنّ امرأة في عام 1982 عادت، بعد أن قتلت زوجها وخطفت ابنها، إلى البلدة التي ولدت فيها... وهناك وجدوها. ربّما تكون إستِلا أيضاً من بين هؤلاء الستين بالمئة".

"أو ربّما كانت ستذهب إلى مكان ولادة أبيها لو أنّها قتلتني. لكنّني حيّ".

"هذا ما سنراه... جزء منك ميتٌ في مكانٍ ما أو في شخص آخر. وإلا لما كنت الآن بجانبي تنتظر حافلة للعثور عليها".

ارتأى ماركوز. كما لو أنّه قرَّر فجأة الهرب والبحث عن ذريعة آنيّة كي ينسحب، نهض لوبو مع حقيبته وقال إنّه راجع وإنه بحاجة لأن يهتف. هزّ ماركوز رأسه موافقاً ولاحقه بنظره، واثقاً من أنّ ذلك الرجل لا يمكن أن يكون قد قرّر الهربَ في آخر لحظة لمجرَّد أنّه أشار إلى أنّ جزءاً منه كان ميتاً في آخر.

من محلّ هاتف غير مأمون، حيث الحجيرات تسرب الصوت وتعكس تعابير وحوارات الحجيرات المتجاورة، هتف لوبو لأمّه وتصوّر هجوما أخيراً.

twitter @baghdad_library

لكنّها قطعت المكالمة ما إن عرفت الصوت. ظل برهة جالساً في الحُجيرة متشمّما حوارَ رجل كان يصرخ بجانبه ويسيء معاملة شخصٍ ما يبدو أنّها زوجته، إلى أن أُعْلِن بمكبرات الصوت عن خروج الحافلة إلى بييدما. وتوقّفها في باهيّا بلانكا وكارمن دِ باتاغونِس. في هذه اللحظة ضرب الرجلُ الزجاج الذي يفصل بين الحُجيرتين بقبضته:

"ماذا تنظر، أيّها الأبله، هل أنت تقرأ شفتيّ..."

لوبو المخلص لبقائه على قيد الحياة وفكرة أن يصل سليماً إلى باتاغونِس، خرج مثل الرمح دون أن يدفع أجرة المكالمة التي لم تكن لتكفي للشروع بشتيمة.

ما إن استويا في المقعد الأخير المزدوج من الحافلة، بجانب الحمّام، حتى أخرج ماركوز من حقيبة يده بطحةَ ويسكي وأخذ منها ثلاث جرعات صغيرة ومرّرها له. لم يتشجّع لوبو على رفضِ هذا التعميد المشترك، على الرغم من الذكريات السيّئة التي تأتيه بها الويسكي الوطنيّة: اللقاءات المسائية مع سِغوبيا وماتيينثو وبيدال، بعد الدوام في المكتب، حيث كانوا يتبادلون معلومات عن صفقاتٍ، كما يتكلّمُ آخرون عن النساء. ولّدت الويسكي جوّاً من التعايش في الحافلة شبه الفارغة.

"هل استطعت أن تتكلّم مع أمّك؟".

"قطعت الخطّ... كيف تعرف أنّني هتفتُ لها...؟".

"حاسّة الشمّ. الأبناء الوحيدون دائماً يهتفون قبل أن يُغادروا. لا يقاومون نداء النوع. لم تتمكّن من قول شيء لها، أليس كذلك؟ أعني إلى أين نحن ذاهبان، ولماذا".

استقصى مشغولاً قليلاً، منفصلاً بصعوبة شاقة عن المقعد، الذي أماله إلى حدّه الأقصى.

"لم أقل شيئاً... قطعت الخطّ. ثم إنهما لم يكونا قط على وفاق".

"كان هذا سابقاً، الآن لا تستطيع أن تعرف... لا يمكن معرفة ذلك أبداً، فهما هناك تتواصلان والفريسة تفلت منّا. إنَّ أيّ حماة عدوّة عندها دائماً شريك عندما يتعلّق الأمر بتدمير ابنٍ متمرّد. وأمّك هي بوضوح من هذا النوع من الحموات".

لم يملك لوبو همَّة كي يشعر بالإهانة. بل إنّ تحديد ماركوز لسوءِ نيّة أمّه بكلِّ ذلك الوضوح وتقديم بعض الخضوع له، قد أراحه. استمرّا في حديثهما بِخِفَّةٍ أكبر. وبقضائهما على البطحة بدأا يتكلّمان من دون كلفة. أُطفئت أضواءُ الحافلة وبدأ يُعرض على شاشتين قياس خمس عشرة بوصة فيلم عنفي يلقي الضوء على حياة شرطيّ فاسد في نيويورك، لاحظ لوبو تحت تقطّعات النور الفجة أنّ في صفوف المقاعد المجاورة أحداً يبكي. يبدو من حجمه أنّه طفلة، طفلة تركها أبواها في الحافلة، أو امرأة صغيرة الحجم. تذكّر أنّ أمَّه أرسلته في حافلة صغيرة في المقعد الأوّل منذ زمن بعيد جدّاً، وحده، لزيارة بيت عمّة له، فوضع ذقنه بين ركبتيه وأحاط ركبتيه بيديه خوفاً من أن يقترب منه مجهول في الظلمة، ولكي يسلو الخطرَ المترصّد به غرز نظره في الطريق من خلال الزجاج الأمامي، ولاحظ كيف أنّه شاهد خلال الرحلة دهسَ كلبين. لكنّ الطفلة / المرأة الآن لا تُبدي أيّ نوعٍ من الخوف، كما لو أنّ في التجرّؤ على البكاء جهراً أماناً.

حين توقّفوا في محطّة باهيّا بلانكا، فتح لوبو عينيه ورأى على مقعدٍ في المحطّة شابّةً صغيرةَ الحجم تأكل بوظة. لا يجب أن تكون قد تجاوزت الثامنة عشرة. خصلات شعرها كانت تعبر وجهها، وجهَ الدمية، المضغوط والشاحب كَوَجْهِ ملاك. وجد تشابهاً لا يمكن نكرانه بينها وبين المرأة الصغيرة التي كانت تبكي في الحافلة، وفكّر أنّ هذا التشابه يمكن أن يكون نتيجة البكاء. أراد أن ينهض ويذهب إلى حمّامات المحطّة، لكنّ وسن الكحول أبقاه في مقعده. حينها غفا وهو يراقب تلك الفتاة، التي ما إن أشعل السائق المُحرّك حتى سارعت وصعدت إلى الحافلة مترنّحةً مثل بطريق.

twitter @baghdad_library

- 5 -

في الثامنة صباحاً أيقظهم صوتُ السائق. خلّفا في المقعدين اللذين شغلاهما فوضى تشبه تلك التي يُخلّفها حبيبان عندما يُغادران غرفةً في فندق. جرّا الحقيبتين حتى أوّل شارع. لمح لوبو في البعيدِ، من حيث تُطلُّ الشمسُ، امرأةَ البوظة، وقرّر أن يلحق بها. كانت تسير مضمومةَ الركبتين المنحنيتين جدّاً بترنّحٍ بسيط لا يصل حدَّ العرج، كما لو أنّها تمشي بين حفر. رأى أنّها تحمل في يدها اليمنى حقيبة صغيرة.

"هل أنت مجنون؟ ماذا يمكن أن تقول لنا عرجاء؟ هيّا بنا ننام. عندنا حجز في فندق، سنرى بعدها، الآن إلى الراحة، هذه الرحلات طاحنة"، قرّر ماركوز. لم يكن يعرف لماذا كانت تشدّه تلك المرأة الصغيرة ودوَّتْ كلمةُ عرجاء في أذنه دهمائيةً ومهينة.

"ألا تلفت الحقيبةُ نظرك؟".

ضغط ماركوز على جبينه كما لو أنّ رأسه يؤلمه، وقال له أنّه ما من شيء يلفت الانتباهَ في تلك الفتاة.. من مظهرها يبدو أنّها تحمل في الحقيبة أدويةً. بالتأكيد كان أبواها يرسلانها إلى بيت بعض الأقرباء في بونوس أيرِس مرّةً في الشهر. وهي عائدة الآنَ والحقيبة مليئة بالمراهم والضمادات للساق المريضة. لوبو، الذي أفحمه خبثُ شريكه، احتجَّ: "وماذا لو أنّها كانت تحمل مخدرات؟ أو أنّ عصابة تستغلّها لنقل السلاح والأموال المزيّفة؟".

"سنوات في الخدمة، يا لوبو، هذا ما عاد دارجاً، نحن نعيش الآن في عالم آخر. منذ خمسة عشر عاماً كان باستطاعة فتاة كهذه أن تنقل سلاحاً. بل وقبل ذلك أن تكون مرشّحة لأن تصبح مقاتلة في حرب العصابات. لكن الآن... ومن النظرة الأولى أستطيعُ أن أقولَ لك إنّ هذه الفتاة، إضافةً إلى أنّها عرجاء، مصابةٌ بداء الصرع".

"وتدّعي أيضاً أنّك طبيب، أيّها العجوز الأشمط"!

كاد لوبو يُجيبه، لكنّه سكت، واجترّ الرغبةَ بأن يفشل كلّ التحقيق كي تنهار عجرفةُ ماركوز وثقته تماماً. في هذه الحالة لن يدفع له شيئاً، ثمّ، وبعد أن يهينه، يُحوّله إلى رئيس خدم له في قصر ريفيّ، ولوبو يملك إمكانيات كبيرة كي يجعل القصر يزدهر بالدولارات التي يلفّها في جواربه، نتيجة الرواتب المنخفضة في الداخل وأسعارِ العقارات الهابطة بعد التضخّم المالي وانهيار بلدان الجنوب.

ما كان ماركوز يسميّه فندقاً كان نزلاً قديماً أمام ساحة مشجّرة، عليه لافتة تقول "إقامة". قامت، بعد أن اجتازا ردهةً، سيّدةٌ يبدو أنّها كانت تُجري حساباتٍ خلف طاولة الاستقبال، بتسجيلهما في سجّل ضخمٍ. وجّهت إلى ماركوز نظرةَ ارتياب ثمّ سألته:

"سبب الزيارة؟".

"تجارية".

"هل تُفضّل الغرفة تُطلّ على الشارع أم على الجهة الخلفيّة؟"، سألت دون أن ترفع نظرها، رافعة حاجبيها الكثّين، بينما راحت تخطّ كلمة "تجارة" بأحرفٍ غير متناسقة على سطرٍ أحمر، كما لو أنّها تكتبها لأوّل مرّة.

قاما بجولة في المكان. كان لغرفةِ الواجهةِ الخلفية، التي ليس فيها غير فراش واحدٍ مزدوج وليس فيها نوافذ نوافذ ولا حمّام، بل دوش مضحك ملحق بزاوية منها، كان لها مظهرُ زنزانة. اختارا الغرفةَ التي تُطلّ على

twitter @baghdad_library

الشارع، لها أبواب حاجِبة وحمام صغير فيه دوش كهربائيّ فوق المرحاض وسريران فرديان، ملاصقان للجدار على جانبَي النافذة.

ذهب ماركوز للنوم وخرجَ لوبو ليجوب البلدة، بعد أن أفرغ أمتعه ورتّبها في خزانة. فكّر أنّهم إذا دخلوا ليسرقوا فالشيء الوحيد الذي لن يأخذوه هي السراويل الداخليّة والجواربُ بثروته الصغيرة. حين رأته صاحبة النزل يخرج هرعت للقائه وسألته عمّا إذا كان هذا الرجلُ الغريب الذي يُرافقه هو عمّه أو شيء من هذا القبيل؟ حتى تلك اللحظة كان لوبو يفكّر أنه هو الغريب في الثنائي. "لا. مجرّد زميل"، أجابها وحين رأى التعبيرَ الحذر على وجه السيّدة فهم أنّها كانت تنتظر جواباً آخر، مُسارّة طوعية حول التجارة التي جاءا ليقوما بها.

اجتاز الساحةَ مسرعاً، كما لو أنَّهم يُلاحِقونه. كانت الشوارع مقفرة، ولذلك كان من المحتمل جدّاً أن يراه الجميعُ من جحورهم المسائيّة، يمرُّ. كان الإقفار يُحوّلُ البلدةَ إلى مكان مُغفل في فقره، إلى أيّ مكان في بلد مشمسٍ. كان العشب والواجهات تبدو خشنة بفعل الضوء. وأخذ الانحدار الطبيعيّ للشوارع يُقرِّبُه من النهر. في البلدة القديمة فوق الهوة مدرجات وبيوت من المرحلة الاستعمارية. النسمة تحرّك الصفصافَ قليلاً واحتكاك الأوراق يُحدِثُ صفيراً. ملايين الومضات الرنّانة تتشابكُ. الأشجار مثل رايات نصرٍ مُنَسَّلة، تنعكس غير مركَّزة في الماء الذي يهتزّ قليلاً بفعل زورق يربطُ بين ضفّتي نهر نِغرو.

تساءل لوبو أمام النهر عن سببِ ضيقهِ. لم يكن الهرب، لكنّه فعلاً كان الابتعاد. استنتج أنّ بقاءه مع ماركوز وحيدين في الغرفة يُعَكّر مزاجه. منذ مغادرَتِهما وعسرِ الهضم المبكّر الناتج عن الويسكي، سار كلّ شيء بسرعة لم تمنحه الوقتَ كي يُفَكِّر بأنّه قد يخضعُ لاحقاً، كما في حافلةِ المسافات الطويلة، لنوعٍ من التزامن القاتل ساعةَ ينام ويستحمّ وينعزل في سريره كي ينظر إلى

السقف أو يقرأ الصحيفة. ماركوز سيكون هناك دائماً، باستنتاجاته وفرضياته وعِظاته، مثل ظلِّ امرأةٍ.

بدأ يتجول ناسٌ أكثر قليلاً. بعض الأشخاص الذين كانوا ذاهبين إلى العمل في فييدما، على الجانب الآخر للنهر، تجمّعوا في المرفأ. ما عادت باتاغونس تلك البلدة التي تغلّبت على المنفى؛ صارت الآن مكاناً سرّياً تُغشى فيها المحارم، يُغادرها الأشخاصُ صباحاً ويعودون ليلاً، كي يلوذوا ببيوتهم أو يلقوا الحماية من آثام ارتكبوها على الطرف الآخر من النهر. ظهرت فتاةُ الحافلة الصغيرة في آخر لحظة في المرفأ. أوقف أحدُهم سائقَ الزورق صارخاً: "هيه هي ذي ثِلستِ قادمة، انتظرْ، يا سيّد". صعدت هي بثياب الساعات الماضية ذاتها إلى الزورق بجهد كان خارقاً إلى حدّ أنّ كلّ شيء فيها بدا للحظة يدخلُ في فوضى الحركة.

عندما ابتعد الزورق التفت الركابُ بنظرهِم إلى لوبو، كما لو أنّهم كانوا يتحمّلون فضوله. ذهب الزورق وعاد ثلاث مرّتٍ. تحمّل لوبو المشهدَ نفسَهُ بشكلٍ طبيعي: النظرات الغامضة عينها، يرمقه بها الركابُ الجدد، الذين يركبون بمزاج سيّئ كي يعملوا على الضفّة الأخرى. بعد برهة سرقه النوم على العشب. عندما استيقظ في منتصف النهار كانت الشمسُ تتأجّجُ في وجههِ، والضفّةُ مقفرة، كما في الصباح الباكر، والزورق يبدو أنّه ضاع في الأفق. تجسّسَ في أثناء العودة إلى النزلِ على مطعمين شعبيين أو ثلاثة تُقدّم أشياءَ تليق بأن يحتفل بغدائهِ الأوّل في بلدة أشباحٍ، دخل ليتحادث. عندما سألوه في واحدٍ منها لماذا هو في باتاغونِس، ارتكب حماقة القول بأنّه يبحث عن آل دوران. سارع فتى أصلعُ، لكن له وجه طفلٍ، ليقول له إنّ في باتاغونِس عدداً من آل دوران، بينهم واحد نائب في مجلس البلدة. يكفي النظر في دليل الهاتف. فكّر لوبو أنّ هذا ما يعمله أيّ مُحقّق ولم يزعج نفسه بمراجعة دليل الهاتف، كيلا يغزو بفضوله المجال الذي لا شكّ سيبدأ بالاستقصاء عنه رفيقه ما إن يخرج.

twitter @baghdad_library

كان ماركوز نائماً على ظهره، مرتدياً منامة مخطّطة بخطوط زرقاء وبيضاء، تبدو لباس سجين موّحد ومستهلك. كانت أجفانه ترتجف قليلاً. أشاحَ لوبو بنظره عنه، كما لو أنّه اكتشف أحداً عارياً أو في وضع حميم.

"لا تُحدث ضجّة، دعني أنام...".

دمدم ماركوز، وعندما انقلب كي يلفّ نفسه بالملاحف أطلق ضرطةً بالتزامن مع السرير الذي أطلق صريراً مريعاً، مثل قطٍّ داسوا على ذيله. "ماذا تفعل هناك؟، تحرّك. أنت لا تتركني أنام. ماذا يجري"؟. وبّخه فاتحاً عيناً، والجفن السميك أكثر من اللازم تضخّم حتى كاد يُلامس الحاجب: "ألا ترى أنك لو بقيت واقفاً ستُذهِبُ النوم عنّي؟".

"إنّه منتصف النهار. علينا أن نتناول طعام الغداء. بعدها ستغلق كلُّ المحلات" أجاب لوبو مجبراً نفسه على نبرة متفّهمة.

"وماذا يهمّني...، إنّنا نتكَ.. نتكيّف" ودوّت ضرطة أطول ومُهَمّدة أكثر من السابقة تحت الملاحف السميكة. "اعمل معروفاً وأغلق درفتي الساتر".

جمع لوبو، النشيط، الدرفتين وأطبقهما، ولدَيْهِ انطباعٌ بأنّ الطلب على علاقة بالغلمة أكثر منه بالضوء الخارجي، كما لو أنّ الظلمةَ تُخمد في الواقع غازاتِ البطن، وقال في العتمة: "لم نأتِ في إجازة. لقد تحرّيت قليلاً عن آل دوران. بعضُهم يعيش في بييدما".

الجواب الذي وصله كان شهيقاً عميقاً من ماركوز. فكّر للحظة أنّ أكثر من شخص ينامُ في الظلمة، فخرجَ مُهاناً قليلاً إلى آخر مطعمٍ شعبيّ كان قد مرّ به.

وما إن أصبح هناك حتى طلب طبقَ اليوم. على كلّ من الطاولتين الأخريين كان هناك اثنان من رجال تعلوهم كلّ مظاهر البطالة المزمنة. تسلى شاغِلا إحدى الطاولتين بالنظر إلى لوبو برهةً لا بأس بها، راهنا على ما سيأكل ابنُ بوِنوس أيرِس ذاك: "شُعيرية بالتوكو، وشريحة لحم مغطّسة بالبيض، وتورتيّا، وبقيا مترقّبين. تفادى الآخران على الطاولة الثانية النظرَ إلى الغريب،

على الرغم من أنّ رجلاً بشواربٍ وشعرٍ أشيبَ كان يرمقهُ من حين إلى آخر بنظرة ويُتمتم بشيء لرفيقه. طبعاً لم ينتبه لوبو للنظرات ولا إلى الرهان الذي تمّ على حسابه، لكنّه انتبه بالفعلِ إلى المُسارّة في المرآة، وأزعجته التمتمة حول وجوده أقل من قراءته لاسمِ إستِلا على شفتي النديم ذي الشوارب. درس فكرةَ أن يقترب منه، لكنّ الشعيرية بالتوكو وصلت في تلك اللحظة ذاتها فرأى من خلال الدخان كيف راح الرجلان يختفيان. على الطاولة الأخرى طلب الذي خسر الرهانَ في اللحظة ذاتها الحسابَ كي يدفعه.

استغلّ لوبو لحظةَ طلبه للحسابِ كي يسأل النادلَ من كان رجلُ الشوارب الذي كان جالساً على الطاولة الأخرى؟

"ليس الشخص الذي تبحث عنه".

أجابه ذلك الرجل الذي لا عمر له، وقال أمام إصراره بجفاء أنّ ذلك الرجل كان مالكاً لنصف باتاغونِسْ، بما فيه المكان الذي يجلس فيه هو نفسه. خرس لوبو وفكّر أنّ عليه من الآن فصاعداً أن يأخذ بالحسبان أنّه مُرَاقَبٌ أو أسيرٌ، يُلاكُ إلى ما لانهاية في سلسلة لا تُدرك من التقولات تصل إلى صاحب العمل وتتجسّد في كلمة "إستِلا". لا بدَّ أنّ الذين كانوا يتظاهرون معه بالألفة، من أمثال صاحبة النزل، هم الأكثر قِوادة. في الحقيقة إنّ أكثر الأمور عاديّة في بلدة لا يحدث فيها شيء غير وصول مسافر، هو أن يقضي الناسُ، الذين لا عمل عندهم أو المستخدمون الفارغون، وقتَهم في إنتاج مسلسلات من التقوّلات.

سار. أكثر من شخص أطّل من داخل البيوت، غريزياً، كي يراه يمرّ. شعر سيلبيو لوبو في هذه السكينة المشمسة وعلى الإسمنت الصلب في بلدة ملعونةٍ بأنّ خطواته تدوّي. عَبَرَ الساحةَ ذاتها. وفي عملٍ فيه الكثير من النظر بين الفينة والأخرى، وصل إلى صالة الاستقبال المقفر، وتابع نحو غرفته. كان ماركوز في الوضعية ذاتها، بالنمامة وفمه إلى الأعلى، لكن دون شخير. وعلى الرغم من أنّ ضربة ريح ردّت الدرفتين، كما يبدو، إلا أنّ عتمةً طبيعية كانت

twitter @baghdad_library

تطفو في الجوّ، كما لو أنّ غيمة غطَّت الشمسَ توّاً. وجد ورقة مطوية في الغرفة. سارع لقراءتها وتخبئتها في جيبه. فكّر أنّه لن يُشاطرَ هذا العجوز الكسول معلومةً طازجة. ربّما استطاع أن يحلَّ كلّ المسألة من دون هذا الطفيلي المتقنّع بزيِّ رجلِ تحرٍّ. شيء من هذه السرّية التي أثارها ماركوز كانت تُولّد عنده راحة وتعيدُهُ رجلاً كاملاً يستطيع أن يعتمد على نفسه، كما لو أنّه في هذه البلدة، ولأنّه بلا ماضٍ، يوشكُ أن يشرعَ بتجارة عظيمة ويصبح ثريّاً. فهو بأتعاب ماركوز ومصروفِهِ وإقامتِهِ يستطيع ببساطة أن ينسجَ شبكةً من الرشاوى كي يصل إلى إستِلا. بل يستطيع أن يصل إليها من دون أن يتحرّك من مكانه إذا ما عثر على رجلٍ موثوقٍ، أحدٍ أكثر حيويّة من ماركوز، لكنه يتمتع ببراءته وأبوّته. استلقى ليرتاح ووعد نفسه أن يهتف تلك الليلة ذاتها لصاحب الرقم المكتوب على الورقة.

فتح عينيه قليلاً، مُضطرباً من نقاشٍ كان يدور خلف النافذة، على الجانب الآخر من الشارع. تأخّر حتى أدرك أنّ ماركوز كان قد نهض، وغادر وأنَّ أحدَ أصواتِ النقاش الثلاثة كان صوتُه. امرأة تطلبُ منه ثلاثمئة بيسو لتصله بابن عمّ إرنِستو دوران. ماركوز وبرصانة لا تتوافق مع الطريقة التي أمره فيها قبل ساعات بأن يُغلق درفتي ساتر النافذة، قال لها إنّه مبلغٌ كبير جدّاً.

"مئتان" تدخَّل الرجل الذي كان يُرافِق المرأةَ، "هي مريضةٌ، ساعِدْنا".

"شركتنا لا تُبذّر، تمضي إلى المضمون". أنا مهنيّ وفي هذه الحالات يبدأ بالظهور أبناء عمومة. أبناء عمومة من كلّ الأنواع، مولعون بالكذب. ناس لم يُحبّوا قط القريبَ المَعني. أنتِ تعطينني المعلومة وبعد غدٍ نلتقي".

"ما من تسوية. مئة بيسو أو لا شيء".

"خمسون"، سارع ماركوز.

"طيّبْ، سجّل. شارع غويمِس، 765، بييدما"

"وعمّن أسأل؟"

ساد صمت. تبادل الرجلُ والمرأةُ النظر مرعوبَيْن، كما لو أنّهما لم يتصوّرا إمكانية أن يُعطيا اسماً إضافة إلى العنوان، حتى أجاب الرجل: "الملتحي".

من الجانب الآخر من النافذة تذكّر لوبو جملةَ النادل: "في بييدما هناك عدد من آل دوران، بينهم نائب في مجلس البلدة. حفظ العنوان وفكّر أنّ المعلومة على كلّ حال لا تنطوي على تقدّم في التحقيق. في هذه اللحظة عاد ماركوز إلى الغرفة، تظاهر لوبو بالنوم وسمع رفيقه يسير من جانب إلى آخر، كما لو أنّه يَشْتَمُّ أثراً. أخيراً يبدو أنّه وجد ما كان يبحث عنه. بدأ يتصفّحُ رزمةَ أوراق. بعد برهةٍ يحرف رأسه وينظرُ إلى لوبو من بين حاجبيه ومن فوق العدستين الهائلتين للنظارة التي وضعها على عينيه، قال: "استيقظْ. غداً سنذهب إلى بييدما. بينما أنت نائم كنتُ أعمل... هناك قريب لأبي أستِلا في بييدما... أنا لا أبني أوهاماً. لكنّها معلومة نافعة. هناك شخص ما من آل دوران يعيش في المنطقة. على الأقل لم نخطئ بالطريق، أيّ كُنية هي طِعم. إستِلا يجب أن تكونَ قريبةً. لم يقل أكثر من ذلك وتابعَ قراءته، في نوع من كتاب محاضر جلسات، مجلّد بغلاف قاسٍ من قماشٍ أزرق، كانت حروفه من الصغر بحيث أنّه هو نفسه كان يستعين بين فينة وأخرى بمكبّر. استوى لوبو في سريره، وتجسّس بحذرٍ على الكتاب. جعله نوعُ الورق البائسِ كورق دليل الهاتف وترتيبُ الكلمات وحجمُ الحرف والطباعة والجداول، يُفكّر بأنّ الأمر يتعلّق بكتاب مقدّس أو كتاب حساب.

"في بييدما يجب أن نستغلّ وجودنا لنذهب إلى الكازينو. يمكن أن نصبح غنيَّيْن. نعثر على إستِلا ونصبح غنيين. ليس ترفاً أن يُجرِّبَ المرءُ حظّه. ألم نكن رَجُلَي أعمال؟"، قال ماركوز وأتبعَ السؤالَ بضحكة.

الأشخاص الذين يحملون معهم الكتابَ المقدّسَ ويقرؤونه في أوقات فراغهم عادة ما يكونون مرتزقة مهووسين بالثراء، أو فاسدين يجنون على أنفسهم بأنفسهم، يعيشون واضعين رِجلاً في الفصام وأخرى في المجون، أو نصّابين يسلبون الناسَ مُستغلين جهلهم. وسرعان ما ربط لوبو ذلك بالخيار

twitter @baghdad_library

الثاني، فقد فكّر مستغرباً أنّ ذلك الكتاب المقدّس يتكلّم عن الخطيئة وليس عن المُخْلصِ الموجود في ماركوز. كان الفشلُ وليس الطموحات الكبيرة هو ما يدفعه إلى الارتشاء غير المباشر. تساءل عمّا إذا لم يكن يُحاول من خلال اللعب بأموالٍ هي دائماً في متناول يده، أن يُصلحَ من قدره، وعما إذا لم تكن إمكانية المراهنة الدورية تشكّلُ تاريخَ حياته. في أيّ لحظة من عمر ماركوز خرجت حياته عن سكّتها؟ افترضَ أنّ ذلك حدثَ في مرحلة الشباب، حيثُ تُحدّد المآسي العائلية قدرَ الضلال في مرحلة البلوغ. ربّما كان أبوه انتحارياً أو أمّه خائبة في حبّها وكحولية.

"لا أعرف شيئاً عن ماضيك".

"ولماذا ستستطيع أن تعرف شيئاً؟"، أجابه ماركوز دون أن يرفع نظره عن الكتاب. "من الأفضل ألاّ تعرف شيئاً. ليس هناك أي شيء خاص... تذكّرْ أنّك المسؤول عن التمويل. سجِّل كلَّ شيء في دفترك. أنا أهتمّ بالحسابات وبالإحصائيات. سبق وقلتُ لك إنَّ هناك مقياساً للسلوك، دورات للقَدَر. فَهْمُ هذه الدورات يحتاج للكثير من الوقت ". شرح له بعدها، مُطبقاً أجفانه، كما لو أنّه يقرأ شعراً عن ظهر قلب، أنّ القدرَ يتصرّف كالبحر: المدّ يترك آثاراً. هو فهم هذه الدورات متأخّراً جدّاً، بعد أن خسر كلّ شيء في سباقات الخيل. بعد هذه الخسارة الكلّية صار الربحُ أو عيبُه الخسارةُ مسألة مضحكة، لكنّ حلَّ مشاكل دنيوية عامة، مثل اختفاء إستِلا، بدأ يكتسِب عنده في كلّ مرّة معنى أكبر، كما لو أن أرض الرهان انزاحت ولم يبق أمامه الآن غير فكّ رموز القدر في المأساة الإنسانية. المسألة أنّها كانت معادلة من بين آلاف المعادلات، اكتشف متغيّراتها وبقي عليه أن يحلّها بالعثور على قيمة المجهول: أبو إستِلا. كان هذا هو نبوغه الحقيقيّ: أن يستسلِم لمنهج، يلتقطَ إشاراتِ القدر، الثقوبَ، ويضعها في الخدمة العامّة. لو لم تُحدّثه ابنةُ العمّة عن إرنِستو دوران، ما كان ليبحث عنه أبداً. لكن إذا كانت قد ذكرته فهذا يعود إلى أنّه يشغلُ مكانة بارزة وصامتة في تاريخ الأسرة لا يمكن لإستِلا أن تجهلها.

حرّك لوبو رأسه ببطء، كما لو أنّه يستنكر شئياً أو يندم عليه في داخله.

"يا لوبو، هذه الأشياء تُفهَم متأخرة، عندما لا يكاد فهمُها يفيد شيئاً. هكذا هي الحياة. تصل المعرفة حين لا تعود تفيد. لكن الآن... وبالعودة إلى ما سبق، نعم هناك معنى للمراهنة. القدر لصالحنا. وباستثمار صغير، سنصبح بالتأكيد ثريين. هل قلتُ لك إنّنا سنذهب غداً إلى الكازينو؟ إنّه جزء من التحقيق. إذا تشجّعت وأسلفتني أتعاباً..."، وتابع تصفّحَ صفحات ذلك الكتاب الذي يبدو فيه أنَّ القَدَر صار مُدجّناً وطبيعيّاً.

بعد برهة، لم يستطع لوبو أن يتفادى الفضول، فاعتذر عن جهله وسأله عمّا إذا كان ما يقرؤه هو الكتاب المقدّس.

إنّه كتاب الإحصائيات المقدّس. لكن إذا كان يهمّك أن تقرأ الكتاب المقدّس، فقد جئت معي بنسخة جيبٍ منه. هناك تجد أيضاً الدورات مكتوبة".

وهنا استكمل لوبو العنصرَ الذي كان ينقصه ليفهم فهماً تامّاً طبيعةَ ماركوز: تديّنه الغامض الذي يتطابق مع تديّن المُقامرين، شديدي المراس، الذين عادة ما يُقرّبهم سوءُ حظّهم من الوَصْل الصوفي. يمكن للكتاب المقدّس، مثل أيّ مختصر باطني أن يُسهّل التنبؤَ وتنظيمَ الأحداث التي من دون ذلك تتكاثرُ من دون نظام كمؤشراتٍ لأسباب ما ورائية. الأحداث التي كانت بعيداً عن أيّ نظام باطنيّ أو معرفيّ تدفعُ حقاً في الحياة إلى أخلاق تتعلّق بالبقاء، وهو ما كان يشعر ماركوز تحت قناع رجل التحرّي، بأنّه بمنأى عنه.

"خُذْ، هو ذا كتابي المقدّس"..

ظنّ لوبو أنّه كان سيُعطيه "كتاب محضر الجلسات"، لكنّ ماركوز أخرج من جيب ورّاقتِهِ الجلدية كُتَيِّبين منمنمين: قاموس لاروس والكتاب المقدّس المذكور.

"وقاموس، فلربّما لم تفهم بعض الكلمات".

twitter @baghdad_library

-6-

في الليل، وللاحتفال بالاهتمام الغريبِ الذي ولّدته بعضُ المشاهد والمنظورات الجيّدة التي قدّمها التحقيق عند لوبو، فتح ماركوز واحدة من ثلاث زجاجات مالبِك المنتجة "حصرياً" للجمعية الأرجنتينية لمربّي خيول السباق، التي جاء بها معه بين أمتعته.

بحسب توقّعاته فإنّهما سيعثران غداً على قريبِ إرنِستو دوران، وسيعرفان ممّا كان يعيش وما إذا كانت إستِلا قد مرّت في المنطقة؛ بعدها سيربح هو في الكازينو كثيراً أو ما يكفي لتحقيق حلم حياته: أن يذهب إلى سباق دربي كِنتوكي المئة وسبعة عشر في أيّار القادم، وشراء بعض الخيول الأصيلة التي سينقلها إلى الأرجنتين، وهو ما سيثبته على ركيزة الجمعية الأرجنتينية لمربّي خيول السباق. وللوصول إلى هذا، طبعاً لا بدّ له أن يلعب بألف بيسو على الأقل في الروليت، ليلاً بكامله، وإن أمكن على طاولتين في وقتٍ واحد. إن الشيء الذي لم يفعله منذ عقدين، ليس بسبب انعدام الرغبة، بل بسبب الضعف الاقتصادي، الذي وجد نفسه مجبراً على القبول به بعدَ حالات العبث المفرط التي ارتكبها في فترة خيلاء شبابٍ طالت كثيراً. في تلك اللحظة وبينما كان يُسْمَعُ في الخارج ضجيجُ شاحنة القمامة، كشف ماركوز عن اقتراحه: دون أن يترك جانباً الدافع الذي جاء بهما إلى بييدما، فإنّه يقترح أن يُضَمَّن

الاستثمارُ في الكازينو في مالية الرحلة، كي يكون استثماراً مشتركاً، وليس مجرّد إقراض.

"لا يوجد احتمال للخطأ في هذا. إنّه مثل ضربةٍ أُحْسِنَ التخطيطُ لها، لكنّه مدعوم بقانون الحظّ. لن تخونني الحِيَلُ في هذه اللحظة من حياتي. في شبابي كنتُ أعتقدُ أنّ باستطاعتي أن أعارض الحظّ، وأنّ هذه المعارضة تُمَثِّل فهمَهُ، لكن بالعكس، يا لوبو، بالعكس. ففهم الحَظِّ هو تقييمُ آثاره، قراءةُ رموزه وعدم المُراهنة على الحدس ضدَّه. لا وجود للحدس والمعجزات. الموجود هو الله، ولا يمكن المراهنة ضدّه، أعني المراهنة على نبض المرء نفسه. المرء ليس شيئاً". وتنهّد وأشعل سيجارة: "للحظِّ تاريخ. إنّه أرقامُ اليوم، أرقامُ الغد في الروليت، يا عزيزي لوبو، موجودة في تاريخ الحظّ، ويجب معرفة قراءتها. لن تُنكر عليّ هذه الفرصة. بقيتُ سنواتٍ أدرس. إنّها فرصتنا نحن الاثنين. في هذا السجلّ الذي رأيتَهُ مسجَّلة كلّ الحركات، كلّ تفصيل تفاصيل من الماضي، ذاكرة الله: أرقام وأرقام. إنّها ليست مسألة حظّ". راح ضجيج شاحنةِ القمامة يتلاشى كما يتلاشى صوت القطار في الجوّ. "يجب الإيمان، يا لوبو. أَقْرِضني هذه البيسوات الألف، أو بالأحرى استثمِرْها في مشروع مضمون. ليكن هذا واضحاً في ذهنك. نقتسم الأرباح.. أنا أعرضُ عليك اقتراحاً يكاد يكون هديّةً. نحن في المكان الصحيح، في اللحظة الدقيقة".

لبث لوبو متفكّراً والكأس في يده. لم يستطعْ أن يفهم ما إذا كان ماركوز ثرثاراً معقّداً يستغلّ سذاجته أو أنّه، كما ظنّ قبل بضع دقائق، مجنونٌ مصابٌ بداء عظمة. لكنّه لسببٍ ما لم يخفْ منه. عندما كان يسمعه يتكلّم، كان يشعر بعاطفة غريبة تنمو في صدره، كما لو أنّه يكتشف في ذلك الرجلِ يرقةً سيخرجُ منها أب؛ وتساءل، من كثرة التفكير بالمسألة وربّما بتأثير النبيذ، عمّا إذا كان ماركوز قد عثر فعلاً على دراسة يستبق فيها حركات الحظّ. وماذا لو كان الأمر كذلك وكان لوبو يُفوّت على نفسه فرصة؟ ألا توجد علاقة

twitter @baghdad_library

منطقية بين دراسة عوامل المجازفة في الحظِّ وعوامل الحدث في أيّ تحقيق؟ وسأله لماذا يحتاجه، إذا كان الربح بعد كلّ تلك الدراسة، بهذه البساطة؟

أجابه ماركوز، كما لو أنّه كان يفكّر بالأجوبة إضافة إلى تفكيره الأرقام، بشكلٍ آلي، أنّه منذ سنواتٍ طويلة وهو يجترّ هذا القرار، الذي لن يستطيع أن يمضي به وحده، فهو لا يستطيع أن يلعب بمئة بيسو، لأنّه بذلك سيربح فعلاً لمرّة واحدة فقط... ذلك كان القانون.

"ألم يسبق لك أن ربحت؟"، سأله لوبو وصبّ لنفسه مزيداً من النبيذ.

"لم يسبق لي أنّني ربحتُ ربحاً حقيقّاً...، دائما كنتُ أربح أقلّ مما كنتُ أخسر".

"منذ متى لم تلعب؟".

بقي ماركوز مشدوهاً أمام سؤال بهذه البساطة. تمتمَ بأرقامٍ وقال له أخيراً إنه لم يلعب منذ ما لا يقل عن عشرين عاماً، وهو ما لم يكن يعني شيئاً، لأنّهُ استثمر هذين العقدين في تكوين نفسه، وهو ما إن يطأ أرضَ الكازينو حتى يشعر بالشباب كاملاً يخبُّ في عروقه. لم يبدُ لوبو مقتنعاً تماماً، وبقي يهزّ في موقف سلبي رأسَهُ، المستنِد إلى وسادةٍ مطويةٍ طيتَيْن.

"لأر ما إذا كنتَ تفهمني، مسألةُ الغد هي نهاية مرحلة. حانت اللحظة. إنّه الطريق المستقيم الأخير... الآن أو لا.... ما عاد باستطاعتي أن أبقى أدرس"، أطفأ سيجارةً وأشعل أخرى.

"ولكن وماذا عن الدربي كونتوكتي...؟"

"في الدربي أيضاً.. سأبلغ الهدف... إذا ما حالفني الحظّ فسيكون ذلك في العام القادم... هذا دائماً إذا عثرنا على إستِلا. هذه هي اتفاقيتنا. أنا أُكلّمك عن شؤوني لكن شأنك أيضاً يهمّ... غداً نشرع بالعمل".

ـ 7 ـ

ذهب الوعدُ بالاحتفاظِ بزجاجتي المالِك للاحتفال بنجاحِ مراحلِ التحقيق المستقبلية أدراجَ رياحِ حوارٍ طويلٍ وغيرِ منسجم، مليءٍ بالإشارات الحسابية، بلغ ذروته في الساعة الثالثة فجراً حين اعترف ماركوز، ودمعتان صغيرتان في عينيه، أنّه أرملٌ عاديّ. مأساته تعودُ إلى ما قبل ثلاثين سنةً، حين كان عمره تسعاً وعشرين سنةً تماماً، وعائلته قيد التكوين. ولأنّه لم يستطع تخطّي الحالة الناتجة عن عجزه أو تشفي القدر منه، فقد وقع في الوَحدة وفي نوبات من الخِسَّة والغُلمة ـ تفاقمت مع تقدمه في العمر ـ كان يُشبعها في المواخير، وفي كازينو مار دِلْ بّلاتا وفي مضمارَي سباق خيل بّالِرمو وسان إيسيدرو في الفترة التي كان ما يزال يحتفظ فيها بما ورثه من زوجته. في تلك الليلة وفي الساعة الثالثة صباحاً قرَّر لوبو أن يتخلّصَ من ماركوز وأن يُتابعَ التحقيق وحده، وستكونُ زيارةُ الكازينو الفرصةَ المناسبة لتسليم هذا الرجل إلى حلاقيم قدره نفسه.

أفاق فجراً على جفاف في فمه وطرقٍ في صدغيه وإحساسٍ بأنّ كل شيء في رأسه صار ماء ثقيلاً ومجوناً أبديّاً. شعر عندما رأى ماركوز، على بعد بضعة أمتار يشخرُ مفتوحَ الفم، ملفوفاً بمنامته، منامةِ السجين، بذلك النوع من الشفقة التي يشعر بها المرءُ أمام رجل سقط عنه قناعُهُ. عندها غيَّرَ قراره، فكّر أنّه لا يستطيع أن يُبعده عن المهمّة التي جاءت بهما إلى باتاغونِس. ومع

twitter @baghdad_library

أنّه ما من شيء عند ماركوز يدلّ على الفعالية، فهو لا يبدو أنّه أخطأ في تقفّي الأثر. إنّ وجود مجموعة من الأوباش تعير انتباهها للشائعات، وإمكانية الربح، يؤكّدان أنّهما كانا على الطريق الصحيح. كلّ شيءٍ كان يدلّ في الوقت ذاته على أنّ شخصيّة إرنِستو دوران محاطة بهالة سرّية، وما من أحدٍ سيتكلّم عنه بشكل مفتوح، وبخاصة: دون مقابل. أي إنّ هذا الرجل كان، وبكل وضوح، قريباً منهما ويحمل معه سرَّهُ؛ وهذا يعني أنّه وإن لم يَقُدْ إلى إستِلا بالضرورة، فإنّه يُجدّد جوَّ البحث. فهمَ لماذا كان مهمّاً جدّاً بالنسبة إلى ماركوز تتبع هذا الأثر: كان تأكّدُهُ من شيء مشكوك به يولّدُ عنده، كما يحدث الآن، رضاً شبيهاً برضا الكسبِ في رهان. كلّ شكّ مثبتٍ كان يؤكّد عنده الحاجةَ إلى التحرّي لزمنٍ غير معلوم، دون أن يُطلِق الإحباطُ هرمونَ العطالة. حتى ولو كانت إستِلا ضائعة في غابات الأمازون، فإن الآثار والشكوك المتعلّقة بها ستقود إليها، ليس تجريباً، بل روحياً وأخلاقيّاً، كما لو أنّ الأمر يتعلّق باستعمار حضارة قيد الانقراض. هذه القوّة الروحانية، التي يراكمُها الباحثُ ويفقدها الهاربُ مع الزمن، ستسمحُ، آجلاً أو عاجلاً، بالعثور عليها بطريقة طبيعيّة.

عاد لوبو لينام، ونهض بعد ساعاتٍ وهو يُفكّر بهذه "القوّة الروحانية" وبالحاجة لإرضائها بالنداء إلى الرقم الذي مرّره أحدهم من النافذة البارحة. كان واثقاً من أنّ الذي مرّر الرقمَ عبر درفتي النافذة لا علاقة له بالزوجين اللذين ابتزّا ماركوز كي يُسهّلا له عنوان "الملتحي". وبما أنّ الساعة كانت العاشرة وماركوز لن يُفتح له جفن قبل الثانية عشرة فقد ارتدى لوبو ملابسه بعناية وخرج. استقبلته صاحبةُ النزل بعد خطوات قليلة، كما لو أنّها كانت تنتظره. قادته إلى عمق النزل، حيث بنت ملحقاً تعيش فيه مع عائلتها. في الفناء بين النباتات كان هناك شخصٌ يُدَخِّن جالساً.

"إنّه بانتظارك منذ ساعة. يقول إنّه على موعد معك. قرعَ عليك البابَ، يا سيّد، لكنّ أحداً لم يردّ. لذلك قلتُ للسيّد أكوستا إنّك قد خرجت...".

سأل لوبو بصوتٍ خافت من يكون أكوستا؟ وضّحتْ له صاحبةُ النزل أنه رجلٌ مهمّ في البلدة وأنّها لم تستطع إلاّ أن تعتني به.

رجل الشارب والشعر الأشيب ذاته الذي رآه في المطعم الشعبيّ يتمتم في المرآة، وقبل أن يمدّ له يده ليصافحه أشار له إلى كرسيّ: "في باتاغونِس عندنا كلّ الوقت العالم. أودّ لو تحكي لي لماذا تهمُّك ابنتي".

أمام هذا الاتهام غير المتجانس والمقنَّع بسؤال، وأمام استهانته به، عاد لوبو إلى أحلامه الحديثة. لسببٍ ما بدا له طبيعياً أن يُشير أكوستا إلى واحدة من أولئك الغريبات اللواتي كنّ يُشاركن إلى جانب نساء مألوفاتٍ ـ بما في ذلك دورا، بِلِن وإستِلا ـ في أحلامه الجنسية، ألفنَ راحتَهُ الليلية منذ أن هجرته إستِلا.

"أتسمعني؟".

"نعم، لكنّني لا أجدُ له معنى. لا أعرف أحداً في البلدة، فكيف سأهتمّ بابنتك؟".

جاء رد فعل أكوستا شبيهاً بالسخرية. نفخ ولمس شاربه الكثّ والطويل بشكلٍ غريب. عندئذٍ تساءل لوبو عما إذا لم يكن هذا الرجل ذو الشارب الكثّ ومظهر السياسي الريفيّ والدَ إستِلا. فتجمّد أمام هذه الفرضيّة. لاحظ على الفور أنّه ليس عنده أيَّ شبه جسديّ بها، فاستبعد الفكرة، لأنّ الابن يُشبه أباه حتى دون أن يكون قد عرفه. بقي أكوستا منكمشاً مع استراتيجيّته: فقد ظنّ أنَّ الغريب، الذي لاحق، بحسب شهود، ابنتَهُ "المعاقة" في محطّة الحافلات والمرفأ سينسحبُ أمام أوّل سؤال. على الأقل هكذا ستكون ردّة فعل أيّ شخصٍ في البلدةِ، حيث يخطب الجميعُ ودَّ أرباب العمل ويتآمرون عليهم من خلف ظهورهم.

"ماذا جئت تفعل في باتاغونِسْ إذن؟" قال أكوستا بنبرةٍ عدوانيّة، كيلا ينسحب البساط من تحته من كثرة تردّده. استبعدَ لوبو، الذي لم ينتبه إلى تردد الآخر على الفور أنه من الممكن أن يكون أمامَ والدِ إستِلا، مُتخفّياً بكنية

twitter @baghdad_library

أخرى، تكلّم بثقة: كان يبحث عن والد زوجته السابقة. توقّف ثم صحّحَ مخبولاً من الخطأ: "في الحقيقة أبحث عن زوجتي السابقة".

"وما علاقة ابنتي بهذا؟"، قال أكوستا وقد عاد للهجوم، "ألا ترى أنّها مسكينة؟".

أصرّ لوبو على أنّه لم يكن يعرفُ غيرَ صاحبة النزل. "أنا لا أتكلّم مع غرباء، ومعك أفعل هذا استثناءً"، وابتسم في داخله وهو يتذكّر لحظات نشوة خيلائه كمُفَتِّشٍ، النبرةَ الآلية والمتكبّرة التي كان يُخمد بها أي اعتراضٍ خلال التحقيق. المسألة أنّه كان وقتها يُعتبَر واحداً من أهمّ الرجال هناك، بينما لم يكن ليُعتبر في بوِنوس أيرِس أكثر من رجل قزّمته البذاءة والمسؤوليات الساحقة التي خبرها آنياً من خلال إستِلا وإيفان.

"هذا حوار طرشان. سأترك لك بطاقتي، زرنا إذا وجدت عندك وقتاً. لا أدري ما مصلحتك بابنتي، لكن انتبه، كلّ ما ستفعله سيحكونه لي، أنت لا تعرف من أنا. من الأفضل لك أن تعمل الأشياء أمام وليس من وراء ظهر الأب؛ إذا كان عندك ما تقوله فكلّي آذان صاغية"، ثمّ نهض، وعادَ، بعد أن حوّلَ بهذه الكلماتِ بشكل سحريّ الملاحِقَ المزعومَ لابنته إلى طالبِ ودٍّ محتمل، ليقول كلمته: "الجميعُ هنا يعرفونني. أطلب منك احتراماً. اتفقنا؟"

"اتفقنا على الرغم من أنّني لا أعرفُ ابنتَك، ولا تهمّني النساء بعد الذي جرى لي".

"آه هه... قل لي هل مات أبواك؟".

"أسوأ بكثير، فتاة هجرتني مع ابني"، وضّح لوبو ولم يُضِفْ، كيلا يمنح إستِلا شرفَ الأمومة، أنّها عادت وأخذت إيفان. تظاهرَ أكوستا بالتأثُّر وأرخى صوته لِيَقول: "شيء محزن". اعتذر لأنّ واجبات عديدة بانتظاره، واقترح عليه أن يعودا ويلتقيا في يومٍ آخر، حين يكون أكثر عزيمة. إذا احتاج للعثور على أحدٍ، ليس عليه إلا أن يتصل به؛ فهو يعرف بالنظر والسمع كلّ الأشخاص

الذين يعيشون في باتاغونِسْ أو بييدما، ويستطيع أن يحصل بمساعدتهِ على أيّ معلومة.

خبّأ لوبو البطاقةَ في جيبه دون أن يجعدها، وعندما أحسّ أن الآخرَ قد ابتعد بحث عن هاتف. نشر ورقةَ الرسالةِ والرقم، التي التقطها قبل يومٍ في الغرفة. ردّ عليه رجل بصوتٍ مُدخِّن خشن، شبه مُطْفَأ، ينسجم مع هيئة ماركوز.. سأل لوبو عن راؤول. رأى من حُجيرةِ الهاتف على الرصيف المقابل أكوستا يُشير إليه فيهزّ شخصٌ آخر معه، مستندٌ إلى شاحنة فورد صغيرة، برأسه موافقاً. أكَّد له الرجلُ الذي كان على الجانب الآخر من خطّ الهاتف، مُنعِّماً صوتَهُ كما لو أنّه كان ينتظر مكالمة من غيره، ويُحاول الآنَ أن يؤخّرَهُ بنوعٍ من القرقرة، أنّه هوَ راؤول، ويعرفُ سبب مكالمته، ويستطيعُ مقابلَ مبلغ جيّد من المال أن يحكي له قصّة إرنِستو دوران، ويكشفَ له عن مكانِ وجوده.

"لا أستطيع أن أكلّمك أكثر. إنّني أتناول طعام غدائي. اهتفْ لي ليلاً. ماذا ستفعل ليلاً؟"، سأله.

"سأذهب إلى الكازينو".

"حسن، ليحالفك الحظّ، خبّرني غداً صباحاً، إذا جمعت ألفي بيسو. بهذا نبدأُ الكلام. لستُ ممن يتهوّرون. أنا بالنسبة إليك راؤول، إذا صادف وردّت زوجتي، أغلِقْ وحاول من جديد، لا تسأل عن راؤول".

"مفهوم... لكنّني نسيتُ أن أسألك عن شيء... أريد أن أقول... في الواقع"، شعر في تلك اللحظة أنّ عليه أن يسكت، لكنّه تابع: "أنا أبحث عن ابنةِ إرنستو وليس عن إرنِستو..."

"آه هه، كان يجب أن تقول لي هذا من قبل... أنا بانتظار مكالمتك، غداً صباحاً نُنَسِّقُ لنلتقي في مكان آخر، باتاغونِس ليست المكانَ المناسب، جميعهم ليس على ألسنتهم رقيب، لا بدّ أنّك انتبهت لهذا".

twitter @baghdad_library

عاد إلى الغرفة. تمطّى ماركوز في الظلمةِ، مُتَذَمِّراً من الضجة التي أحدثها لوبو عند دخوله. وللطامة الكبرى كانت تمرُّ في تلك الساعةِ في الشارعِ، كلُّ أنواع الشاحنات الصغيرة التي تَبثُّ إعلاناتها بمكبرات الصوت. بل ومرّ بائع حليب في عربة جرٍّ، وإن كان من الممكن أنّ هذا حدث في حلمه. فكّر لوبو أيضاً أنّه لم يكن قادراً على تمييز الحلمِ عن السرِّ الذي كشف له عنه ماركوز في العشاء الكحولي، والذي يُعزّز الآن عنده الانطباعَ بأن رفيقه بحاجةٍ لحماية ورعاية، لأنّ سرَّ حياته ـ وفي الوقت ذاته أصل مأساته ـ ثابتٌ لا يتبدّل. وكان بخلاف اليتم والترمّل حالةً يصلُ إليها الإنسان ولا يعود منها.

ـ 8 ـ

بعد مساءٍ وديعٍ تغافلَ فيه لوبو عن رواية الأحداث الصباحية وانهمك فيه ماركوز بصقل حيلته، في الخامسة ومن دون كثير من المداولات المسبقة، مثلاً في المرفأ الرئيسي كي يعبرا إلى بييدما. كان النهارُساطعاً. وبينما هما ينتظران الزورقَ سادت سكينةٌ النهرَ. لم تهبّ حتى نسمة واحدة ترسمُ انعكاساتٍ على سطح الماء. بقيا ساكنَيْن برهةً طويلة حتى بدأ الزورقُ يبزغ على الطرف الآخر ويُحدث في الماء تموجاتٍ بدا فيها أنّ المشهدَ يتفكّك. راح زورقُ الركاب يكبر حتى أوقفه سائقُهُ العجوز، وصفّه جانبياً وعجلات الحماية تحدث صريراً على الرصيف الخشبي. نزل خمسةُ ركّابٍ، بينهم الفتاة العرجاء ومعها رزمة من الدفاتر. لاحظ لوبو أنّها تُوَجّه إليه ابتسامةً ذكيّة، لا تكاد تقرص جانبَيّ فمها، كما لو أنّهم همسوا لها بكلمة داعرة داعبتها طويلاً،

ونزلت بعدها من الزورق بمساعدةِ السائقِ العجوز، الذي كان يصل بمركبه المفكّك هذا بين الضفّتين منذ ثلاثين عاماً.

صعد لوبو وماركوز. بقيا وحيدَيْن خمس دقائق في الزورق، ينتظران، إلى أن أدار العجوزُ المحرّكَ دون أي سبب ظاهر. سارع أربعةُ ركّاب كانوا يقتلون الوقت في المنطقة محمَّلين بأكياسٍ من الخيش، يعتمرون قبعاتٍ حائلة اللون ويُدخّنون سجائرَ دون مصافٍ؛ ويجمع بينهم شيئ آخر: الجلد البرونزي ذاته، ذات التجاعيد التي تدور حول العينين كما لو أنّها ندوب، ذات الطريقة المتراخية في النظر إلى الأفق. لم يكن من الممكن القول بأنّهم إخوة، لأن ما يباعد بينهم هو ما كان يباعد بين لوبو وماركوز: درجات وخصائص الهزيمة. إنّ طريقة المعاناة بعامّة أيضٌ موروث، يُحدّدُ المواقف المشتركة من الألم أكثرَ من التشابهات، ـ أو من التوصيف الجغرافي: المنظر- وكان بين هؤلاء الرجال المُدَمّرين تشابهات، ألفة عابرة فقط، لكن ما من مشترك حقيقيٍّ أمام لغة النهر.

بينما كان ماركوز يُراقب الماءَ مُحاولاً أن يقرأ في أمواجه الصغيرة مؤشرات حظّه، كما لو أنّ بين الطبيعة والحظّ علاقة سببية، استسلمَ لوبو لفكرة أنّ ذلك النهر يقدّم شبهاً بنهر رياتشوِلو، بل واعتقد أنّه يشمّ النتن ذاته الذي تحدثه الشمس في المياه الراكدة. قبل أمتار من المربط أطفأ العجوز المحرّك وترك المياه تُقرّب الزورق من الرصيف. شخصٌ من الخارج سحبَ الزورق كما لو أنَّه يسحبُ حيواناً وربطه إلى المربط. كان لوبو وماركوز آخر من خرج، وكلاهما في حالة فقدانٍ للذاكرة، كما لو أنّ الرحلةَ استغرقت أيّاماً. في هذه الفترة القصيرة وفي مواجهة منظر لا تكاد تمشّطه حركةُ الزورق، عاش كلّ منهما هرباً فريداً نحو الماضي، ووضعا قدمهما في بيبدما دون أن يعرفا إلى أين يذهبان ولا كيف وصلا إلى هناك.

بعد أن سارا على غير هدى وقتاً غير محدود أخذا سيارة أجرة في نقطة مريبة من المدينة، إلى بيت قريب إرنستو دوران المزعوم. راجع ماركوز خلال

twitter @baghdad_library

الطريق دفاترَهُ كما لو يفعل من أجل امتحان. وضع في واحد منها كانت قضية إستِلا دوران وفي آخر إحصائياتِهِ. قام ببعض التعديلات البسيطة حتى توقّ!فت السيارةُ بعد أن دارت دورات عديدة غير ضرورية عند العنوان المقصود أمام بناءٍ من طابقَين، من المحتمل أنّه أشيد في السبعينيات سقط بعض ملاطهِ ومعظم زجاجهِ؛ ومع ذلك كانت لوحة البواب البرونزية تتلألأ، كما لو أنّ عالماً آخر يزدهرخلف تلك الواجهة.

"اقرع أنت، فعسى أن يُحالفنا الحظّ، فالنقطة المضيئة هنا"، اقترح ماركوز مُطْبِقاً راحةَ يده. رأى لوبو نفسه مشوّهاً في لوحة برونز الباب. خرج من اللوحة أزيز ناعم، كما لو أنَّ أحداً من الداخل يقرع الجرس. ازداد هذا التشويش عندما ضغط على الزر الوحيد الموجود، وتوقّف حين ردَّ من الجانب الآخر صِوت أصلي: "تفضّل"، دون أن يسأل من يكون.

تقدّما عبر ممرٍّ نظيفٍ باتجاه العمق، حيث كان الباب الوحيد الظاهر مشقوقاً من الخَلل. كان بودِل ينبح بطريقة مسعورة. دعاهما رجلٌ شاب للجلوس في قاعة انتظارٍ مكتظّةٍ بأرائك صغيرة منجّدة بالجلد الصناعي الأسود، طلب منهما معلوماتٍ شخصيَّة وسلّمهما صفحة مطموسة المعالم. استنتج ماركوز من نبرة الأسئلة أنّهما دخلا إلى مركز استشارة باطنية "احترافي".

"هل من أحد آخر يعيش هنا؟

"لا أستطيع أن أُجيبك"، هزّ السكرتير يدَيْهِ ناشراً أصابعَهُ، كما لو أنّه طلا أظافرها توّاً، "وجِّها أسئلتكما إلى راجيف".

غمز ماركوز لوبو، الذي فهم على الفور بأنّ عليه أن يتابع المهزلة. كانت رائحة البخورِ، والجوّ الشعبيّ والحميم بشكل غامض، المزيج من السكن المؤقّت والعيادة السنّية، خانقاً إلى حد أنّه هو، المعتاد على أجواء البلدية الحارّة، شعر بالانزعاج. كان هناك زيوتٌ، أبخرةٌ، أزهارٌ الدكتور إدوار باخ، وغيرها من منتجات المعالجة المِثلية الأساسية، معروضة على رفوف، خلف المكتب، بأسعارها المكتوبة بخط اليد. ما كادا يجلسان على الأريكتين حتى

خرج من بابٍ جانبيّ رُجَيّلٌ طويلُ الشعرِ، بلحية كثّة تَدِقُّ عند الذقن، وملابس هندية.

"السيدان ليس لهما دور"، نبّهَ السكرتيرُ.

أجاب الرُجَيّل، دون أن يُسلّم على الزائرين، بأنه سيّان، وليدخلهما واختفى في ممرّ.

"الاستشارة خمسون بيسو، رجاء، وإذا دخلتما معاً مئة".

نظر ماركوز إلى لوبو وقال له هامساً في أذنه إنّ الاستشارة جزء من البحث وأنّهما سيستعيدان كلفةَ هذا الاستثمار وكل الاستثمارات السابقة ليلاً. تأخّر لوبو في ردّ فعله. مئة بيسو؟. جمع أوراقاً نقدية متفرّقة كانت في جيبه ودفع.

شكرهما السكرتير وهو يدرس الأوراق النقدية في مواجهة الضوء، قادهما بعدها عبر بابٍ آخر، ممرّ سيِّئ الإضاءة مفروش بالسجاد تختلطُ فيه رائحةُ البخور مع رائحة الرطوبة. "تفضّلا". شعر لوبو عند عبوره بأنّ ذلك الرجل متشرّب بعطر البيت، كما لو أنّه لم يخرج من هناك منذ زمن طويل. كان راجيف جالساً بين وسائد خلفِ طاولة منخفضة. وعلى الرغم من اسمه إلاّ أنّ تقاسيمه كانت تقاسيم ابن السهوب النموذجي، وهو ما يعطي انطباعاً بأنّه مزيج من الغاوتشو[1] والفقير الهندي. ابتسم ماركوز أمام الوجه الطاهر والصوت المتكلّف للعرّاف.

"اجلسا على الأرض. قراءة الورق، مشاكل عاطفية، لامَّة".

"لا شيء من هذا. اعذرنا أنّنا حضرنا إلى هنا بهذا الشكل. نحن نبحث عن قريب لك، إرنِستو دوران".

نظر إليهما راجيف بإمعان مقوّساً وجامعاً حاجبيه.

---

[1]. تطلق على سكان سهول ريودِ بلاتو في الأرجنتين والأوروغواي وعدة مناطق أخرى كما أنّها تُطلق على الرجل الشجاع والنبيل والكريم.

twitter @baghdad_library

"لا أعرفُ أحداً بهذا الاسم، لكنّني أستطيع أن أراجع خارطة النجوم".

"لا نريد أن نحرجك، لكنّهم قالوا لنا إنّك، أنت الملتحي، تعرف أحد أبناء العائلة. أو إرنِستو نفسه"، أجاب ماركوز وهو يسير ببطء وبشكل دائريّ.

"لا أعرف أيّ قريب، ثمّ إنّه يبدو لي إهانة أن تُناديني بهذا اللقب، ما هذا؟ أيّ ملتحٍ. أنا راجيف، اخرجا فوراً"، واستعدّ لينادي مساعده، لكنّ ماركوز سحبَ مسدّسَهُ من سترته بلطفٍ ووجَّهَه إلى ما بين حاجبي العرّاف المتحرّك مثل عضلة.

"لا أدري ما إذا كنت أحسن تعبيراً بهذا. ليس لهذا علاقة بالقضية، لكنّني أريدُ أن أقولَ لك شيئاً: كي تعرف بالمستقبل عليك أن تعرف بالأرقام والرياضيات، والإحصائيات".

"أرجوك...، نحن في مكانٍ مقدّس".

"من هو قريب إرنِستو دوران؟".

"لا أعرف أيّ قريب...".

أمر ماركوز لوبو أن يفتح الخزانةَ الجداريّة ويُفتش كلّ شيء بدقّة. لوبو الذي فهم للتوّ طريقةَ عمل شريكه أطاعه بشيء من الخوف، وفكّر أنّه لو كشف له عن معطياته لكانا الآن مع راؤول وليس مع عرّافٍ عرضي، كي يخرج من الوضع الحرجِ سيضيف كذبة أخرى إلى مئات الكذبات التي دفقها أمام زبائنه المحبطين.

"ابحث عن محفظة الأوراق النقدية والوثائق، لنرى ما اسم هذا المهرّج..."

"لا تُقلّل من احترامي".

أنزل لوبو بعضَ الملابس من الخزانة. كانت كلها ثياب رخيصة وجوارب وحمالات جوارب نسائية. هكذا إذن. تُحبّ أن تتقنّع، أم تُقنِّع سكرتيرك؟"، تمتم ماركوز وارباً فمه بطريقة تتناقض مع نعومته المعتادة في حركاته.

"قل لي ما اسمك؟".

"روبِرتو دوران"، قال لوبو مستبقاً جوابه، إذ عثر في ورّاقةٍ على محفظة أوراق نقدية. فحص ماركوز الوثائق وأشعل سيجارة. "إنّه هو، لكنّه من دون لحية. نبدأ من جديد، يا روبِرتو. أُقسم لك إنّها ستكون أطول استشارة في حياتك إن لم تتكلّم".

"أنا لستُ روبِرتو، أنا راجيف"، أجاب دون تبدّل.

"يا روبِرتو، هل تظنّ نفسك أنك مثل البلور... روبرت هو أنت حتى ولو تقنَّعت"، وكنسَ بيده إلى الأرض ورق اللعب والأشياء الشرقية الرخيصة التي كانت تزيّن الطاولة المنخفضة. "سنقوم بما يلي، ليس لدينا متسع من الوقت. يا سيلبيو نادِ للسكرتير".

لم يتمكّن لوبو من التحرّك لأنّ صوت روبِرتو المُتَهَدِّج أوقفه: "لا تُورطاه، أرجوكما إنّه ملاك".

"لنبدأ من جديد. إرنِستو هو أخوك؟ ابن عمّك؟ عمّك؟".

"ابن عمّي، ابن ابنِ عمّي. لم أره منذ زمن طويل".

وافق ماركوز بحركة قاسية في وجهه وأشار إلى لوبو كي يقترب. لم يتمكّن لوبو من أن يفهم ما إذا كان زميله، هذا الرجل الذي كان حتى تلك اللحظة هشّاً وبليداً إلى أقصى حدّ، يقوم بتمثيليّة، أم أنّه اعتادَ حقاً على أن يحصل على المعلوماتِ بضغوطٍ خاصّةٍ بالعسكر أكثر مما برجالِ التحرّي الخاصّين. تخيّل للحظة إمكانية أن يكون ماركوز كان قد عامل أباه لسبب من تلك الأسباب، بالطريقة ذاتها.

"أين هو ابن عمّك؟".

هزّ راجيف بكتفيه: "لا أعرف، هو ليس أخي".

"هاها، إذن عندك أخ"، عاد ماركوز ليشهر مسدّسه: "هل تريدنا أن نذهب ونسأل أخاك الشيء ذاته؟".

"ليس ضرورياً. إرنِستو موجود في الجنوب منذ سنتين، في حقل لتربية الأغنام".

twitter @baghdad_library

"هل تظنّ أنّ هذا يفيدنا في شيء؟ لا باتاغونيا شاسعة جدّاً. نستطيع أن نبقى هنا حتى الغد بانتظار أن تتذكّر. يا سيلبيو، جئني بالسكرتير، لنرَ ما إذا كان سيرتبك من تأخّرنا".

"لا، أرجوك، خورخِ حساسٌ جدّاً، ثم إنّه مصاب بالربو...".

ضغط بعدها راجيف على عينيه ومسّدَ جبينَهُ بإصبعين وتكلّم: "إرنستو انتقل منذ سنة إلى حقل، يقع على بعد عشرة كيلومتراتٍ من البلدة الساحلية، المسماة كامارونِسْ. لم يكن يعرف بالضبط أين، لكنّ الجميعَ يعرفونه". ربت ماركوز على نقرة العرَّافِ وابتسم. قال له إنّه بهذا أنقذَ مساعده، لكنّه لم ينقذ نفسه. "ألم تتساءل لماذا نبحث عن ابن عمّك؟". هزّ راجيف رأسه وأشاح بنظره، كما لو أنّه أُهين واعتبر الاستجواب منتهياً. لوبو الذي شرد بذهنه وهو يُفتّش المكانَ كيلا يُشاركَ في المشهد، قام بإشارة إلى ماركوز ومرّر له محفظة، في داخلها كوكايين موزّع على عشرِ أوراق ومكعب ماريغوانا.

"تعرف أنَّ هذا يمكن أن يكلّفك سنوات من السجن. سأستدعي للشرطة الآن إن لم تتعاون".

"استدْعِها، عندي حماية. هذا أسوأ بالنسبة لكما"، أجاب راجيف، مُتحوّلاً فجأة إلى روبِرتو وقد خرجت عيناه من مآقيهما."استدْعِهَا وستصبح غداً طافياً في النهر. عندي ريبة: من قال لك أن تأتي إلى هنا؟".

"معك حقّ. لن أعمل معك هذا المعروف. لن أستدعي ولن أقول لك من قال لي أن آتي إلى هنا، لأنّني في الحقيقة لا أعرف"، توقّف، ثمّ خبّأ المسدّسَ وأشعل سيجارة "إذا أخفيت شيئاً سأنتبه وستنتهي كلّ هذه الأوراق إلى المرحاض. لذلك أفلت كلّ ما عندك. نحنُ نبحث عن ابنة إرنِستو، عن إستِلا دوران. نعرفُ أنّها كانت في هذه النواحي".

"إذا كانت فأنا لم أعلم".

"حسن، يا روبِرتو، لقد تعبتُ. طالما أنّك تعرف إستِلا، ماذا تعلم عنها؟"، طقطقَ بشفتيه، أخرج المسدّسَ بقناعٍ أقل، كما لو أنّه يلعب بدمية.

"أنا مستهلك ولا أبيع مخدرات"، بدا أنّ شاشة لطفه التهكّمية التي كانت تُكمل قناعه الحرفيّ، تتهشّم وتتكشف عن رجل محنّك، تهريجي قليلاً، يحمي مصالح شخصيّة. أشار إلى لوبو، كما لو أنّه انتبه إليه توّاً، في تلك اللحظة، بعد الخوف: "وهذا الشخص من يكون؟"

"أنا عندي سكرتير أيضاً، إنّه قبر. لن يخرج ما ستقوله لنا عن إستِلا من هنا. تستطيع أن تُساعدنا في بحثنا ونستطيع أن نساعدك أيضاً".

"أتعاون في كلّ شيء. لكنّني منذ سنوات لا أعرف عن إستِلا شيئاً. خريطة نجومها سيئة جدّاً. كانت أمّها تهتف لي بين فترة وأخرى. لكن هذا كان قبل سنوات، كنتُ ما أزال أتأهّل في البرازيل". ووضّح أنَّ باستطاعته أن يقضي ساعات يحكي لهما قصصاً من شبابه في ريّو جانييرو، أو نوادر من حرفته، التي تُبرهن عن جدّية، كما في اليوم الذي طلب فيه منه سيناتور، لن يفصح له عن اسمه، أن يتدخّل في جلسة تحضير أرواح، كي يتواصل مع ابنتهِ الميتة، لكنّه لم يكن ليفعل له ذلك، لأنّ الطريقة الهمجية التي حضروا فيها إلى مركز الاستشارة لم تكن تستحقّ أيّ اعتبار. ومع ذلك أضاف كي يزيحهما عن كاهله بعضَ التفاصيل التي أكمل ماركوز من خلالها صورةَ إستِلا في ذهنه. مثلاً كانت عاقَّة بجبلّتها وقد طوّرت في المدرسة الابتدائية نوعاً من الهوس بالسرقة ـ مبراة، ممحاة، أقلام رصاص، مقالم كاملة ـ التي كانت كافية لتغييرها المدرسة مرّتين بسبب مخالفتها النظام.. وشعر لوبو وهو يسمع، بأنّ هذه المغامرة في الريف، تعقُّب مهووسةً بالسرقة، كانت قبل أن تختلس صدقاتِ الكنيسة تسرق أشياء في المدرسة، هي من أكثر ما عاشه سخفاً. فكّر أنّه ما من عمل عند هذا المستوى إلا الانتقام. يستعيد إيفان وينتقم. هكذا وكما كان ماركوز في الظاهر رجلَ تحرٍّ مُسالماً ومهذاراً، يتكلّم عن ثغرات، ونقاط مضيئة، يتحوَّل في ظروف مفصلية إلى مسخٍ يبتزّ ويُهدِّدُ بمُسدَّس، يستطيع هو أن يحيكَ

twitter @baghdad_library

غيبةً كي يقتل إستِلا ويتابع حياةً في غاية العاديّة إلى جانب إيفان. فكّر أنّه لا هو ولا ماركوز يحتاجان للذنب كي يشعرا بأنّهما حيّان، لأنّه كان ينتظرهما في المستقبل الشرف واحتمال المعاناة إلى ما لا نهاية، سواء وجدت الأسباب أم لم توجَد.

تركهما لوبو وحدهما بناءً على طلب ماركوز وانتظر عند المساعد. بدا له طبيعيّاً أنّ زميله يُريدُ أن يحميه من بعض اعترافات راجيف سيّئة النيّة، ويختم اتفاقاً على انفراد. ثمّ إنّه عند هذا المستوى من الأمور لم يكن يريد أن يعرف من كانت إستِلا. يكفيه يقين واحد: لم تكن المرأة التي اخترعها. وعلى الرغم من أنّ الخيانة تُبرّرُ أيَّ ردّ فعلٍ عنده فإنّها لو وجدت أمامه ما كان ليتشجّع على قتلها، بل ولا على ضربها.كان عدم حصوله على انتقامٍ مناسبٍ يجعله يشعر بأنّه رجل خسيس، رابٍ ينظم حياته حول جرحٍ في ازدياد متواصل.

-9-

كانت تجهيزات الكازينو تُذكِّرُ، بألواحه وجوّهِ، بتجهيزات صالة من صالات أفراح الأحياء. في هذا الجوّ لم يكن ماركوز إلا مثل جميع الحضور، رجلاً مسكيناً مقتنعاً بالحاجة إلى المصادفات. سلّم الكيس للوبو، فك زرّي القميص الأوّلَيْن، وراح يطوف من جانب إلى آخر، كما لو أنّه يطوف في بيته ذاته، الذي عادَ إليه بعد سنوات، ويحاول الآن أن يتآلف معه. توقّف، بعد كأسٍ من الويسكي وتجسّسٍ على اللاعبين، كما لو كانوا مدعوّين غير مرغوب

بهم، عند الروليت أومأ للوبو كي يبتعدَ وبرّرَ هذا بـقوله "إنَّ الأصدقاء المُتجسِّسين يأتون بالحظّ السيئ. إنّها قبالة (كابالا)، اعمل معروفاً".

راهن ماركوز، كما لو أنّ يديه تحرقانه بعد امتناع طويل. وضع فِيَشاً من فئة البيسوين بشكل استراتيجيّ، على الأرقام الأحادية، الأسود، العشرات، أضعاف الثلاثة، مضاعفات الاثنين، الستة، مضاعفات الأربعة وعددٍ من الأرقام التامّة، التي بحسب دراساته المسبقة، كان مركزها الرقم أحد عشر. سُمِعَ: "لا مكان لزيادة". كان اثنان أو ثلاثة من الهواة عليهم مظهر الكحوليين يراقبون حركة الروليت بعد أن راهنوا بحظّهم على الأحادي. شدّ ماركوز على دفتر ملاحظاته، رفَّ بأهدابه ثلاث مرّات بينما الكرة تتوقّف على الاثنين والثلاثين وتأكّدت خسارته.. كنسَ الصرّافُ الطاولة. بالكاد ربح واحدٌ من بين الرجال بالمزدوج. كانت منطقة الأرقام العالية خالية. درس ماركوز صاحبَ الحظّ: سيِّد متقدّم في السن له وركا امرأة، يرتدي بنطلوناً يصل إلى ما فوق خصره، ويُسجّلُ، مثله، أرقاماً وحروفاً هيروغليفية سريّة في دفتره. أغاظه أن يشعر الرجلُ بالسعادةِ بربحٍ هزيل وأنه يحمل بالتوازي إحصاءاً يمكنه بضربة حظٍّ أخرى أن يحبط حظّه. حمل عليه بما يشبه الحرب الشخصيّة وفرض على نفسه الهدوء. ترك لعبةً تمرّ وحاول أن يهتدي في متاهة الحسابات. ربّما كان أخطأ في نقطة البداية. ومن طرف عينه رأى أنّ لوبو يتمشّى على مقربة منه، مثل كلبٍ ينتظر عظماً، ربّما كي يُراقبه ويتلذّذ بفاجعته. الثلاث وعشرون السوداء "منطقيّ، فكّر". لسبَبٍ ما تبدّل نظام العوامل. سمع مرّة أنَّه حتى الطقس والارتفاع عن سطح البحر يمكن أن يُخرِّبا هذا النظام. واستنتج من المقارنة بين اللعبتين أنّ الانزياح أو الخطأ في التقدير كان في ثلاثة أو أربعة أرقام. مرَّر عدّة لُعَبٍ وتأكّد من أن هامشَ الخطأ في تلك الليلة لم يكن في الحقيقة أقلّ من ستة أرقام ولا أكثر من اثني عشر. إضافة إلى عاصفة غير متوقَّعة كانت تُطبق على بييدما وكانت تُخرّب أكثرَ مغنطيسَ الروليت، كان عليه أن يعترف أنّه بنى توقّعاته لبوِنوس أيرِس، حيث لا يوجد كازينوهات،

twitter @baghdad_library

وهذا ما كان يُسبّب خللاً في النظام النظري لا حلّ في تلك الظروف. كان يوجد، كما كان يرى، انزياح في إحصائيات رقمين بسبب الارتفاع. وبأخذ العاصفة الكهربائية فوق الحقل المغناطيسي للروليت ـ ونتيجة اللُّعَب، البعيدة في كلّ مرّة أكثر عن توقّعاته ـ قرَّر أن يتوقّف ليتأمل ويحصل على معادلة تفاضلية تحلّ، على وجه السرعة، أخطاءَ تقديراته التي لم تتوقّف في تلك الليلة عن التوالد، ويمكن أن تؤدي بهِ إلى أنَ يخسر ثقة لوبو به.

اعتقد ماركوز بعد خمس عشر لعبة، أنّه عثر على جواب. عندها بدأ الجمهور يُراقبُ سلبيّته بريبةٍ. حتى الصرّاف حين رأى أنّ أحدهم يطلب لوناً ولاحظ أنّه ما عاد عنده أيّ لون جاهز، نظرَ بعدوانية إلى رجل بونوس أيرس هذا، الذي يتصفّح دفتره ويزلق فيشه بين أصابعه، دون أن يُراهن، مثل بخيل يعدُّ النقودَ، مختبئاً تحت الملاحف.

ارتاح ماركوز حين رأى لوبو راكناً عند طاولةِ وسكي بلاك جاك وليس هناك إمكانية لأن يقترب ويتجسّس على حظّه. عندها استعاد على الفورِ ثقته باستنتاجاته وتشجّع على المراهنة من جديد. كان سيشعر بالخجل إذا خسر للمرّة الثانية على مرأى مِمَّن يُنعم عليه. وزَّع الفيشَ على أربعِ لُعبٍ. إذا خسر النصف في هذا البئر يعرف من التجربة أنّ القنوط والحنق سوف يبدأان يلعبان ضدّه وسيخسر خلال دقائق كلّ ما بقي معه. أي إنّ اللعبة الثانية، الأولى بين الأربعة، كانت المفتاح ـ أن يربح شيئاً ولا يخسر، لم يكن يطلب أكثر ـ ما لم يقطع رموزَهُ الطقسية ويوزّع هذا الربعَ من المراهنة على عدّة لُعَبٍ. وبما أنّ هذا لم يكن في حسبانه، وكان من الممكن لتفتيت الرهان ـ ليس بسبب خسارة النقود، بل بسبب تبدّد الإيمان ـ فقد وزّع فِيَشَهُ كما كان قد خطّط تماماً. كامل الواحد، حظ للملون والآحاد وثالث العشرات، في حال حدث خطأ في التقدير، كي يستعيد على الأقل ما استثمره ويخرج، كي نقول بطريقة ما، نظيفاً من هذا القدّاس من الأرقام والفِيَش والأصوات المضغوطة في بروتوكول اللعب.

تظاهر لوبو خلال ذلك بأنّه ضاع في ذلك الكازينو المصغّر. راقب طاولات د بونتو وبانكا وبلاك جاك، لكن بدا له مقرفاً أن يجلس ويلعب مع ناس مجهولين، كما لو أنّ ذلك كان مشاركة في حمّام أو فراش. تذكّر سنواته كمفتّش، فمكانٌ مثل ذلك ما كان ليتخطى فحصَ النظافة أبداً. ربّما لم يكن المكان معدّاً كصالة لعب وكان مجرّدَ صالة أفراح يُديرها سياسيون محلّيون. استطلعَ من بعيد سلوك ماركوز. وبالحكم من الهرج والمرج الذي ثار حوله لا بدّ أنّه بدأ يربح، أو أنّه اعتدى على أحدٍ ما. وأمام هذا الاحتمال الثاني اقترب. كان ماركوز في مكانه غارقاً في شرود حسابي، معانقاً دفتره وعنده عشرة أعمدة من الفيش. بدل أن يسعد بضربة الحظّ بدا أنّه كان يُتعذّبُ أمام احتمالِ ألاّ يربح في اللعبة التالية، ويرى نفسهُ، على الرغم من عصفةِ الحظ الجيدة، خائباً في إحصائياته. انتهى بترتيب الفيش على الطاولة كما لو أنّه يركّب لعبةَ القطع، قبل أن تدوّي كلمة "انتهى اللعب"، الكلاسيكية.

راقب لوبو كيف كان ماركوز ينسحب، يتخشّب ويُدَلّك عنقَهُ ويفرك، بعكس الطبيعة، ذقنَه النامية. سراب اللعب زاد من برودته قليلاً، تلك الحالة من السلبية والخدر التي عادة ما يأتي بها أولئك الأشخاص الذين يقضون وقتاً طويلاً دون كلام. أدركَ لوبو، دون أن يدري، من تقلّصات وجه ماركوز الذي هرم فجأة بسبب التركيز والتأمّل الروحاني، هذا الاحتراق الوهمي، هذا الجمع المطلق بين الرجل والحظّ. تنحّى جانباً ومشى منزعجاً قليلاً في المكان كما لو أنّ المشهدَ أخافه. تمنى عندما ينهي جولته ويعود، بعد دقائق، إلى الروليت أن يكون ماركوز قد خسر كلّ شيء. عندها سيستطيع أن يتكلّم حتى الفجر عن نسبيّة الإحصائيات وكيف أنّ السعادة تنزلقُ من بين أصابع المغفلين. كان في أعماقه يخاف في حال أنّه ربح ثروة صغيرة أن يقرّر التخلّي عن التحرّي ويتركه في مهب الريح في هذا النوع من الغرب الأرجنتيني البعيد. بعد مشهد العرّاف بدت له فكرة التخلّص من ماركوز غير مناسبة. كان قدّ غيّر جذرياً

twitter @baghdad_library

الصورة التي كوّنها عنه. فخلف عِظاته كانت تكمن وظيفة مشغولة بصبرٍ لتشمّمِ الفرائس والوصول إليها وجعلها تتكلّم.

تأخّر قصداً على طاولات البلاك جاك، كي يمنحه وقتاً ليخسر كلّ شيء. عندما عاد إلى الروليت لم يجد أثراً لماركوز. نظرَ إلى الحاضرين، باحثاً عن شذوذ ما وسأل الصرّاف عمّا إذا كان يعرف إلى أين ذهب الرجلُ المُسنّ الذي كان على رأس الروليت ومعه دفتر. أجابه بهزّة من كتفيه وبعدم رغبةٍ تكشفت على فمه وعينيه عن براءة حمقاء: "أنا مستخدم... لستُ أكثر".

وبينما كانت الروليت تدورُ قالت المرأة الوحيدة الحاضرة لرجلها، وهو غجري بسنين ذهبيين ويدين كبيرتين ومليئتين بالمجوهرات وزغب كثّ يطل من القميص المفتوح قليلاً: "امنحني ليلةً، يا حبّي".

عمّم لوبو السؤالَ على جميع اللاعبين. ما من أحد منهم أولاهُ انتباهاً. عندها فكّر أنه ربّما تأخّر أكثر من اللازم في البلاك جاك، وإن لم يكن إلى حدّ أن يحدث في المكان تغيير تام بالزبائن وما من أحد يتذكّر رجلاً أشيبَ، من بونوس أيْرِسْ، يرتدي ملابس غريبة. في تلك اللحظة صرخت الغجرية. أما الصرّاف وبينما كان يرفع الفيش عن الطاولة ويعيد الرهان ستّة أضعاف للزوجين الغجريين، فقد قال للوبو "هناك إذا سألت في المدخل رجال الأمن يعرفون كيف يقولون لك ذلك".

أرسل رجال الأمن لوبو بالفتور ذته إلى الصناديق، حيث يمكن للمفقود أن يكون قد ذهب ليبدّل فِيَشاً. في الصندوق ادّعوا أنّهم لا يتذكّرون أيَّ رجلٍ له الوجه والعينان الفاتحتان الذي وصفه لهم لوبو. تساءل عمّا إذ لم يكن قد أخطأ في وصفه وجلس يستوضح أفكاره ويحدّد بدقة ما الذي كان يرتديه ماركوز. انتبه إلى أنّه لم يكن يتذكّر، فقد اختلطت في ذاكرته ملابسه التي ارتداها في الأسبوع الأخير بملابس هذا اليوم ذاته. لم يحدث أن توقّف قط لدراسة ملابسه، ربّما لأنّ تركيبة ملابسه كانت غريبة، حتى أنّه كان يبدو دائماً أنّه كثيراً ما يرتدي ملابس مستعارة. طرح على نفسه فرضيّة أنّ يكون ماركوز

المخنوق بالخجل بعد أن خسر كلّ شيء، قد عاد خلسةً إلى النزل ويقوم الآن بجمع أشيائه في تلك اللحظة ذاتها. قام بجولتين أخريين في الكازينو، مثل أبٍ يجوب الشاطئ بحثاً عن ابنهِ الضائع. وجَّه ذات الأسئلة إلى رجالٍ اعتقد أنّهم أجابوه بطريقة مريبة أو جزئيّة. تلقّى نفياً جازماً من مستخدمين كانوا يُراقبون حركاته، كما لو أنَّهم أمام مهووس مطلق بالسرقة.

غادر لوبو الكازينو أخيراً بإحساس أنّه حجر عثرة لجميع الحاضرين، وسار ليلاً، تحت الرذاذ على ضفّة نهر نِغرو. كانت باتاغونِس على الجانب الآخر في ظلمة مثل بلدة أشباح، على هذا الجانب كانت مدينة رتيبة مرّت لحظة مجدها وازدهارها الاقتصاديّ التي عرفتها عندما نشر الرئيس السابق ألفونسين و"بخياله وجرأته" قبل أربع سنوات مشروعَه لنقل عاصمة البلد إلى هناك. كلب نبح قريباً منه مطلقاً سحابة من البخار. تنين، فكّر لوبو، وعلى الفور قال لنفسه إنّه لم يعد له أحد، فالرجل الأخير الذي نجح في أن يجعله يستجيب له، مستخدماً إيماناً سخيفاً، كان ماركوز. شعر بالرعب، كما لو أنّه بقي وحيداً في العالم، أو ما هو أسوأ: أنّ عليه أن يبتدع العالم من الصفر. كان رعباً لم يَخْبَرْهُ حتى عندما هربت إستِلا أو عندما طردوه من العمل. فكّر في إمكانية أن يتبنّى كلباً. نبَّههُ صوتٌ في رأسه إلى أنّ كلاب الشوارع كانت تموت باكراً وأنّ فقدان حيوان يُضاعف وحشة الإنسان.

عمل كشفاً سريعاً لكلّ ما خسره في الأشهر الأخيرة، بما في ذلك الشقّة التي باعها بتهوُّرٍ بكل ما فيها. بدت له إمكانية العثور على إستِلا بعيدةَ المنال فارتاح فجأة. يستطيع بالمال المتبقّي معه أن يشتري شقّتين في منطقة جيدة ويبدأ حياة سرّية جديدة ويعيش من ريعهما: وحده، أو كأبٍ عازب، أو كمجرم بمرتَّب ثابت. شعر بالبرد فارتدى سترة ماركوز، التي كان يحملها منذ دخلا إلى الكازينو على ساعده دون أن ينتبه. وجد في أحد الجيوب ورقة عليها أسماء، رسالة وكومة من النقود المعدنية من فئة العشر سنتيمات وشيئاً ثقيلاً في الجيب الداخلي: المسدَّس الذي هدّدَ به رفيقُهُ راجيف.

twitter @baghdad_library

- 10 -

عاد لوبو، بعد أن طاف حول الضفّة، إلى النزل. لعب بالمسدّس، كما لو أنّ الزمن يمرُّ بهذه الطريقة سريعاً، خبّأه بعدها، تحت الوسادة دون أن يدري لماذا. حاول أن يعيد بناء ما عاشه منذ وصوله ويربط بين الأشياء. استبعد إمكانيّةَ أن يكون ماركوز قد تأخّر في ماخورٍ بعد أن أصبح غنيّاً، وذهب غريزياً إلى حقيبته. بقي معه من الخمسة آلاف بيسو التي رفعها لمصاريف السفر والنفقات اليومية ثلاثةُ آلاف وثمانمئة بيسو. وكان قد خصّص من بين الألفين المصروفة ألفاً للكازينو ومئتين لأشياء لا تستحق الذكر.

كان هناك في داخلها ثلاث رزم من خمسة آلاف دولار ملفوفة بالجوارب، كانت كلّ واحدة منها مضغوطةً وصلبة مثل سبيكة. ثروة كاملة من أجل رشوة واشين محتملين. لا يمكن أن تكون هذه طريقة عمل رجل تحرٍّ، مثل ماركوز، الذي كان يحصل على ما يريد بنوع من الضغط الأقرب إلى الجسدي، لكنّها نعم، يمكن أن تكون طريقته، هو الذي كان يعرف كيف يتصرّف بالرشوة بفضل ماضيه في البلدية، ثمّ إنّه لم يكن في تفكيره أن يستخدم المسدَّس ولا أن يُزوّد شبكةً من الانتهازيين برشاوى صغيرة. كان يعرف بالتجربة أنّه برشوة وحيدة كبيرة، إذا ما وقع على الشخص المطلوب، يُختصرُ الطريق.

عندما استيقظ عند الظهيرة كان فراش ماركوز ما يزال فارغاً. شعر بالراحة وبذنب أوّلي في آن معاً لأنّه لم يجده: كان منذ أن وصل إلى باتاغونِسْ قد رغب كثيراً بالتخلّص من ماركوز، فتضاعف الآن تشوّشه والتقى غيابه المفاجئ بغياب إستِلا. اختلطت للحظة الصورتان في الحاضر مشكلتين مسخاً كابوسيّاً، بشعر طويل وشوارب وحاجبين أشْيَبَيْن وفم أنثوي ناتئ. راجع لوبو قبل أن يهتف لراؤول كلَّ الأسماء والهواتف الموجودة في قائمة ماركوز بعناية، باستثناء رقمٍ واحد كانت جميعها أرقام مجهولين. ميّز راؤول وعرفه، ليس من اسمه، بل لأنّ رقم هاتفه بدا له مألوفاً فوضع عنده علامةً على الفور. كان راؤول يظهر في اللائحة تحت اسم أوسبالدو، ولقب "بِتشيتو"، وهذا ما جعله يُفكّر بأنّ هذا البحث لم يكن أبداً ما كان يبدو.

راؤول نفسه أعطاه، بعد ساعة بصوت خشن ونبرةٍ فظَّةٍ إشاراتٍ بالهاتفِ كي يصل إلى مكان على الطريق الوطني /3/، الذي كان يربط باتاغونِس عند طريق الدخول إلى كاردِنال كاغلِيرو، من حيث سيأخذه بعد ساعتين. تأكّد لوبو من تعبئة المسدّس وفحص أمانه. هوّى برزمة من ثلاثة آلاف وثمانمئة بيسو. فطر في ذلك اليوم مثل شحيحٍ مُجرَّب على رائحة المال الزلق. قبل زمن كان قد سمع من فمِ أحدِ رفاقه ـ ربّما كان بيدال ـ أنّ رائحةَ المال الطازجة مقويّة للباه. فصل ألفي بيسو عن الرزمة. عندها تذكّر أحدثَ أحلامه الليلية، الذي ظهرت فيه بِلِن تجامعُ أكوستا في قطار، لكنهم دعوا في تلك اللحظة للالتزام بالنظام، لنوعٍ من الرصانةِ الحضارية التي اعتقد أنّه خاصّة بماركوز وهنا شرع لوبو يلبس أفضل ملابسَه بدل أن يذعن لإغواء ممارسة العادية السرّية. اعتقد أن الدرجة الدنيا من الأناقة يمكن أن تجعله خطيراً وتمنحه بعض السلطة. بدا له صوت راؤول مُريباً وزائفاً، كما لو أنّه ردّدَ أوامرَ آخر. غامر بالتفكير بأنّ أحداً، ربّما يكون شرطياً مطلعاً على قضيّته، أو الرجل الذي سجّله ماركوز تحت اسم أوسبالدو، ويمكن أن يكون شريكاً متواطئاً مع راؤول، يُخطّط لخطفه ومطالبته بكلّ النقود التي يحملها. وهو مبلغ كان

twitter @baghdad_library

ماركوز نفسه يجهله، لذلك سرعان ما استبعد فكرة الخطف الابتزازي ومال إلى ما هو واضح: كان ضحيّة التهديد بالابتزاز العابر.

تواجد في الساعة المحدّدة في مخرج البلدة، على جانب الطريق. كانت الشمسُ، على الرغم من أنّ الساعة كانت الرابعة، حادّةً، والغبارُ العالقُ في الهواء يغشى الأشجار الفطساء ويضفي على سرابِ الطريق والسيارات والتلال هالةَ الأشياء البعيدة. حين جاءت اللحظة وتوقّفت سيّارةٌ على جانب الطريق، لم يتمكّن لوبو من فهم ما كان يجري، كيف تحوّلت تلك الكتلة البرتقالية التي صعدت منعطفاً في الأفق إلى سيّارة وبدقّة أكبر إلى شيفروليت برتقالية.

"اصعد" أمر من داخلها رجلٌ أصلعُ في حدود الأربعين من عمره محشوراً في سترة ريفية من الجلد البنيّ.

"راؤول؟"

"نعم، ادخل،خُذْ راحتك".

غاص لوبو دون أن يسألَ أو ينظر في مقعد المرافق. استنشق بخاراً حلواً، كولونيا رخيصة. خالجته الغرابة ذاتها التي كانت تخالجه قبل سنوات حين كان يدخل في السرير مع عاهرة مختلفة في كلّ مرّة. فكّر أنّهما سيتحاوران والسيّارة متوقّفة، لكنَّ راؤول أقلع. قطعا عدّة كيلومتراتٍ. عندما لاحظ لوبو أنّهما كانا يبتعدان عن باتاغونِس في كلّ مرّة أكثر، سأله إلى أين يذهبان. فأجابه الآخر "إلى بيت راؤول". وهنا فكّر لوبو أنّ هناك رجلين داخلين في القضيّة وليس واحداً: بالفعل لم يكن صوت الذي يسوق السيارة يشبه صوت راؤول الذي تواصل معه..

"هل أنت راؤول أيضاً؟"

"جميعنا راؤول، فهذا أيّ الكلام".

"هاها" كان جواب لوبو. رأى عبر النافذة السهوبَ الجافّة. محض وهج، صحراء تمرّ فيها الحيوانات كالسراب. بعد برهة من الإسراع المتواصل، انحرفا في طريق ترابي. خفّض"راؤول"، الذي بقي ثابت الجَنان، السرعةَ إلى حدودها

الدنيا. فكّر لوبو أنّه بهذا القرار يريدُ أن يقول له شيئاً ما، بدلَ أن يفترض أنّه يعتني بالسيارة من وعورة الطريق، على الرغم من أنّه عندما بقي ينظر إلى الأمام، تساءل عما إذا لم يكن العكس، إذا لم يكن قد خفّف السرعة وأخمد المحرّك كي يمنحه إمكانية أن يتكلّم. صار السير على طريق الردم في كلّ مرّة أنعم، كما لو أنّه يعلن عن شيء قريب.

"أنت، هل سمعت بالمصادفة أحداً يتكلّم عن إستِلا دوران؟".

أوقف الرجل في هذه اللحظة السيّارة. "وصلنا. انزل لتفتح لي باب السياج"، قال راؤول كما لو أنّه لم يسمع السؤال، وغاص في حوار بالتخاطر مع محرّك السيارة. تأخّر لوبو بردّ فعله. استغرب أن يستطيع أحد، يأخذ بعين الاعتبار التدهور الجسدي الذي عانى منه في الأشهر الأخيرة، أن يكلّفه بمهمّة من هذا النوع.

"أنا؟".

"بلى، أنت، هل ترى آخر في السيّارة؟".

شعر وهو ينزل أنّه مُخدّر وتشبّث بباب الشيفروليت كيلا يتهاوى. لاحظ على الفور أنّه خائف وأنّه كان يحاول طوال الطريق أن يضبط إحساسه متلهياً بكلّ حركة دنيا من حركات راؤول. الخوف المقترن بصورة هذا المجهول الذي يرتدي سترة جلدية وينظر بعينين ثابتتين إلى الطريق من وراء نظارة شمسية ماركة راي ـ بان ـ قد سرق منه إمكانيةَ أن يدرس الإمكانيات ويُقرّر. وتساءل الآن واقفاً بجانب السيّارة عما إذا كان من المناسب أن يفتح باب السياج وينطلق جارياً، أو يفتحه ويعود للسيارة ويطلق رصاصة على صدغ راؤول المزعوم. فتحَ، بينما كان يُفكّر، بابَ الحاجز وعلق بالأسلاك الشائكة. تركه يسقط وجرّه على العشب. كان باباً منخوراً بالدود وليس له قوائم ويصعب تحريكه. مرّت السيّارة وقال له راؤول الظاهري أو المزيّف من النافذة "أغلق الآن. ارفعه من رأسه". كان إغلاقه أسهل من فتحه ودخل لوبو إلى السيارة من جديد، دون أن يُفكّر تقريباً. شعر بالمسدّس يحبو في جيب

twitter @baghdad_library

السترة الريفية. أحدث عنده إغواءً كبيراً لقتل هذا المالستودونت الذي يعطيه أوامر. هل ينزل ويفتح الباب؟ لماذا؟ من يظنّ نفسه؟. فكّر أنّه إذا قتله سيستطيع أن يأخذ السيارة المُدلّلة ويفجّرها ضدّ شجرة.

اعتقد أنّه لمح في البعيد سياج منزل. كان كلّما اقتربا كلّما تَكَشَّفَ له هذا الحظارُ عن أنّه بناء متواضع، يكاد يكون بيت ماشية تعلو قرميده العفونة، في طنفيه أعشاش وفي رواقه يشربُ متّةً ويُدخِّن شاب مُولَّدٌ أبيض، دبغت وجهه شمسُ سنين، يعتمر بيريه. لم يحتَجْ لوبو لأن يسمعه كي يعرف أنّه أيضاً ليس راؤول،ربمّا كان الرجلُ الذي يبحث عنه مختبئاً في إحدى غرف هذه البيت.

"هيا بنا نتكلّم في الداخل"، وما كادا يدخلان حتى أضاف راؤول المزيّف مشيراً إلى طاولة عرض بارٍ، عليها تشكيلة كبيرة بالنسبة إلى مكان مقفر كذاك: "صبّ ما تشاء".

"من يعيش هنا؟".

"لا تسأل عن أشياء لا يهمّك أن تعرفها. راؤول بانتظارك".

"وصل من العمق نوعٌ من الزمجرة. أشار إليه راؤول المزيّف، وهو يخلع السترة الريفية، كما لو أنّه يترجم أصواتاً تُحاكي الطبيعة، أن يدخل. التفت لوبو عندما سمع صرير باب يُفتح ويغلق خلفه. لم يعد بالمفتاح لاحتماله المدبوغ في الرواق.

"سنغلق بالمفتاح لاحتمال أن يكون هناك من يُلاحقنا... لا نحبُّ أنا نشعرَ أنّناّ غير آمنين مع مجهولين".

مرَّ لوبو بعد هذه الجملة ببعض الثواني من التشوّش ووضح في رأسه على الفور الكمين الذي وقع فيه. تساءل عمّا إذا كان هناك أحد يعرف أين هو. انتبه إلى أنّه لم يكن يعرف أحداً في باتاغونِس، غير أكوستا، الذي على الرغم من أنّه لم يره إلاّ مرّتين، اعتقد أنّه يملك ما يكفي من الثقة كي يهتف له حين تحين اللحظة. أسف لأنّه لم يتواطأ مع صاحبة النزل. من دون ثقة أنثوية كان

رجلاً غائباً؛ شيئاً أسوأ من رجل مُغْفَل. فكّر أنّه بسخريةٍ من الحياة، يمكن أن يختفي، بينما هو يقتفي أثر امرأة، دون أن يترك أثراً في العالم، بل والأسوأ من ذلك أنّه لن يأسف عليه أحد. صعقه يقينه: ها هو ذا غائب منذ برهة. سواء كان حيّاً أو ميتاً فهو لم يعد مهمّاً بالنسبة إلى بقيّة الإنسانية. إذا ما قتلوه خلال دقائق بعد أن يسرقوا الألفين وثمانمئة بيسو، لن ينتبه أحدٌ إلى غيابه، غير صاحبة النزل، التي ستكتفي بإبلاغ المخفر، أو ولا حتى هذا: كيلا تزجّ نفسها في مشاكل، ستفرغ الغرفةَ وستختار من أمتعته المفيد. في نهاية الأمر لن يعكّر حياةَ شخص واحد في هذا العالم.

كان راؤول آخر بلا حراك في كرسيّ هزّاز، كما لو أنّه يُخفّف من أشعة الشمس التي كانت تدخل من نافذة واسعة. "أخيراً، يسرّني أن أعرفك"، قال عندما رآه يصل وإن لم يحاول أن ينهض ويصافحه.

الآن فعلاً عرف لوبو الصوت الخشن. وقف الرجلُ ذو السترة الجلدية خلفه. أخذ راؤول الآخر بندقيةَ صيد كانت مستندة إلى جانب الكرسيّ الهزّاز. وضعها بنعومة على رجليه، كما لو أنّه يضع قطّاً. من الغريب أنّ لوبو لم ينتبه إلى أنّ تلك الحركة كانت تهديداً.

"أخبروني أنّكم تبحثون عن امرأة تُدعى إستِلا دوران".

"ماذا؟" ردّ لوبو، مفاجأً باستخدام الجمع أكثر من استغرابه لذكر إستِلا.

"يجب أن تكون أنت الرجل الذي هجرها، لأنّه لم يكن الرجل الذي جاء معك". وأضاف قبل أن يستطيع لوبو الردَّ: "يحزنني أن أقول لك إنّها لا تُريد أن تراك. هي بعيدة جدّاً، بعيدة جدّاً. لقد جئتما إلى المكان الخطأ. وعاد ليلمع البندقية، حرّك رأسه فأنارت الشمس عينيه البلوريتين، كما لو أنّهما على وشك أن تدمعا. "من رجل إلى رجل، لماذا فعلت ذلك؟".

أخذ لوبو نفساً وجلس على الكرسي الذي أشار إليه الرجلُ الذي جاء به في الشيفروليت إلى هناك.

"لا أدري"، أجاب.

twitter @baghdad_library

"هل ندمت على الأقل؟".

"لا أدري عمّا تتكلّم... إستِلا هي التي هجرتني"، قال أخيراً. عندها فكّر أنّهُ لا يمكن لهذا الرجل كما للآخر أن يكون راؤول، هذا في حال أنّ راؤول كان موجوداً أصلاً. "هل جعلتني آتي كي تلقي عليّ عظة؟".

تبادل الرجلان النظر مصعوقين.

"إذا لم يكن عندك شيء آخر تقوله لي فأنا ذاهب".

"أنت لن تذهب إلى أيّ مكان"، رفع راؤول الآخرُ البندقية عن ركبتيه، "دعنا أوّلاً نكمل عقدنا كفارسين. الألفا بيسو".

على الرغم من أنَّ المبلغَ لم يمثّل شيئاً مقارنةً بما كان يحتفظ به في الفندق، فقد صمَّم أن يُقاومَ الابتزاز، فَهُما ليس فقط لا يملكان أيّ معلومة ثابتة عن مكان إستِلا أو والدها، بل كانا يريدان أن يُقنعاه بأنّه هو الذي هجرها. ربّما لأنّه ينتمي إلى ذلك النوع من الناس الذي، لأنه ليس عنده ما يخسره يصبحُ شجاعاً بالقوّة. قال إنّه لم يأتِ معه بالنقود. وأمام الأمر الذي أصدره راؤول الآخر: "فَتِّشْهُ" قفز لوبو عن مقعده وسار إلى الخلف بخطى صغيرة وسريعةً، مثل طفلٍ مُهَدَّدٍ من غريب.

"إذن جئت بالنقود وتخبِّئها، الآن سترى"، قال راؤول المزيّف.

"حذار! إذا لم يُقاوم، لن تندم كثيراً، لكنّه إن لم يتعاون فاجعله لا يُعْرَف"، قال راؤول الآخر وهو يستند إلى البندقيّة كي ينهض.

تلك الثانية التالية على كلمة لا يُعْرَف، تلك الثانية الطفيفة التي غاصت فيها يد لوبو اليمنى في جيب من جيوب السترة وقبضت على المسدّس، سوف تُحَدِّدُ سنواتِ حياته التالية، على الرغم من أنّه لن يكون أبداً واعياً. راؤول لم يتمكن حتى من أن يرفع البندقية. الرصاصة عيار 22 دخلت في محجر عينه اليسرى. سارع راؤول الآخر، الأقل خفّة من الأوّل نحو لوبو، الذي أطلق رصاصة أخرى كيلا يفقد التحكّم بالمشهد. سقط الرجل على ركبتيه وشدَّ، بينما كان يصرخُ، على بطنه الذي دفق من جرحه دفقة من الدم. تراجع لوبو

مذعوراً مما ارتكب هو ـ أو يده اليمنى ـ خرج مستعدّاً لأن يشرح كلّ شيء للمولَّد الأبيض ذي البيريه ويطلب مساعدته. فتح النافذة وقفز إلى الجانب الآخر كيلا يبحث عن المفتاح في ثياب الجريحين. لم يكن هناك في الخارج من أحد أو شيء غير صدى صوت العصافير والمساء.

إنّ مجرماً مزعوماً يمكن أن يختارَ الهربَ إلى ما لانهاية كي يتجنّب ظلّ القانون، أو أن يبقى في المنطقة مُخاطراً مخاطرةً تعادل السابقة، كيلا يُلقى عليه القبضُ أبداً. دخل لوبو في الشيفروليت. كانت المفاتيح فيها وساقها دون أن يُفكّر، باتجاه باتاغونِس. غادر السيّارة بالقرب من البلدة، في واحد من تلك الجبال القليلةِ، كثّةِ الأشجار. حيث طمر سلاحه أيضاً. سار بعدها عشرة كيلومترات إلى النزل والشمس تغرب على يمين الطريق. لا أحد رآه يصل. بقي هناك ثلاثين يوماً كاملاً، دون أن يخرج، وهو يلوك الشكّ ذاته: تراهما ماتا؟

twitter @baghdad_library

فاصل

twitter @baghdad_library

يضيع رجلُ العينين الفاتحتين قسماً كبيراً من الليل وهو يجمعُ ويختارُ قطع ملابس مبعثرة على الأرض وتحت السرير. يعتقد أنّ من الحيّوي بمكان أن يُدهش زبونه القديم. كانت هذه الفكرة وإمكانية أن يستعيد أرشيفَهُ ودفاترَ سنواتِ لعبهِ تُثيره إلى حدّ أنّه يمرُّ بإثارة غير معهودة، عندما ينظر إلى التلفزيون الذي يُرافقه بصوتٍ عالٍ، في دعايةٍ لصابونِ تمطُّ فتاة شابّة، أفتى بكثير من آخرٍ عاهرات كان يتردّد عليهنّ قبل أشهرٍ، ساقيها الزاهيتين في حوضِ حمّام مليء بالرغوة. يَلمحُ من بين الفقاعات لثانيةٍ أبدّية أثرَ حلمة فيتخلّص على الفور من بنطلونه ويبدأ يمارس العادة السرّية أمام الشاشة بحركة بيروقراطية وعاديّة إلى أن تلوث قُطيرات دقيقة سجادة غرفة المعيشة البنّية.

يُصالح النومَ في السادسة صباحاً ويستيقظ في الثامنةِ، كما لو أنّه نام عشر ساعات. يبدأ بالمشي بقلق زائد بسبب صعوبة الانتقال. يحلّ كيس الثياب الصغير: إنّهم في الخريف وكلّ ما صرَّه كان ملابس صيفية. يُبَدِّل ثيابه ويضعُ الثياب التي سيستعملها في الحافلة على كرسيّ: بدلة رياضة جري زرقاء، بدلة غطس سوداء وقميص طويل الكمين. ثياب رياضية صارت كبيرة عليه ويحتفظ بها من أفضل مراحل عمره حين لم يكن هناك وجود لمشاكله الدافعة. ازدادت الصعوبات أو العوائق، كما يحلو له أن يُسمّيها، بعد الصفعة التي تلقاها في باتاغونِسْ، قبل عشرين سنة. شيء تهشَّمَ وقتها في داخله،

twitter @baghdad_library

فأغلق مكتبَهُ في شارع لافايّ بعد أن عاد خالي الوفاض، بضلعين مكسورين وخلعٍ في وركه. منذ ذلك الوقت ضار يخرجُ أقلّ، في كلّ مرّة، من الحي، يهتمّ بالكشكِ على بعد كتلتين بنائيتين ويزور البارات ذاتها في كونستيتوثيون.

كان على وشك أن يرتمي على الكرسيّ لينتظر ساعة ارتدائه لملابسه والخروج إلى الرِتيرو، حين تذكّر نصيحةً قديمة جدّاً من زوجته المرحومة: أن يأخذَ حمّاماً ساخناً تماماً قبل أيّ سفر. يتعرّى بشكلٍ طبيعي، يفتح المِرذاذ ويدخل في الحوض. كان يفرك نفسه بالصابون حين وضع قدماً خارج مانع الانزلاق وانتزعت منه سقطةٌ هائلة صرخةً وحلَّ ألمٌ حادّ عند مستوى وركه. يبقى بضع دقائق تحت دفق المرذاذ كما لو أنّه فقد وعيَهُ. بدأ الماء يطفحُ خارج الحوض فيعود هو إلى وعيهِ. يُحاول أن يتشبَّث بأحد الصنبورين، لكنّه لا يتحمّل ألمَ ما اعتبره حتماً كسراً.

يبقى برهة طويلة ممدّداً تحت دفق الماء. يسمع جرس الهاتف الملح. يتبيّن له، حين يُحاول أن يستوي كي يصل على الأقلّ إلى الصنبور ويُغلقَهُ، أنّه لا يستطيع حتى أن يتحرّك. يصبح الألمُ شظايا في جسده وينتقل باتجاه الإبط. لم يعد ألماً واخزاً، بل صار نوعاً من التنميل، كما لو أنّ كلَّ جسده، من خلال آلية الدفاع الذاتي، قد نام.

عذّبته فكرة أنَّهُ يمكن للماء أن يُغرق شيئاً فشيئاً البيتَ، ويفصل السجاد أكثر من الألم بذاته. يُفكّر بعدها أنّ هذه هي في الحقيقة الطريقة الوحيدة كي يأتي أحد الجيران أو البواب شخصياً لينقذه؛ لأنّ الصراخ في هذا المكعّب المغلقِ لن يجدي نفعاً. على الرغم من أنّ جلده راح يلين وراح الماء يحدث عنده حكّةً لا تُقاوم، إلا أنّه يُحاول أن يُفكّر بشيء آخر، بالسفر إلى سان مانوِلْ، السفر الذي لن يُشارك فيه في هذه الحالة. يتصوّر إيفان، مثلّ كلبٍ شمّام غرٍّ، يتمشّى، متسوّلاً وقد نصبوا عليه، ويُضَيِّع إلى الأبد فرصةَ التعرّف على أبيه. يدرك أنّ ما يحزنه في الحقيقة من عدم الذهاب إلى سان مانوِل هو أنّه لن يستطيع أن يتأكّد شخصياً من مصيرِ دفاتره. يحتفظ بتصوّره أنّ لوبو

احتفظ، خلال كلّ تلك السنوات، بذلك الكتاب المقدّس، الذي يضمّ نسيجَ عقودٍ من الدراسة والتركيز. طبعاً إذا كان قد احتفظ بدفاتره فهذا يعود إلى نوعٍ من الوفاء أو الودّ، الذي يعتقد أنّه لا يستحقّه. إنّه مقتنع بأنّ اختفاءه من باتاغونِس لم يكن بالنسبة إلى لوبو ردّ فعل مفهوم وغريزي نابع عن الحفاظ على النفس، بل عن خيانة يزيد من حدّتها النصبُ المالي. إنّه، على كلّ الأحوال، أمر يصعب غفرانه.

تمرّ ساعات عديدة حتى تتشكّلَ في الشقّة وبسطة الدرج المشتركة بركٌ من الماء ويستنفرَ جارٌ البوّابَ: الطابق الثالث، الشقّة B تغرق. لم يعرف الرجلُ ذو العينين الفاتحتين، العاري في وضعية جنينية، والمجعّد جدّاً المسؤولَ حين يقول له: "أيّها النؤوم النتن، اخرجْ من الحوض"، لكنّه يبتسم مرتاحاً وهو يرى أنّ أحداً، ملاكاً يرتدي لباسَ مملوك رماديّ، يأتي لإنقاذه. يفترضُ أنّه سيلتقي أخيراً في الآخرة بزوجته. وعلى الرغم من أنّه لم يكن مؤمناً قط، إلاّ أنّه بدا له واضحاً، بعد ساعات طويلة من شربه للماء ورواسبِهِ ومصّهِ لإصبع يده اليسرى الغليظة كي يتحمّل ألم الورك، أنّ قلبَهُ قد توقّف وهذه هي النهاية، الستارة المشجية لحياة هُدرت.

twitter @baghdad_library

III. رتابات زوجية

twitter @baghdad_library

ـ 1 ـ

بعد شهر من حادث الريف ما عاد لوبو يتذكَّرُ مجوناته الليليّة. ومع أنّه أراد مرّةً وأخرى أن يسترجع تلك الصور، إلاّ أنّ ما كان يأتيه إلى الذاكرة كانت كوابيس جديدة، تُبقي على آليّة شخصياته الأيروسية دون مسّ: كان مشهد العنف مع الراؤولَيْن يتكرّرُ إلى ما لانهاية، وكان آخرون معروفون ـ إستِلا، أمّه، ماركوز، بِلِن، بل وحتى زميل عمل سابق ـ يشغلون مكانَ الضحيّة والقاتل.

صار غيابُ ماركوز مع الأيّام طبيعياً، مثله مثل غياب إستِلا. كان يقضي الساعات وهو يحاول أن يفكّ لغزَ القرار الذي اتخذه: لا يريدُ أن يخرجَ ولا أن يبحثَ عن إستِلا؛ كان يعرف أنّ المرأةَ التي يتذكّرها ما عادت موجودة، وأنّ ابنَهُ لم يكن ابنه هو، بل ابن أمّه، لكنّه أيضاً لم يكن يريد أن يهجرَ البلدة. كان مرتاحاً وآمناً في ذلك النزل، حيث بدا منسيّاً حتى من صاحبته. كان يشعر بأنّه في داخلِ الداخلِ: منفيّاً. لم يعد مريباً بالنسبة للأشخاصِ القليلين الذين يعرفهم. حتى أنّهم صاروا يُحيّونه بشيء من التريّث البطيء، حين كان يمشي مرّةً في اليوم عشرَ خطوات من النزل إلى محل الوجبات الجاهزة عند الزاوية. كان يشعر أنّه نتيجةَ خطأ تخلّصَ من امرأة ما عادت موجودة. وقد اتخذا هذا الخطأُ مع الأيّام شكلَ الانتقام الناجح. أيضاً لم يعد يهمّه ابنه. لا بدّ أن إيفان قد كبر خلال هذا الوقت حتى أنّه لو التقى به ما كان ليعرفه. لو أنّه بقي ينتظرُ في بونوس أيرس، لكانت أبّدت استِلا في ذاكرته، ولصار الانتقام ـ تبدّل مجرى قدره منذ البداية مع ظهور ماركوز ـ الآن محضَ حنين.

twitter @baghdad_library

شعر لوبو لأوّل مرّة أنّه يتوقّف ليُحلِّلَ، انطلاقاً من وجهة نظر ذرائعية ودون أن يقع في الفجائعيّة، الأحداثَ التي جعلته سجينَ هذا النزل في باتاغونِس. هذا الحدث الذي لم يُفكّر به حرَّره بطريقةٍ أو بأخرى من شبح. طبعاً لم يخطر بباله أنّ اختفاءَ ماركوز كان جزءاً من هذا التحرّر. كان في حزنه قداسة مُعتدى عليها، وقليل من الذنب. كونه قتل ـ في حال أنّه لم يبق أيٌّ من الراؤولَين حيّاً ـ لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للرجل الذي بدأ يَصيره بعد الحادث، لأنّه صار الآن النسخةَ الثانية لشخصٍ ما عاد موجوداً. لم يكن حتى ليُكفّر عن الذنب الذي يزيّن له الهربَ ليصبح بعدها محتالاً غارقاً في البراءة. لقد فقد ببقائه في مكان الأحداث إمكانيّة أن يتظاهر بالبراءة، لكنّه كسب احتمالَ أن يكون حيادياً.

عاد ليُفكّر بابنة أكوستا العرجاء. وحدها صورتها، صورة المرأة الأولى، التي رآها عند هبوطه من الحافلة، كانت تواسيه في هذه العزلة المُملّة في كلّ مرّة أكثر، ذلك أنّ المهمّة الوحيدة التي يستطيع أن يمضي بها إلى الأمام ـ مراجعة ممتلكات ماركوز ـ استنفدها في أسبوعِ حجْرِهِ الأوّل. لم يكن يعرف ما الذي كان يجذبه إلى تلك الفتاة، لكنّه كان، منذ أن كلّمه أكوستا عن الموضوع، يشعر عند التفكير بها بأنّه في منجاة، معتوقاً.

ترك الأيّامَ تمرّ، راح يعدّ نفسَهُ، مُحَضِّراً دفاعاً. هتف أخيراً لِأكوستا، طالباً مقابلته، إن أمكن في المكان نفسِهِ الذي التقيا فيه أوّل مرّة. وبما أنّه كان مستعدّاً لأن يثِقَ بهذا الرجل، فقد ظنّ أنَّ من الحكمة ألاّ يكون اللقاءُ في الفناء، حيث يستطيع أن يسمعهما أحدٌ، وأن ينقلَ اللقاءَ إلى غرفته ذاتها. وجد نفسه مجبراً على تخبئة قاذوراتهِ وأمتعةِ ماركوز كي يتجنَّب مشهداً غير لائق. ولم يُقرّر أن يرمي بكلّ ذلك لأنّه لم يستبعد احتمالَ أن يعود، بين لحظة وأخرى، طلباً للانتقام.

خبّأَ تحت السرير دفترَ إحصائيات الخيول، الذي قضى أيّام الضجر في قراءته وفكّ رموزه. ساعات بحثه لم تُفْضِ إلى توضيح شيء عن الجبر المحزن،

الذي كان يستخدمه ماركوز في تنبُّؤاته الطموحة. كان هناك أرقام، مخططات، خطوط مستقيمة، فهارس أُسنّية وسهام غليظة، تُفقد المناهج العلمية بريقها ولا تقدّم لعيني الغافل أيّ قاسم مشترك. حاول أن يضع الثياب من جديد في الحقيبة، لكنّها لم تكن لتتسع لنصف ما اختاره منها ذلك الرجل المُتقلّب سرّاً لسهرات لعبهِ. كان يبدو أنّ تلك الثياب الوسخة الكثيرة والمجهولة، التي كان قد نثرها بحثاً عن جواب لاختفائه، كانت قد تكاثرت، مثل شيء، خارج مجراه، يتبع طريقَ الأرقام والخطوط المستقيمة والخطط التي كانت تسكن رأس صاحبها، ذاته. وبما أنّه لم يكن يملك مهارة لتنظيم معضلة تلك الملابس في الحقيبة فقد كدّس كلّ شيء في خزانة الثياب. تأكّد من أنّه لم يعد هناك جوارب يتيمة، أو سروال من تلك السراويل الداخلية الفضفاضة، المُقلّمة وذات الأزرار، التي كان يستخدمها ماركوز.

طرَق أكوستا البابَ في الساعة الموعودة، ودخل قبل أن يستطيع لوبو أن يسأل من يكون. كان الرجل مضطرباً كأنّه يهربُ من أحدٍ يُلاحقه. "لم يرني أحدٌ أصِل"، كان هذا أوّل ما قاله: "كان يجب ألا أكون هنا، لقِصر اللقاء". وعلى الفور فكّر لوبو: "يعرف كلّ شيء، الجميع يعرفون كلّ شيء، أنا مُحاصر".

"لا أدري لماذا هتفت لي... لكنّني أفترض أنّه من أجل ابنتي. بعد بضعة أشهر تُكمل الثامنة عشرة ولم يُطلّ علينا حتى الآن مُرَشَّح محتشم"، هزّ بكتفيه وقطّب وجهه، كما لو كي يبكي. أضاف أنّها، وللطامّة الكبرى، أعادت سنتها الدراسية وجميع الناس يعرفون ذلك، كان شيئاً مخزياً، فهو لم يكن يستطيع حتى أن يقول إنّها النعجة السوداء في العائلة، لأنّها وحيدته.

فكّر لوبو أنّه أمر متناقض: أب غنيّ وابنة مُعيدة لسنتها الدراسية. فجأة شعر أنّه عثر على شريك نقيّ فسأل:

"هل أنت متأكّد؟ كيف تعرف أنّ الأمر معروف؟".

"في بلدة بهذا الصغر كلّ شيء يُعرف".

twitter @baghdad_library

"هل من أحدٍ سألك عنّي".

"ما عاد أحدٌ يتذكَّرك. لحظة الفضول انقضت. أنت مطلق اليدين. تستطيع أن تفعل ما يحلو لك. أستطيع أن أُساعدك".

تطوّر الحديث بشكل غير مترابط. واحد يتكلّم عن المهزلة وضياع القيم في بلدة تُقَيِّمُ ابنة تافهة. والآخر يتحرّى عن قرائن خفيّة تؤكّد أنّهم يبحثون عنه بجريمة قتل اثنين.

"أنا أعرف لماذا لا تخرج، وإن لم تكن القضيّة تخصّني"، قال أكوستا على الفور "إذا سمحت لي بالتدخّل....، الانغلاق دليل واضح على الاكتئاب. وصلت إلى هنا، لم تحصل على معلومات عن المرأة التي هجرتك، عدت أو بدأت حياةً أخرى.. إذا بقيتَ فأنا عندي مكان لك في متجر لي، محل أدوات معدنية".

أجاب لوبو على الفور، كما لو كانت تطفو وراء الاقتراح إمكانية أن يشرع بتحمّل مسؤولية الابنة البلهاء، بأنّه كان على صواب: لم يكن يعرف ماذا كان يفعل في باتاغونِسْ، على الرغم من أنّه لا يستطيعُ مغادرةَ المكان. كان أسيرَ الظروف، كما يُقال عادة. قَبِلَ الاقتراحَ ريثما يجد مكاناً يعودُ إليه. وهو ما ردّ عليه أكوستا: إذن يُنجزان العقد في تلك اللحظة ذاتها ويضعه على رأسِ محل الأدوات المعدنية. عندها وضّح لوبو أنّه لا يفهم شيئاً بالصماول، ولا بالمسامير أو البراغي. "كلّ شيء يُتَعَلّم" زلق أكوستا وميّزَ لوبو في هذا التأكيد، على خلفية النور وبسعادة كانت تخنقه، روحَ ماركوز التصالحيّةَ.

ـ 2 ـ

أنزله أكوستا في عقار له بجانب النهرِ،كان خالياً. نقل لوبو أشياءه وأشياء ماركوز، التي صارت له وقلّبَها كثيراً خلال أيّام الضجر. جرّبَ، في بحثه عن

ملابس مناسبة أمام الزبائن ومجتمع باتاغونِسْ ثيابَ زميله القديم. جاء عدد من القطع مناسباً تماماً لقياسه على الرغم من الاختلاف في الطولِ والمقاس. فكّر عندها في إمكانية أن تكون الملابسُ قد انكمشت، كما لو أنّه كانت لها حياتها الخاصّة، وراحت تبحث عن صاحبٍ جديد، وفيما يمكن أن يُبَشّر به هذا: مات ماركوز. ومن دون أن ينتبه ما عاد ينتظره منذ تلك اللحظة.

كان البيتُ الكبير على الرغم من أنّه خَرِبٌ قليلاً، يُقَدّم له راحة لم يكن يُوَفِّرها له النزلُ، إلاّ أنّه لم يشغل إلاّ غرفةً واحدة، الأقرب إلى الحمّام، وترك بقيّة البيت مظلماً لا يمرّ فيه. كان ينتابه شكّ بأنّ تراكم الأثاث الخرب ورطوبة الغرف غير المشغولة في البيت، يجلبان القوارضَ والأشباح. بقي لوبو أيّاماً وأسابيعَ أثاثه الوحيد فيها هو سرير حديديّ مزدوج؛ علّق على ظهره ملابسه، بما في ذلك تلك التي ورثها من ماركوز. كفاه هذا الفضاء كي يعيش في الصمت وفي التدرّب، تحت ضوء المصباح الكهربائي الصغير الفجّ، على متاعب العمل الجديد. كان يدخلُ، بين الفينة والأخرى إلى المطبخِ ليُسَخّن ماءً، فيخرج مذعوراً: كان المكان يأتيه بذكريات شبحيّة من آخر مطابخه، بعد الهجر، في بونوس أيرس. الوسخ والحشرات كانا يحيلانه إلى جسد إستِلا السقيم قليلاً بعد الولادة، وإلى آخر لياليه إلى جانبها. كان يحبس نفسه في الحمّام كي يُحلّق بتمّهل مدروس، ويسرح في روتين يوميّ وبائس مثل أيّ لذّة انفرادية: كان يَعدّ مرّة بعد أخرى النقودَ التي جاء بها والتي ربّما لن ينفقها بعد الآن.

وتوخّياً للحيطة بقي لا يخرج كثيراً إلى الشارع. لم يكن يعرف كيف كان صدى جريمتيه في واقع البلدة: ما إذا كان هناك مجتمعٌ متعطِّشٌ للعدالة، ومتيقّظ لأيِّ حركةٍ غريبة، أم أنّ الحدثَ مرَّ دون أن ينتبهَ إليه أحدٌ، وتمّ تناوله على أنّه حدث ريفيٌّ معزول. لقد اعتبر بحكم النافذِ أنَّ الراؤولَيْن إمّا أنّهما يخضعان لمعالجة مكثّفة وإمّا أنّهما ميتان، وإلاّ لكانا حضرا بنفسهما للبحث عنه في النزل.

twitter @baghdad_library

كانت المرة الأولى التي خرج فيها مُخصّصة لزيارة محل الخرداوات كي يألفَ جوَّ عملِهِ المستقبليّ. سار ببطء، كما لو أنّه اقتنع بأنّه كان، بعد كلّ ذلك الحبس الذاتي ينقهُ. فقط في المرّة الأولى كان أكوستا موجوداً كي يقوم بالتعريف المُتَوَجّب ويزوِّده بالإرشادات. كان تيتو وسلمون هما البائعان. كانا مكلّفين بتلبية الطلبات، بجردِ البضاعة وتلبيةِ حاجة الجمهور. كان عمل لوبو الوحيد هو أن يقبض، وحين يُغلق المحل يدرس الأسعارَ التقريبية بحسب حجم الصوامِل الفارغة، البراغي والمسامير والأدوات وبقيّة اللوازم. إذا قام بها، فهو لن يحتاج بعد حين إلى أن يُراجِع لائحةَ الأسعار ولا أن يلجأ إلى ذاكرة البائعين، وسيستخدم حدْسَهُ ذاته كي يستنتج سعر شيء صغير. كان هناك منطق باطنّي في سعر كلّ مادّة لم يكن باستطاعة أكوستا أن يشرحه، لكنّ الممارسة ستُعَلّمه إيّاه بعد وقت قصير. مثلاً: إذا كانت حلقة قياس /4/ تُكلّف عشرة سنتيمات فعليه أن يأخذ ثمن حلقة قياس /6/ خمسة عشر سنتيماً، حتى لو كانت السعر الحقيقيّ ثلاثة عشر سنتيماً. الشيء ذاته يحدث مع البراغي، المسامير والحشوات وكل هذه الكوكبة من الأشياء الصغيرة. يمكن للتفكير المنطقي أن يُخطئ بالنسبة للأدوات الأكبر قليلاً، لأنّ المادّة تُؤثّر في السعر، وإن كان لا يُلاحظ ذلك من النظرة الأولى. وإذا خانته الذاكرةُ في هذه الحالة، فعليه أن يلجأ إلى تيتو وسلمون. عليه أن يُغلِق المحلَّ في الواحدة ظهراً من أجل القيلولة، وأن يفتحه في الخامسة ويعود ليغلقه في الثامنة، أو في التاسعة إذا كان هناك زبائن كثُر.

وافق لوبو على كلّ شيء. كان يوم جمعة، وفي يوم الاثنين التالي سيبدأ حياةً جديدةً.

نامَ باكراً، أغمض عينيه. حاول أن يستحضر إلى يقظته أحدَ أحلامه الجنسية الكثيرة، لكن مرّة أخرى لم تأتِهِ الصورُ. عزا انعدامَ الرغبة بالاحتلام والجنس إلى محيطه المكفهر وإلى الغرف الخالية. كان الفراغ يضفي على

البيتِ الكبير جوَّ ديرٍ. افترض أنّه حين يبدأ عملَهُ الجديد سيصير كلّ ما حوله أسهل. تصوَّرَ نفسه، بقليلٍ من الرغبة وقليلٍ من عمل المعروف لأكوستا، إلى جانب ثِلِستِ في هذا البيت الكبير ذاته، بعد أن تُكملَ الثامنةَ عشرة. سيكون عليه أن يُربيها ويشكّلها، تماماً كما فعل مع إستِلا. أدركَ، في تلك اللحظةِ، أنّ حاميهِ يجمع في نفسه كلّ أمراضِ الريف: مُلاحَق، مرتاب، كريم، استبداديّ وعلى وجه الخصوص، هشّ في لحظة مواجهة بعض حالات الشطط المزاجية. هذا الخليط من الهشاشة وجنون العظمة جعله يُفضِّلُ أن يُودِعَ كلّ ثقتهِ في غريب. خلص لوبو إلى أنّ عليه أن يستمرّ بالعيش في البلدة كغريب، دون أن يندمج، دون أن يُراكم صداقات. بهذه الطريقة سيحصلُ آجلاً أو عاجلاً على استحسان أكوستا، بما في ذلك التواصل غير المشروط مع ابنتهِ والحماية التي كان يظنّ أنّها ضروريّة للاستمرارِ في العيش في الظلّ، فلربّما طالب به الراوؤلان أو القضاء.

ـ 3 ـ

أدرك لوبو في اليوم الأول من العمل، حتى دون أن يكون مراقباً يقظاً، إنّ البائعين كانا مرتبطين بحلفٍ سنين قوّيٍّ من العمل المشترك. كانا يقضيان نصفَ النهار بالكلام عن "نساءٍ محتالات" "مؤخراتٍ مفتوحة"، "عاهرات كبيرات الأثداء". عندما كانا يُستدعيان للاهتمام بزبون، يبدو وكأنّهما مقذوفان إلى طرف مقابل، طرف رهافة ولباقة البرجوازية الصغيرة، وكانا يسرحان ويتصّوران بصوت عالٍ التخلّصَ من العزوبية ومغادرة بيت الأسرة ـ الخانق بالنسبة للاثنين، الكبيرين، العانسين والضخمين ـ والعثور على حبٍّ

twitter @baghdad_library

يدوم للأبد. أقلق لوبو حدسه بأنّهما يجترّان، في أعماقهما منذ سنواتٍ، فكرةَ نيلِ ثقةِ أكوستا والوصولِ إلى ثِلِسْتِ. كان يعرف جيّداً إلامَ يقود القنوط المُخَلّص لرجلٍ يخنقه الضيق: الابتزاز، ابتداع ابن غير شرعي، الزنى، الهجر اللاحق. بل إنّ كلّ جريمة كانت جزءاً من هذه السلسلة السببيّة؛ لكنّه كان يُفضل أن يصمتَ ويترك البائعَيْن يجدان نفسيهما في الفاجعة. كان يعرف أنّه، بعد تجربته مع إستِلا، لن يرتكب الأخطاءَ ذاتها مع ثِلِستِ. وأسوأ ما كان من الممكن أن يحدث له هو أن يتحوَّل المتآمران تيتو وسلمون إلى عائق آنيّ أمام استئثاره بذلك الجسد الفتيّ. أنشآ داخل التواطؤ نزاعاً صامتاً. هذا النزاع لا يمكن أن يعود إلاّ إلى أنّ كلّ واحدٍ منهما كان يتودّد بالتوازي في خياله إلى المرأة ذاتها.

فكّر لوبو مع مرور الأيّام أنّ المتآمرين لم يكونا يتوجّهان إليه بالكلام لأنّهما يحتقران جسدَه غير الرشيق وعدم إحاطته بالتقنيات، وليس لأنّهما كان يحسدانه على أنّه محميّ من قبل أكوستا. وقد وصل إلى صندوق محلّ الخرداوات تماماً كما يصلُ ابنُ ثريّ إلى رئاسة شركة. مع فارق أنّه لم يعتمد على أيّ شبكة تأثيرات، ولا على أبٍ، بل على أنّه كان آنيّاً بلا حماية، وهو ما ولَّدَ عند شخصٍ مثل أكوستا شعوراً ثنائياً: الثقة والشفقة.

كيف كان أكوستا؟ من كان؟. بدأ هذان السؤالان يشغلان ساعات قيلولته.

عزم لوبو على أن يبحث ذلك في الأيام التالية. قال لنفسه إنّ عليه أن يتحقّق قبل كلّ شيء من المكان الذي يعيش فيه هو وثِلِسْتِ. اعتبر بحكم المفروغ منه أنّهما لا يعيشان مع أحدٍ آخر وأنّ العائلة تنتهي هناك. واعتقد أنّه انتهى إلى مسمعه في محل الأدوات المعدنية أنّ تيتو وسلمون ذهبا ذات مرّة إلى حفلة شواء في بيت أكوستا وبقيا في حسرة أن يدخلا إلى البيت، لأنّهما وجدا نفسيهما مُجبرين على القيام بالشواء والعمل كنادلين. لم يستطيعا حتى أن يشربا نبيذاً. ثِلِستِ لم تذق لقمةً واحدة من اللحم أو الدرن أو نقانق الأرز والدم.. عزا البائعان ذلك إلى أنّها لم تكن تأكل شيئاً من أيدي غرباء أو

دهماء، وكانت الفتاة تجهل ـ بحسب تيتو ـ أنّ أباها طلع من تحت، عاملاً في محلّ يبتزا، وبالتالي كانت له اليدان المتفسّختان اللتان كانتا لهما.

قرّر في نهاية الأسبوع التالي أن ينحرف عن الطريق الذي كان يقوده من البيت إلى محلّ الخرداوات. ظنّ أنّ هذه الحيلة يمكن أن تُعيد إليه شهيَّتَه. لم يكن يستغرب شيئاً من حياته الماضية، باستثناء تلك المرحلة الوسطى من الشبق الليلي. اشترى الصحيفة. افترض أنّه لا بد أن يكون الكشك، بطريقة ما، لأكوستا. جلس في الساحة ليقرأ الأخبارَ. بعدها بقليل رأى ثِلِسْتِ تمرّ. كانت قد مرّت أسابيع لم يتصادفا فيها. كان العرج لائقاً بها تماماً: لم يبدُ عيباً، بل اختلافاً مشغولاً بحبّ. ولدهشته اقتربت ثِلِستِ منه عندما رأته.

"جئتُك برسالة من أبي. يدعوك لتناول العشاء عندنا في البيت. يقول إنّ راتبك معه. مرّ في الثامنة والنصف".

جاء ردّ فعل لوبو قبل أن تملص منه:

"هل كنتِ ذاهبة للبحث عنّي في المحلّ؟".

"لا، أعرف أنّ اليوم أحد. كنتُ ذاهبة للبحث عنك في بيتنا".

"آه" دمدم وفكّر على الفور أنّ استخدام الجمع كان موحياً ومثيراً. كان صوت ثِلِستِ أكثر تناسقاً وأنثويةً مما يتذكّر: كانت تُرافق عرجها بتألّق جرسه التامَ. استنتج أنّ بلهاء لا تستطيع أن تُنَمّي صوتاً بمثل تلك الرقّة وتستثمره إلى ذلك الحدّ. الأكثر احتمالاً هو أن صوت البلهاء بعد السابعة عشرة ينوس وتصير نبرته ملائكيّة. لم تكن تلك حالة ثِلِسْتِ، التي كان لها في السابعة عشرة صوتُ امرأة مَمَرَّن.

همست هي قبل أن يستطيع لوبو أن يقول شيئاً: "أراكَ ليلاً"، وابتعدت، كما لو أنّ شيئاً فيه، ربّما طريقته في الاستناد إلى الصمت كي يُراقبها، أوحى لها بعدم ثقة. وبتأثير من النور تولّد عنده انطباع بأن على ساقها المريضة عند مستوى الربلة زغباً زائداً غير موجود على الأخرى. هل يمكن أن يكون هناك تشابه مماثل على الجلد؟ لم يُفكّر قط أنّ امرأة يمكن أن يكون لها مثل هذا

twitter @baghdad_library

النوع من العيب. شعر بنفسه محبطاً، لكنه غيّر رأيه على الفور. ترى أليس فرطُ الزغب في منطقة محدّدة تفصيلاً شهوانياً؟

قضى بقيّة يومه في الفراش، يقرأ الأخبارَ ذاتها، مرّةً بعد أخرى. أحدٌ قرع جرسَ الباب. تأخّر وهو يُفكّرُ أن الأمر يمكن أن يتعلّق بصبيٍّ ما، لكنّه تردّد، ربّما الأطفال في البلدات كانوا أكثر رهبةً من أن يقوموا بمثل هذا البذاءات، فقفز من السرير: الشخص الوحيد الذي يمكن أن يأتي للبحث عنه هي ثِلستِ. حين فتح لم يكن هناك أحدٌ في الباب ولا في الشارع. مرّ في أثناء عودته إلى السرير بإحساسٍ متناقض من الذعر والراحة: عليه أن يختفي من البلدة نهائيّاً. يمكن أن يكون الراؤولان قد نجيا ويبحثان في المنطقة. وفي الوقت ذاته ولهذا السبب كان يعود ليصبح رجلاً بريئاً.

في الثامنة والنصف خرج إلى باب بيته. هناك تماماً وبينما كان ينتظر أكوستا، قرّر ألاّ يعود ويعبر حدود نهر نِغرو: فهناك احتمال أدنى بأن يعود ويُصادف روبِرتو أو الراؤولَيْن ويُعَرّضَ هذه الحصانَةَ التي نالها بحماية من أكوستا، إلى الخطر، وكانت تتعزّزُ بإيقاع سريع. كانت الحالة بحاجة إلى سنة أو سنتين كي يلفّها النسيان. عندما تنمحي أحداث كاردِنال كاغْلِيْرو من ذاكرةِ آخرِ سكّانِ المنطقة سيستعيد براءته المفقودة.

وصل أكوستا في التاسعة إلاّ الربع وجعله يصعد إلى السيّارة. وما إن أصبح في داخلها حتى استنشق بخار إيثيليّ. حيّاهُ أكوستا بقبلة وكلّمه عن قربٍ بتلك الصداقة المفرطة والمربكة التي تُحدثُها العزلةُ عند بعض الرجال. ولم يتشجّع لوبو بفعل المفاجأة، أن يُبعدَه عنه، وأذعن للمنولوج الاحتضاري لرجلٍ سكران يرمي الشخص الأوّل الذي يعبر به، بمشاعر صداقته القاطعة. سرعان ما فهم لوبو سبب رسالة أكوستا الودّية والمؤَمّلة. سارا متهزهزين، ابتعدا عن وسط باتاغونِس، وعندما مرّا أمام بوّابة العقار الذي يعيش فيه مع ابنته، كبح أكوستا السيّارة، وترك رأسه يسقط، كما لو أنّه ما عاد يستطيع أن يقود تلك السيّارة التي تحوّلت إلى بهيمة وقال: "ثِلستِ تتجاوب مع

مشاعرك. لم يحدث هذا من قبل. كان عندها عدد من المرشّحين. عندنا شيءٌ نحتفل به".

عندما دخلا وعبرا الحديقة لمح لوبو تيتو وسَلَومون اللذين جُنِّدا بالإكراه كي يُحَضّرا الشواء. واحد منهما كان يُحضّر النار من دون رغبة؛ والآخر يُمَلِّحُ اللحمَ ويلفّ بطاطا، وبطاطا حلوة، في ورق ألمنيوم. كانا يتكلّمان بصوت منخفض وينظران من طرف عيونِهما إلى لوبو بقليلٍ من الامتعاض. كان كما لو أنّ حضوره يُهينهما فقرّرا أن يتوقّفا عن عملهما. كانت ثِلِسْتِ تشمّ الهواء على بعد عشرة أمتار عنهم، ما يكفي كيلا تسمع حواراتهما البذيئة ولا تعاني من نظراتهما الشهوانية. كانت تصفر وتُحرّك رجلها السليمةَ، بينما رجلها المريضة مغروزة في الأرض، مثل وتدٍ ولا يظهر عليها للوهلة الأولى ذلك الزغب الذي لاحظه هو في المساء.

قام أكوستا بعد أن همس في أذن لوبو بجملة مجاملة غير مفهومة ليقولها طلباً ليد ابنته ـ وإن كان قد وضّح له أنّ كلّ شيء مُسَوّى وأن أيّ رفض كان مستحيلاً ـ دعا الخطيبين، جمعهما، وتركهما وحدهما في الرواق وذهب باتجاه المشوى حيث تسلّى مُناكِداً عامليه.

"بابا يريد أن يُزوِّجني وأنتَ طيِّب"، قالت هي كما لو كي تُبرِّر استسلامها وداعبت يده بأنامل أصابعها وأطلقت ضحكةً حادّةً، نوعاً من القَرْق. لم يصل لوبو حدَّ أن ينطق بالجملة الشكلانية التي همس له بها أكوستا، كما لم ينجح في البحث في ذاكرته عن صيغٍ رومانسية وفارغة، كان يستخدمها قبل سنوات واقتصر على الردّ على مداعباتها.

على الطرف الآخر من الحديقةِ كان أكوستا نفسُهُ يقطعُ الحطبَ بالفأس مغتاظاً، ويُدمدم مغتاظاً "عديمَي النفع الخرائيين"، وهو ينظر إلى مساعدَيه البائعين، اللذين كانا يُحاولان مذعوريْن أن ينعشا النارَ، التي انطفأت من كثرة ما ثرثرا. تحلّقت مجموعة من الكلاب الهجينة، التي يلتقطها أكوستا عادة من الشارع، حول هالة اللحم النيّئ، مليئة بالنُّعَر وراحت تهزّ مخاطِمها بين

twitter @baghdad_library

إجفالها وحركاتِ ألسنتها. على طاولة الخشب كان هناك معلاق وكوارع وأحشاء، التي كان البائعان الغيوران من امتياز الحيوانات يحرصون عليها. أشار أكوستا إلى تقطيع الحطب متوجهاً للمستخدَمَيْن بالقول: "هكذا تقطع، "يا عديمي النفع الخرائيين، احملاها وأشعلا النار من جديد".

"بابا منزعج، لكنّه يُحبُّ حضرتَك. يجب أن يكون ذلك لطيبِ وجهك. هو يتوقّف عند الوجوه. إذا ما أعجبه وجهٌ، يكفي، أحبّه. أيضاً أنا أحبّ وجهك. رأيتُك في الحافلة. لكنّ الرجل الذي كان معك أخافني" قاطعت رجليها تحت فستانها المزهر الذي ترتديه. تصوَّر لوبو الاحتكاك المتعطّش تحت سروالها الدقيق، الذي لا بدّ أن يقدّم مثل فستانها، تصميماً طفولياً من أزهارٍ أو ثمار صغيرة.

"لا تُعامليني بحضرِتك" قال هو كي يقترب ذهنياً مما بين فخذيها الذي صار فجأةً طازجاً وحقيقيّاً. لم يكن يستطيع أن يقبل ألاّ تُخاطبه بأنت. فـ حضرتك تُضيف للعلاقة لمسة من انحراف واضحة، التفصيل الذي مرّ عليه مرور الكرام: كان أكبر منها بكثير. بعمر أبيها تقريباً. سرعان ما ندم على اقتراحه برفع الكلفة في الحديث.

"تبدو رجلاً يمكن الوثوق بك. الجميع هنا موتى. يريدون أن يجتمعوا بالأشخاص كي يسرقوهم. أنا شابة جدّاً، وبابا رعاني دائماً. هو من يعاني من النمائم...."

فهم لوبو أنّ ثِلِسْتِ تُكرّر مقولةَ أبيها عن الملاحقة. فهمت أنّه لا يُشارك في الشائعات لأنّهُ غريب وغير متحيّز، ويمكن أن يكون بعد كلّ حساب كشاهد خفيٍّ، مخبراً. على الرغم من الرصد الذي يعاني منه الأب كما الابنة، فإنّ لوبو لا يتذكّر أنّه سمع آراءَ ساخرة ولا أقاويل.

الصحيح هو أن أكوستا لم يحرم نفسه من خلق مأساة ثنائية مع ابنته العرجاء. كما لو أنّه بهذه الطريقة يحميها ويشفي العيبَ الخفيف، الذي صار بالنسبة للحانقين في البلدة إعاقة فقط منذ أن ترمَّل هو. كان يشعر بها

قريبة كزوجة وكان راضياً عن أنّهما وبفضل الفهم الضمني ينتبهان إلى أدنى شائعة، ويُقدّران عند اللزوم العقوبة العادلة بحقّ مُشَوِّه السمعة. قبل زمن مثلا كان تيتو وسَلَومون قد ذكرا أمام الجنيناتي ضعفَ أكوستا أمام الكحول منذ أن أخذ السرطان زوجته. وعلى الفور نقل الجنيناتي التقوّلَ إلى أكوستا فقام هذا بعد التشاور مع ثِلستِ بتطبيق قانون الطوارئ العسكري عليهما، وكلّفهما بأعمال شاقة في محلّ الأدوات المعدنية لمدّة شهر. طلب تيتو وسَلومون لأسباب اقتصادية تقليص مدّة العقوبة، فَمُنِحاه شريطةَ ألا يشهرّا به من جديد ويتحوّلا مثل الجنيناتي إلى مُخبِرَين. ومع ذلك لم يشيا قط بأحدٍ. سرعان ما نسيا المسألة واستمرّا بعدها في التشهير بهذا "الأرمل المعتوه" ـ بحذر يتناسب مع العنف الذي كانا يستخدمانه في الحطِّ من قيمته ـ وبدأا يطمعان في كلّ مرّة أكثر بابنته العرجاء، كما لو أن الخيال الغرامي كان طريقة حميمة وقاتلة للانتقام للإهانات.

على العكس مما كان يتصوّر لوبو، كان البيت في داخله عاديّاً ويسوده الذوق المبتذل والتوفيري للطبقة الوسطى حديثة الثراء. قادته ثِلستِ إلى القسم الخلفيّ من المنزل. دخلا مطبخاً، هو اليوم أقرب إلى مستودع للجامبو والنقانق والسجق المعلّقة إلى أسلاك وأجبان تُرَقَّدُ. مجلاهُ اقتُلِعَ من مكانه مع الصنابير وموقد الغاز. في زاوية تُرى أكياس إسمنت وجير وزُلَيْج مكدّس في صناديق كرتونية وأدوات للملاط.

دفعته نحو الطاولة المنخفضة مُبتسمة. تولّد عنده انطباع بأن ثِلسْتِ تجر ساقها وتساءل عمّا إذا لم تكن ساقاً صناعية تامّة أو تطعيماً خارقاً: ساق امرأة أخرى. مدّ يده إلى الفخذ وقرصه: لحم وعظم أطلقت هي أنّةً كما لو أنّ تلك المداعبة انتقلت إلى كلّ ركن من أركان جسدها، فقفزت وراحت تُقبّله بتلهّف حتى آذت شفتيه بأسنانها. تساءل لوبو عمّا إذا لم تكن تفعل هذا مع كلّ الرجال وعما إذا لم يعبر تيتو وسَلومون ذات مرّة إلى المطبخ للانتفاع بهذا اللحم الوديع. إنّ عدم خبرة ثِلستِ يمكن أن تعود ببساطة إلى

twitter @baghdad_library

إنّها لم تُقبّل غير رجلين بغيضين. ومع ذلك فإثارتهالم يكن فيها قيدُ شعرة من خجل. حميَّاها كانت مألوفة: حرارة من تُسمى سوقيّاً: "عاهرة صغيرة". غزته ذكرى بِلِن غير الطاهرة. كانت ثِلِستِ القالب الريفيّ والفظّ لتلك المرأة المدينية المُسمّمة.لم يستطع أن يمنع نفسه من مداعبة ثدييها تحت فستانها، بثقةٍ كما لو أنّه يلمس امرأة كان معها مرّاتٍ عديدة. كان الثديان يُقدّمان كثافة أخرى: حلمتان منتفخان وناعمتان، مع بِساطٍ من الزغب على الحواف. رضيت هي بمروره عليهما وتلذّذت بالجسارة ماطّةً رأسها إلى الخلف. ثمّ تراجعت على الفور خطوةً، عضّت على شفتيها ولوت ساقها المريضة بغنجٍ وقادت يدَ لوبو إلى عضوها. حرّك هذا بسبابتِهِ تلك المادّة الريانة. أخجله أنّه سرح بخياله مع جُبَيْلٍ أمردَ ومتعطّش، ووقع بالمقابل على عانةٍ كثّة وفخذين كاملين وفرج قلق، مجنَّحٍ، جاهزٍ لعناق عضوِ رجل. في تلك اللحظة، وحين كان يستعد لنزع فستان تلكَ المرأة الغامضة، والمألوفة في آن معاً، كي يرقدها على الطاولة، انفصلت المرأتان انفصل خيال بِلِن عن ثِلِستِ وأوحى له ذلك الجسدُ البائس وغير المتناسق بمزيج من الكبت والخوف. أوقفته الشفقة، كنهرٍ باطنيّ للقلق، حين حاولت هي فتح سحاب بنطلونه. "لا"، قال، وفكّر أنّه إذا ركعت ثِلِستِ في هذه الليلة ذاتها لتمصّه له فما من إجراء من إجراءات أكوستا الوقائية ستُنفّذ وسيكون عليه أن يُغادِر، بعد وقتٍ، باتاغونِس. سأل نفسه مرّة أخرى تراها فعلت الشيء ذاته مع تيتو وسَلومون وهل وجدا نفسيهما مجبرين على القيام بالشواء دون أن يستطيعا أن يدخلا البيت؟ مرّ بخاطره أنّ أكوستا كان يختبره بابنته الشبقة. إذا أذعن لأهواء ابنته الداعرة، إذا ما استغلّ هذه الشبقة البلهاء، يمكن أن يخسر ثقته، وهذا ما يعادل بقاءه بلا حماية. كما لو أنّ الشكّ كان بالنسبة إليه منطقيّاً وأنَّ بعضاً من هذا كان على المحك، حتى عندما لا يتجسّس أكوستا، بالمعنى الحرفي للكلمة، على المشهد، ابتعد عن الطاولة وعرض عليها بطريقةٍ ودّيةٍ العودةَ إلى الحديقة آخذاً بيدها ليريا كيف كانت تسير عمليّةُ الشواء. بقيت

هي مصعوقة أمام سلبية كانت تعتقد أنّها خاصّة بالأزواج المستنفدين. بعد بضع ثوانٍ أظهرت ضغينة، لكن سرعان ما بدا أنّها أدركت أنّ موقفاً عدوانيّاً وغلوّاً منها في الشهوانية يمكن أن تفزع مرشَّحَها. "هيّا بنا لنأكل، معك حقّ. سجقاً ونقانقَ محشوّة بالرز والدم،..."، وضحكت مائلة برأسها على كتفه. عندها تردّد لوبو: " ألا يستحق الأمرُ أن ينتهك هذه الفتاة غير الطاهرة فوق الطاولة ويخسرها للأبد؟ وتساءل السؤال الذي يسأله أيّ رجل في مكانه: "وماذا لو لم تعُد وتتكرّر الفرصة؟".

سمع في البعد صوتَ أكوستا. وعلى الرغم من أنّه لم يكن واضحاً ما إذا كان يناديهما أم أنّه يصرخ منزعجاً، فقد خرجا مسرعين. كان البيت فارغاً. كما لو أنّ الوقت لم يمضِ، أكوستا يقطّع الحطبَ بالفأس والبائعان يقومان بالشواء بكسلٍ مُريب، يكادان يجهدان في أن يفشلَ كلّ شيء. شعر لوبو بذلك الكمال المراهق الذي يمرّ به المراهق بعد أن يخرج سليماً من مغامرة جسورة. فجأة سمع صراخاً، صوتاً، بد له أنّه يُرافقه منذ أيّام مضت. لم يكن صدى صوت رجل بل حيوان.

"إنّها واحدة من البومات القليلة المتبقّية"، وضّح أكوستا قاطعاً للحظةٍ عملَهُ ونظر من طرف عينه إلى مُستَخْدَميه" لا نفع منهما في إشعال النار، فلماذا أدفع لهما؟".

"أشعلها أنتَ أيّها العجوز العنين"، تمتم واحد منهما، لكنّ أكوستا الذي كان يدير ظهره منحنياً فوق الحطب الذي يُقطِّعه بحنق كما لو أنّه في داخله يُقطّع مُستَخْدَميه، لم يسمعه.

"عجوز الخراء"، أضاف الآخر، "أنت وهذه الثعلبة العرجاء".

بلى سمعته ثِلِستِ. اقتربت ببطء كيلا تعرج وأخذت المحراك الذي كان فوق النار. نظر تيتو إلى عينيها بين مندهش ومذعور، كما لو أنّه حدس احتمال أن يكون ضحية وفي الوقت ذاته أن تعمل من أبيها ضحية. تراجع سَلَومون كي لا يتورّط في المشهد.

"ضع يدك هناك"، أمرته.

twitter @baghdad_library

ترك أكوستا، مستنفراً ومذعناً قليلاً تسليتَهُ جانباً:

"ماذا جرى؟".

"تيتو قال لي عاهرة".

"ماذا؟ تيتو...؟"، وصرخ كما لو أنّه يقوم بدوره في تصميم رقصة: "ضع يدك على المشوى يا تيتو".

"ولا حتى لو كنتُ مجنوناً. أنا لم أقل شيئاً... هو..."، وأشار إلى سَلومون.

"أنا؟ كيف وهذه الطفلة قديسة... أقسم بالعذراء أنّني لم أقل شيئاً"، توسّل مذعوراً.

"من من الاثنين كان، يا سيلبيو؟".

لوبو الذي لم يكن يُميّز بين صوتيهما، على الرغم من أنّه يسمع ثرثرتهما يوميّاً، سمع الشتيمة. أعطى نفسه الحقّ بمعاقبة من كان يقع منه موقعاً أسوأ. "هو"، قال مُشيراً إلى سَلومون.

"أناااااااااا؟ لكن..."، نظر إلى تيتو: "إنّه هو، أقسم لك، قل، يا أخي...".

خفض تيتو رأسَهُ وشدّ على أسنانه.

"تعال إلى هنا، يا سَلومون"، أمره أكوستا وانتزع المحراك من يدي ابنته. بدا أنَّ أذنيه تنتصبان كأذني حمار واكتسبت نظرته شيئاً ريفيّاً ودمويّاً. "تعال إلى هنا، تخرب علي هذه الليلة بتعليقاتك الخبيثة، تعال إلى هنا أو أنّني سأطردك".

اقترب سَلومون خافض الرأس.

"ابنتي هي خطيبة هذا الرجل. أهنت الاثنين الآن. اطلب صفحاً، كما ينبغي أن يفعل مستخدم جيّد".

"بابا، احرق له يده، قال لي عاهرة".

"توقّفي، توقّفي، يا صغيرة"، ترك المحراك على النار. "اطلب الصفح، ويحك".

"أطلب منكما الصفح".

"قُلْها بقناعة أكثر، ويحك"، أَمْسَكَ بالمحراك، الذي اهتزّ بسرعة في يده، مثل سيجارة.

"أطلب الصفح من الخطيبين الجديدين، لم أقصد إهانتهما".

"هكذا ماشي الحال"

"بابا، احرق يده"، أصرت هي مبتسمةً هذه المرّة وضغطت على ذراع لوبو، الذي كان يتابع المشهد بجانبها، متسائلاً كيف ستكون حياته في المحلّ بدءاً من الاثنين؟

- 4 -

لم يبدأ الشواء قط. فقد صرفَ أكوستا، بعد الحادثِ، تيتو وسلومون. وكعقاب لهما حجز درّاجتيهما كي يعودا خمسة كيلومترات مشياً على الأقدام ويحضرا في اليوم التالي، أيضاً سيراً على الأقدام في الثامنة صباحاً، كي يتكلّموا بوضوح أكبر حول الانتهاكات التي ارتكباها توّاً.

أكوستا، الذي استوحش بالكحول، نام على العشب دون سابق إعلام. حين انتبهت ثِلستِ للمنظر أرادت أن تجرَّ لوبو من يده إلى عمق المنزل، لكنّه بقي ثابتاً على رفضه. أصرّت هي: "هيّا فقط نتبادل القُبَل".

فكّر لوبو أنّها ربّما طمعت بهذا التواصل مع رجلٍ منذ زمن، وفضّلَ أن يعزو إثارتها إلى هذا السبب، وليس إلى عملية المتعة الجنسية الآلية باستخدام المواد الزيتية. حملها إلى عمق الحديقة، إلى مقعد موجود تماماً أمام سرير معلّق. كان القمر عالياً في السماء. قالت له إنّ أمّها اعتادت أن تأتي بها إلى هناك في طفولتها. لانَ وبدأ يُقبّلها. أيّ ضعف عند النساء كان يشدّه. انطلاقاً من هذا الضعف يمكنه أن يصفح عن أيّ شيء أو أن يؤسطر عيباً. سرعان ما وجد نفسه يُقلّب المادّة البضة بين فخذيها. أعطى نفسه هذه المرّة تفسيراً غير معلول كي يُبرّر هذه الوفرة: ثِلستِ تماماً مثل بِلِن، بالتأكيد لأسباب

twitter @baghdad_library

مختلفة، كانت تمارس العادة السرّية عدّة مراتٍ في اليوم. وعلى الرغم من أنّه كان يعي أنّ ثِلستِ لا تستطيع أن تمضي يوماً آخر دون أن تنال معروفاً من رجلٍ، فقد قرّر أن يؤجّل اللحظةَ. انتابه، مرّة أخرى، إحساسٌ بأنّه لم يُغلق ملفَّ المعاشرة بعدُ مع أكوستا، وأنّ أيّ خطوة ناقصة ـ أو وشاية من ثِلستِ ـ يمكن أن تضعه مكانَ تيتو أو سَلومون.

أكوستا نفسه حمله عندما استيقظ في الثانية صباحاً في سيّارتهِ إلى بيته. خلال الطريق لم يتكلّم. ظنّ لوبو أنّ من المناسب ألاّ يطرح أسئلةً كيلا يدخل إلى أسرارٍ واعترافاتٍ غير مرغوبٍ بها، وفي الوقت ذاته كيلا يحدث سوء فهم. كانت السكْرَةُ ترسمُ عند أكوستا ملكاً عارياً، قادراً على أن يقول أيّ شيء.

"اعتبر يد ابنتي لك. إذا كان لا يزعجك نستطيع أن نبرمجَ الزواجَ للشهر الماضي". وأمام عدم الردّ أسند مرفقيه إلى المقود وأضاف باصقاً نَفَساً حامضاً: "ما زلتَ تُفكّر بزوجتك السابقة، أليس كذلك؟ ترَمّلْ مثلي. انسَ، لن تعثر عليها أبداً. تصرّفْ كما لو أنّها ميتة. لن تجدَ فرصةً ثانية كي تبدأ حياةً جديدةً، مع كلّ وسائل الراحة... هذه السيارة ستصبح لك".

كاد لوبو أن يجيب بأنّه لا يملك سيارة، ليس لأنّه لا يملك مالاً، بل لأنّهم سرقوها منه، أو بالأحرى لأنّه أضاعها مع بقيّة ماضيه. أزعجه قليلاً أنّ أكوستا يُقلّل من شأنه قليلاً ويُبالغ في تواضعه، وأنّه جزئياً كان مُتبنى من قبله. عندما فكّر بالأمر ثانيةً، خلص إلى أنّ امتلاك استقلالية سرّية، خمسة عشر ألف دولار مخبّأة في جورب تعادل مسدّساً، وإذا ما أخفق أنّ زواجه من ثِلستِ، فيمكن أن ينهي كلّ شيء ويهرب بما معه ويبدأ مرّة أخرى حياةً جديدةً.

"إنّ ثقة شخص مثلك تؤثّر فيّ"، قال لوبو، واثقاً من أنّه لا يوجد ما هو أفضل من المحاباة لاكتساب ودّ أرمل مخمور.

"قدح آخر، لندخل، هل تدعوني؟".

"ليس عندي كحول في البيت... أنا لا أشرب عادةً... أنت تعرف ذلك".

"أنت رجل سليم، لذلك أُحبُّك. أريد أن تلقى التوفيق. أنت وابنتي فقط... بقيّة العالم لا يهمّني"، وعانقه بالتأثر ذاته. تحمّل لوبو النفس الزنخ، وظنّ أنّه تلقى قبلةً رطبة على خدّه، فأغمض عينيه، لكنّ أكوستا ابتعد قليلاً وربت على نقرته مثل أبٍّ يُشجّع ابنه "ثق بي، كلّ شيء سيخرج جيداً. ثِلستِ طيّبة، وستعمل ما أقوله لها. أمامنا الكثير. سنتقدّم على مهل".

ما من أحد، غير غريبٍ، استطاع أن يُسهّل على أكوستا قرار تسليم ابنته الاعتباطي وينهي الشائعات. منذ وفاة زوجته راقب تطوّر ابنته الجسدي عن قرب. فجأة لاحظ، مذهولاً، أنّها وعلى الرغم من عيوبها ـ أو لهذا السبب ـ كانت توقظ عند الرجال الرغبات الخسيسة، مثل تلك التي تُثيرها نادلة حانة. عندها بدأ يُراقبها كيلا تُفسدَ أيدٍ سوقِيّة، أيدٍ عدّوة، ذلك الجسد المُحَيَّد والطاهر آنيّاً. وأن يقطع بذلك سلسلة الضياع التي كانت تمتصّ في تلك البلدةِ الكثيرَ من النساء الفاسدات أو الجائعات، بما في ذلك أمّهات أسر، يمصصن على جانب الطريق أعضاء سائقي شاحناتٍ. وسرعان ما تحوّلت المراقبة إلى ملاحقة. ومع لوبو وضع أكوستا عائقاً واضحاً أمام المؤامرة. كان جندِيَّهُ، آخرُ جنوده.

عن هذا وعن الأخطار التي تُعدّها الحياةُ في بلدةٍ أراد أكوستا أن يتكلّم. دعاه لوبو للدخول ليس فقط لأنّه كان مالك البيت، بل لأنّه قد لا يملك في المستقبل فرصة أخرى كي يعرف من كان هذا الرجل، وماذا كان يريد فعلاً؟

جلسا في المطبخ، على الكرسيّين الوحيدين.

"كيف تستطيع أن تعيش في هذه الظروف؟"، احتجَّ أكوستا لكنّه وقبل أن يستطيع لوبو أن يجيب غيّرَ الموضوع، كما لو أنَّ اللامعقولَ في تقييمه يصيبُه هو نفسه: "إذا أردتما تستطيعان أن تتزوّجا الأسبوع القادم وتترك زريبة الخنازير هذه"، وأمسك بوجهه قلقاً، كما لو أنّ هذا البيت ليس بيته: "لن يعرف أحدٌ في باتاغونِس، سيكون زواجاً وراء أبوب مغلقة، كيلا يكون هناك قيل وقال، الشهود الضروريون وانتهى"، ضحك وحده. وفجأة انقلب جدّياً:

twitter @baghdad_library

"عليك أن تعدني ألا تضع عليها إصبعاً حتى ذلك اليوم... لا نستطيع أن نُخاطر. إذا ما رآكما أحد...".

"طبعاً".

"هناك مئات من المهتمين الذين يريدونها لأنّهم يريدون ثروتي، هل فهمت؟ أنت لم تكن تعرف من يكون والدها عندما رأيتها ولحقت بها. هذا هو الحبّ من أوّل نظرة. عشقتها حتى وأنت ترى أنّها..."، توقّف، لاكَ كلمةً غير متشكلة على رأس لسانه: "عرجاء".

نظر لوبو إليه مندهشاً، فقد بدا أنّ الكلمة على فم الأب تُلقي الضوءَ على طبيعة تِلِسْتِ الحقيقيّة. كما لو أنّها فقدت سحر العرج الخاص، وكانت عرجاء بين كثيرات ـ أو عرجاء البلدة وفقط ـ تساءل عمّا إذا كان الآخرون يرون فيها ذاتَ المرأة التي يراها هو، وعمّا إذا كان مجتمع باتاعونِس سيغفر لها على كلّ الأحوال مرضها. لا شكّ أنّ الرجال سيواجهون بالسخريات امتعاضهم من عدم شغلهم لمكانه.

"هل طرحوا عليها الزواج ذات مرّة؟".

"على الأقل عشر مرّاتٍ، بما فيهم أبناء عائلات محترمة دعوها لتخرج معهم".

تذكّر لوبو أنّه يتكلّم مع سكران، وأنّه لا يستطيع أن يأخذ على محمل الجدّ شيئاً مما كان يقوله. ومع ذلك ولهذا السبب يمكن أن يتوصّل إلى معرفة من يكون أكوستا: فالسكارى، إضافة إلى أنّهم رجال عراة، يتصرّفون أحياناً كوشاة.

"ليبقَ هذا بيننا، يا سيلبيو..."، خفض صوته كما لو أنّهما كانا في بار، وكرّر الفكرةَ ذاتها "ابنتي تلهب كثيراً الرجال هنا... لا أدري لماذا. لا بدّ أنّها أموالي".

هزّ لوبو بكتفيه، فكّر أنّه لو ناقضه وعلّقَ قائلاً بأنّ ابنته تملك سحراً فاسقاً لا يستطيع، طبعاً، هو كأب أن يلتقطه، لربّما أساءَ فهمه.

"خُذْ قبلَ أن أنسى، راتبَكَ. هناك بعض البيسوات زيادة كي تلبس جيداً". تظاهر لوبو وهو يأخذ المغلّفَ بابتسامة امتنانٍ، وفكّر أنّ أكوستا أكثر براءة

مما كان يبدو. بعد لحظة راح حَمْوُهُ المستقبلي يهلوِسُ حول أصل ممتلكاته: كان يشغّل أمواله في التجارة، لم يكن عنده شيئاً نقداً ولا حساباً في مصرف. كان محل الخرداوات ومحلان للعب القناني الخشبية في المنطقة قليلاً وتأمين بداية جبل الجليد الكبير. ما كان له قيمة في الحقيقة هي الأرض. "ما عداه درّاجة رجل، إعطاء فرص عمل وترك بعضهم ينصب عليه قليلاً، وتأمين دخل. أريد أن تصير البلدة لي وأرى ماذا أفعل"، تردّد قليلاً وفتح عينيه الجاحظتين، "أطردهم جميعاً أم أُعاملهم كما أُعاملُ تيتو وسَلَومون؟ عندي في باتاغونِس أربعون بيتاً مثل هذا الذي أنت فيه، فهمت؟ سعر العقارات يرتفع. استمرّ أنت بالذهاب مؤقّتاً إلى محل الخرداوات واجلسْ وراء صندوق الحسابات وكفى. بعدها ستتشارك كزوج لابنتي بالاجتماع مرّة في الأسبوع بسوارِثْ المحاسب الذي يدير شؤوني: الإيجارات، القروض، الفوائد، المبيعات، الكتلة متحرّكة، آلة صنع السجق".

كان هذا المنولوج المشوّش كافياً كي يفهم لوبو شخصيّةَ أكوستا غريبةِ الأطوار. نزع للتفكير بأنّ الترمّل زاد عنده جشعه المادّي وكرهَهُ لسكان باتاغونِس، كما لو أنّه يعتقد أنّهم بطريقة أو بأخرى مسؤولون عن موت زوجته.

بعد برهة، بقي أكوستا نائماً على كرسيّه في منتصف جملة كان يقولها.ابتعد لوبو على رؤوس أصابعه. أغلق بالمفتاح وخرجَ إلى الشارع، دون أن يدري لماذا ولا إلى أين. ليل عميق في بلدة أشباح على حدود مقاطعة بونوس أيرِس. أراضٍ بور تفوح منها رائحةُ حزن وحياد، حيث لا يمكن فعل شيء لأنّه لا شيء يعيش. راقب تلك الفضاءات الشاغرة تسوطها ريح الجنوب القارسة. تذكّر أنّه لم يأكل بعد.

كان المحل الوحيد المفتوح فوق الساحة الرئيسيّة هو محل بلياردو أمريكي يُحَضّر فيه الهمبورغر وبلاعيط الفريدي، حيث يبدو أنّ شباب المكان يجتمعون يومياً وسط الدخان والصراخ وموسيقى روكولا. بقي لوبو قريباً من المدخل بجانب طاولةٍ ملصقة بعناية بالجدار عليها بقايا بلاعيط فريدي

twitter @baghdad_library

ومناديل في أطباق كرتونية. راقب الحاضرين بحذر. ظنّ أنّه عرف في العمق الشاب ذا البيريه والوجه الذي دبغته الشمس، الذي كان في باب المزرعة في اليوم المأساوي، منحنياً فوق طاولة. كان يضع قبعة بيسبول بدل البيريه. استدار لوبو كيلا يعرفه الشاب المركز على الكرة السوداء. استلم بلاعيطه وخرج بخطواتٍ سريعة. فكّر أنّ مارّاً بقبّعة بيسبول كان شيئاً خارج المألوف. قال لنفسه إنّه، حتى لو أنّه خلط بينه وبين شخص آخر، لن يعود ويخرجَ عن طريق المنزل ـ محلّ الخرداوات. يستطيع أن يُضيف إليه عرَضَاً طريقاً آخر لزيارة أكوستا، يمرّ ويبحث عن ثِلسْتِ، يزور المُحاسِبَ سوارِثْ أو يتزوّجَ في السجل المَدني. عاد إلى المشهد الذي كان يرفض أن يعيشه قبل أكثر من شهرٍ ونصف. تساءل عمّا إذا لم يكن كلّه حلماً، بما في ذلك إيفان وإستِلا. لو كان المشهد واقعيّاً لما بقي أثرٌ ولا دليلٌ يُجَرِّمه، ولا يبدو أنّ هناك من يعرف أنّ غريباً التقى على طريقٍ قريبٍ شخصاً من بونوس أيرِس، كان يبحث عن زوجته السابقة، وصار يبحث عن أبيها لعدم عثوره عليها. شعر أنّ الاستحالة المُطلقة لأن يكون متهماً كانت تمحو الحادث بطريقة ما.

ـ 5 ـ

حضر المحاسِبُ خوليو سوارِثْ، والمعماري أبراهام بِنيتِثْ، والمحامي لوكاس ألبيني والشرطيّ المتقاعد رِناتو رينو، رجال أكوستا الثقاة الوحيدون في المنطقة في الموعد الدقيق كشهود على الارتباط. حين رآهم لوبو يدخلون معاً إلى مكتب السجل المدني عاد ليعيش فجأةً جوّ الجماعة المكوّنة منهُ نفسه ومن سِغوبيا وبيدال وماتيينثو. وشعر مرّة أخرى أنّه جزء من جمعية

بيروقراطيّة، منظّمة هذه المرّة حول شخص واحد: أكوستا. صافحه كلّ واحد من الرجال الثقاة وربت على كتفه، في وضعية الترحيب به. كانوا يتصرّفون بالطريقة ذاتها، يبتسمون بالطريقة الوسنانة ذاتها، كما لو أنّهم قضوا زمناً طويلاً معاً وما عادوا يميّزون بين آدابهم الخاصّة وبين آداب الغرباء. جميعهم، دون استثناء، لهم شوارب، وحيّوا ثِلِسْتِ بالتهذيب الخجول ذاته الذي يُخَصّ به مجنون أو أحدٌ يعرفون دقائق حياته الخاصّة. بينما كان أكوستا يخطب بالقاضي، تشجّع رينو للتحدّث بثقة مع لوبو: "حالفك الحظّ، الصغيرة كانت مُسعّرة غالياً... لقد حصلت على فرجٍ من نار". انضمَّ إليهما سوارِثْ وسأل: "هل أنت متأكّد مما ستفعل؟". استعاد رينو مظهر المحترس، فرك يديه السميكتين والمحمرّتين: "لا تنشغل، يا خوليو، أنا سأُوجّهه". "فرخ عمره أربعون سنة". ثمّ، وقبل أن يتمكّن لوبو من قولِ شيءٍ، تدخّل أكوستا من خلفهم: "هكذا، كما تريانه، كان هذا الرجلُ أكثر مفتشي بلدية بونوس أيرس مهابةً في الثمانينيات. أسد اضطُرّ لأن يأتي ويلجأ إلى باتاغونِس لأنّهم خدعوه". سادت بين الأربعة حركة احترام وانكماش. شعر لوبو بأنّهم يقدّمون له تعظيماً إجراميّاً. عندما خرج من سلسلة الارتباكات التي أحدثتها عنده تعليقات رينو وسوارِثْ وأكوستا، كان قد أصبح أمام قاضي الصلح. ظهرت ثِلِسْتِ بشكلٍ عجائبيّ إلى جانبه. تبادلا القبل بسرعة. فكّر لوبو بالأيّام التي قضاها محروماً من ذلك الجسد، متذرِّعاً بذرائع سخيفة، ملتزماً بقطع طريق من البيت إلى محل الخرداوات. سيكسر بعد ساعات طقس خطّ سيره وسيقيم في بيت أكوستا ولن يستطيع ليلاً أن يتفادى رفقة ثِلِستِ: فقد خصّص لهما الأبُ غرفةً في الطابق الأوّل من البيت. اعترف لنفسه بشيء من الخوف، شبيه بالذي أحسّ به قبل أن يعرف إستِلا.

توقيعات ضروريّة، كلمات ارتباط، وخُتم بعدها العقد. انسحبَ الحاضرون من السجل المدنيّ المُعتِم بإيقاع منهك، كما لو أنّهم يخرجون من مأتم. اقترحوا أن يذهبوا إلى محلّ حلوياتٍ في بييدما ليشربوا النخب، لكنَّ

twitter @baghdad_library

أكوستا الذي جهد كي يمرّ ولا يشعر به أحد، استبعدَ الفكرة واقترح أن يتركوا العروسين حرّين. ربّما يستطيعان بعد أسبوعين أن يقوما بشهر عسل مثالي في إيطاليا أو فرنسا. "ولا حتى لو جُننت... أنا لا أتحرّك من بيتي"، زمجرت ثِلستِ، كما تفعل دائماً حين يقترح عليها والدها شيئاً في العلن. أيضاً لم تُقنع لوبو فكرةُ السفر بعيداً. كان يُفضّل أن يبقى هناك للأبدِ مع تلك العرجاء المتمرّدة والشبقة، على أن يُخاطر ويقطع دائماً الطريقَ ذاته، أن يترك الروتين يمتصّه ويمحوه من ذاكرةِ البلدة الكسولة. راح الحظُّ يبدأ خارج مدار تأثيرات أكوستا، هذا العالم الآخر الذي اختفت فيه امرأة وابنها ولم يكن قط حقيقيّاً.

انتقل لوبو ليلةَ زواجهِ إلى بيتهِ الجديد المزعوم وهجر إلى غير رجعة أشياء ماركوز. كانت غرفة الزوجية في القسم العلوي من البيت تُطلّ على الحديقة. وضَّحَ له أكوستا أنّه في إجازة لمدّة شهر عن محل الخرداوات بمناسبة زواجه: سيتناوب الأبلهان لتغطية مسؤولياته، فيما عدا ذلك كانا تافهين، ذلك أنّ مهمّة المحاسبة، إذا ما أخذنا بالاعتبار كميّة الزبائن اليومية وحجم المال البائس الذي يُحركونه، أكثر من بسيطة.

بعد وقت قصير تلقى لوبو في غرفة العرس أوّل طلب من ثِلستِ كي يُحرّرها من مجسّاتِ أبيها: "لا أُريدك أن تعمل له. لا أريدك أن تكون مُستَخدَماً. طلبتُ منه أن يفتح لك محلاً تجاريّاً وأن نستقلّ عنه".نظر لوبو إلى الخارج، مُحاوِلاً أن يتذكّر إن كان قد ترك ـ إضافة إلى أرشيف ماركوز ـ شيئاً انتقل من شهر إلى آخر كي يكون بيته السابق. عبر النافذة الكبيرة كان يُشاهَد دغلُ كثيف من أشجار، حسن التقليم، ومحيط المنزل المسيّج وحوض سباحة بمياه راكدة وأوراق جافّة.

"متجر ماذا"؟ قال فجأةً، "البلدة صغيرة جدّاً. كلّ شيء فيها موجود".

"معك حقّ"، بدأت تتعرّى. "إذن سيكون علينا أن نذهب، قبل أن يقع أبي في الإفلاس التام، لأنّه بعد ذلك سيكون علينا أن نخرج كي نعيله".

"أنت لا تُحبّين أباك إطلاقاً...".

"ماذا؟ لو لم أكن أحبّه ما كنتُ لأنام معه".

شحب لوبو وبلع ريقه. فَكَّرَ أن يجمعَ أشياءه التي نشرها ويلقي بنفسه من النافذة مع كلّ شيء. تصوّر أكوستا محبوساً في غرفته يفرك يديه بعد أن ألقى على عاتقه هو ابنته الفاسدة.

"ابيَضَّ لونُكَ مثل ورقة. الآن بوجودك سنتدبّر أمرنا كيلا... أدركَ بابا أنّني كبرتُ".

جلس لوبو على السرير حانياً رأسَهُ بين يديه، حاول أن يتصوَّر مشهداً من المستحيل تركيبه: هي فوق أكوستا، وتساءل لماذا وقع في هذا الفخّ وكيف أنّه مُتورِّط، بعد مأساته، في قصّةِ غشيانِ محارم؟

"وماذا في ذلك... ذهبتُ يوماً إلى سرير أبي، عندما تُوفّيت أمّي. هذا ما قد تفعله أيّ ابنة صالحة. أزوره بين فينة وأخرى كيلا يُصاب بالاكتئاب. هو يريد أن أُعانقه، هكذا ينام، وإلا فإنّ من الممكن أن يقضي أيّاماً دون نوم. لا أدري ما الذي تصوّرته، يا مجنون".

فجأة خطر له أنّ هذه العرجاءَ متلاعبة: كلّ هذا الغموض فقط كي تعلِّل شعورَ الابنة تجاه أبيها الأرمل والمكتئب. وككل المعاقين، في فترات العزلة التي كان يمنحها له العَجْزُ كان يمارسه تخيّلاته ويصبّها في الواقع. تساءل عمّا إذا لم يكن ذلك الزغبُ المُفرطُ في الساقِ المريضة بقيّةً من بقايا غشيان محارم العناق غير المؤذية. أم أنّ مصدره عادة الكذب؟ وسرعان ما تلاشى حقل الحماية والرعاية المغناطيسي، الذي كان يشعر به في بيت أكوستا. كان في ذلك العالم المصنوع على قدّ مسخٍ، عرضةً للخطر أكثر مما في الخارج، حيث تحكم الأسبابُ وأعمال ُالمعروف والقوانين والعقاب.

"أإلى هذا الحد يبدو لك سيّئاً؟"

لا. إطلاقاً"، قال لوبو على الفور، كي يسايرها: "المسألة أنّني لم أعرف قط..." وخرس باحثاً عن كلماتٍ لم ينطق بها،لكنّها رنّت في عقله: "ابنة تُنوّم أباها".

twitter @baghdad_library

"شيء مضى. لم يكن عليّ أن أحكي لك هذه الترهة".

شيء مضى. كرّرها لوبو عدّة مرّاتٍ. زهرة الترّهة. وماذا لو كان بمقدور أب أن يقيم مع ابنته علاقة ناضجة، بسبب البنوّة ظاهريّاً، تنفخ فيها الرأفةُ والتضامن شبقَ الحنين، التي يُعاني منها كلُّ رجل كبير في السن، على الأقل لثوان، حين يرى مراهِقة؟ لو استطاع لغفر له. على الرغم من أنّهُ ليس هناك ما يغفره: إنّه أمام جسد جديد، لا الأب يعني له شيئاً، ولا أي شيء يعني له شيئاً، على الإطلاق. عانقها. سألته هامسة في أذنه:

"هل أنت بخير؟".

"بلى، لا تهتمّي"، أجابها لوبو وانتهى من نزع ملابسها. أثارَهُ شعورُهُ بأنّه على وشك أن يرتكب فعلاً مرضيّاً، كما لو كان في الواقع هو نفسه أبوها. وعلى الفور التقطت هي مستغربةَ الإثارةَ المرضية التي ولّدتها مسارّتُها عنده. انتابه قليلٌ من الخوف: هكذا فَقَدَ لوبو، النشيطُ، جزءاً كبيراً من سحره وعاد أربعينياً مُفكّكاً وبدائيّاً أمام عِطر جلدٍ فتيّ. وما إن أصبحا عاريين في السرير حتى توقّف يتلذّذ بتلك اليفاعة المُحرَّمة. بخلاف إستِلا، التي ترعرعت في العراء وأصبحت امرأة في الثامنة عشرة من عمرها، فإنّ ثِلستِ كانت تملك اكتناز المراهقة المقتضب ونعومتها اللعوب. دغدغها من قدميها وحتى رأسها، كما لو أنّه يقيس أطلسَ. تفحَّصَ المناطقَ التي يُظلِّلها الزغبُ: ربلة وفخذاً وعانة. انتابهُ إحساس بأنّه يلمس عصائب يتولّد تحتها بصمتٍ جلدٌ جديد، أجزاءٌ من امرأة قيد القدوم.

في هذا الوقت المستقطع، وبينما كان لوبو يدرسها مثل مُصَبِّرٍ، لم تنظر إليه ولم تُكلِّمه. في الغرفة السفلى دوّت خطواتٌ مستعجلة. مرّةً أخرى فكّر لوبو في الهرب. قال لنفسه إذا نجح في ذلك فالصعوبات أمام أكوستا للعثور عليه أقلّ من الصعوبات التي أمامه للعثور على إستِلا وإيفان. في هذه اللحظة لاحظ أنّ إستِلا ما زالت هاربة في المشهد الأرجنتيني، لأنّ ماركوز لم يبغ أن يعثر عليها وتلهّى في علامات أدنى، معجزات جانبية انتهت إلى مطّ البحث.

رجل التحرّي هذا كان قد وضع نفسه مثل جدار بينه وبين إستِلا، لم يفعل شيئاً آخر غير أنّه قاده إلى أبواب اللغز واختفى. وكلّما كان يتذكَّره كان يشعر بهِ مريباً أكثر وأكثر في كلّ مراحله: عندما كانا يتواجَدان في بار عاهرات أو يتشاطران غرفة النزل الريفي ذاتها.

كما لو أنَّ التفكير يُعيد للوبو سلبيته ومظهر المعذَّب وفي آن معاً يجسد هيئته الأربعينية المتدهورة، استرخت ثِلِسْتِ واستطاعت أن تُداعب جسد زوجها الجديد.

ـ 6 ـ

المشهد ذاته تكرَّر أسبوعاً: نُثْرُ دغدغات في السرير، استغرابٌ من الالتزامِ وفارقِ العمر. في هذه الفترة عامل لوبو أكوستا بشكل طبيعيٍّ، وتحاشى التصرفات العدوانية، كرّسَ نفسَهُ للتعوّد على البيت وعلى الرجال الأربعة الثقاة، الذين كانوا يخرجون ويدخلون في أيّة ساعة صافقين الباب، كما لو أنّهم يعيشون هناك. كان رينو هو أكثر من يتصرّف بحرّية. يُنسّق ويسهرُ على تحركات رئيسه ويتبعه عن قرب في هذه المملكة الريفية. إذا لم تخنه الذاكرة، فهو الشخص الذي كان في المطعم مع أكوستا يوم وصوله. فكّر أنّه إذا نال ثقته فسوف يستطيع أن يسألَهُ عن ماركوز. كان أكثر من يبدو بين الأربعة أنّه يُقَدِّرُهُ، وعندما يراه بالقربِ من ثِلِستِ كان يوجّه له نظرةً أبويّة. طبعاً كان يبحث عن نسج نوع من العلاقة معه، أو أنّه يعرض عليه ثقة مختلفة لم يستطِعُ بعدُ فكَّ رموزها.

twitter @baghdad_library

ذاتَ يومٍ لم يكن فيه رجالٌ ثقاة يطوفون في البيت، استعدّ لوبو كي ينتهي وللأبد من تلك الحالة المبهمة من الملاطفة التي بدأت تُعذِّبه. كانت مسألة جرأة أكثر مما هي رغبة. بعد الفرصة المضيّعة في المطبخ، صارت إمكانية التلاقي تتباعد إلى حدّ أنّهما إذا لم يأخذا بعضهما في أسبوع، لا يعود باستطاعتهما أن يتقابلا، وكانا يتعاملان كأخوَين.

اجتذبَ ثِلِسْتِ فجأة، بينما كانت تشاهد التلفزيون من السرير. انتزع عنها قميصها ورمى نفسه فوقها. لم تكن نتيجة العملية مُتَوَقّعة وآلية، مثل المرّة الأولى مع إستِلا، لكنّها كانت أقل لذّة وتعقيداً مما مع بِلِنْ. كان عملاً متقناً لم يترك أثراً لعلامة ملاطفة، كما لم يتوّج بجسدين مضفورين في قيلولة غريزية. بدأ لوبو، بعد ساعةِ صمتٍ أمام التلفزيون، ينزعج فاستغل وصولَ أحدِهِم إلى البيت كي يعتذر ويخرج من الغرفة.

أثناء نزوله الدرج التقى برينو. كان يجمع كؤوساً ويفرغ مرامِدَ سجائر في سطل القمامة. كان من الانهماك بالأعمال المنزلية بحيث أنّه لم يُعِر انتباهه لوجود لوبو، الذي تابع حركاتِهِ مستنداً إلى درابزين الدرج. وأمام صوت طقطقةٍ قام بردٍّ فعل مكهرب وأنثوي بشكل غريب واقترب منه، كما هي العادة، كرجل مستقيم، ليُصافحه ويربت على كتفه. أدرك لوبو أنّ باستطاعته أن يطرح أيّ سؤال عليه، فهو مَنْ كان مِنْ بين شركاء أكوستا جاهزاً للإجابة. لم يكن يستطيع أن يؤكّدَ أنّه شخصٌ قادرٌ على حِفظ السرّ، لكنّه من خلال طبيعته وهيئته يبدو أقرب إلى نوع الشخص، الذي ونظراً لانعدام الخيال ولبعض التعقيد بالشعور بالدونيّة المطبوع في تعبيره، كان يُردِّد كلَّ ما يسمعُهُ أو يحكونَهُ له. حاول أن يتصوّرَ ما إذا كان يستطيع أن يطلب منه أن يبحث عن مصير ماركوز، عبر أصدقائِهِ القدماء في الشرطة. كان تناول الموضوع يتطلّب لفاً ودوراناً، ومخاطر بأن يُعاقبه أكوستا إذا ما وصلته شائعات عن مصلحة غريبة وسابقة على الزواج.

من أجل هذا الطلب بدأ لوبو يتحدَّثُ عن ماضيه، عن تقلباتِهِ الغرامية، عن فصلِهِ عن العمل وعن رحلتِهِ إلى الداخل بحثاً عن إستِلا. وكما توقّع فقد

أحدثت تفاصيلُ عمله القديم كمفتّش عند رينو تفهماً أكبر. المفتشون هم، أولاً وأخيراً، في شجرة عائلةِ الوظائف سيّئة السمعة، أبناءُ عمومةٍ للشرطة. بالحكم من العناق الأخويّ الذي لم يستطيع أن يُخفف رينو منه، يتضح أنه عاش مأساةَ الهجر في لحمه، قبل زمن طويل. وككلِّ رجلٍ قبلَ أن يختار مصيره، طبعته امرأةٌ بطابعها. لولا خطيبته الأولى، التي تخلّت عنه من أجل عسكريّ، ما كان صار شرطيّاً، ولتابع دراسة الماجستير في التربية الرياضية.

"وأنت هل تعتقد أن ثِلستِ مختلفة عن بقية النساء؟".

هزّ رينو بكتفيه محمرّاً خجلاً، ومع أنّه كان يعي أنّ عليه أن يسكت، إلاّ أنّه أجابه بأنّ عليه أن يتحلّى بالصبر، فقد واجهت، بعد موتِ أمّها، مشاكل كبيرة كي تُصبِح اجتماعية. "لا تُصدّقها بشيء، إنّها مُراهِقة، اضطرّت لأن تترك المدرسةَ... أعادت الصفّ مرّات كثيرة... ولم يبغوا طردها خوفاً من أكوستا".

"في عمرها أردتُ أنا أنْ أدرسَ الطبّ"، تدخّل لوبو.

"لا أريد أن أكذب عليك، إنّه للغز أن... أن يحدث هذا الذي طالما تمناه أكوستا. أيّ واحد منّا يمكن أن يكون مكانك... أعني من ناحية العمر"، وتابعَ، دون أن يصغي لما كان يقوله لوبو، كما لو أنّه يكْمِلُ مونولوجاً داخليّاً "لا أعني أنّني أريدُ أن أُقَلِّلَ من قيمتك، فلا بدّ أنّ عندك فضيلة ما، من يُثابر ينتصر، لكن"، ولم يكن ضرورياً أن يُضيف أي شيء آخر لأنّ لوبو راح يضحك: هي المرّة الأولى التي ينتصر فيها دون أن يُثابر. ضحك رينو بدوره، لكن بحذر، كما لو أنّه بمشاركته في هذا الفعل غير المعقول من دون هدفٍ ظاهرٍ، يعرّض علاقته بأكوستا للخطر.

"في هذا البيت منذ زمن طويل لم يضحك أحد"

"يبدو أنّهم لهذا السبب اختاروني".

"ليبقَ بيننا، أجاب رينو، كما لو أنّه لم يلتقط المزحة: "لم يستطِعْ أكوستا قط أن يتجاوز موتَ زوجته وهو في وضع صعب مع العدالة. لا تقُلْ له إنّني قلتُه لك، هو نفسه سيحكي لك وسيحكي لك عن كل الدعاوى، إنّه في وضع

twitter @baghdad_library

حرج جدّاً. حجز وحظر... مثلنا جميعاً عند هذا المستوى. ألبيني أعلن إفلاسه. أكوستا يريد ولداً. لذلك عليك أن تبدأ العمل.

"أنا أنجبت ولداً"، قال لوبو ورنّ هذا في سمعه كشيء غير واقعي: لم يكن لديه ذكريات، فقط صورة مجرّدة يُحيلها إلى خيانة إستِلا.

"أظنّ أنّ حالتك لامست قلبَ أكوستا".

قال لوبو لنفسه إنّها لحظةُ الضغطِ والكلامِ عن ماركوز؛ كان رينو بلا حماية، كان واحداً من أولئك العوانس، الذين، نظراً لعدم وجود المرأة، يخترعون صداقات زائفة، مثل لوبو نفسه خلالَ سنواتِ خدمتهِ الأولى في البلديّة. وهكذا روى له باقتضاب قصّةَ وصوله إلى باتاغونِس وعلاقته بماركوز، البحث المتعثِّر والحالة الغريبة التي صار إليها بعد اختفاء صديقه في الكازينو. كان رينو يوافق على كلّ هذا. كان رينو، كما لو أنّه على علم به. عندها رأى لوبو خلاصةَ ثقةٍ مثالية، فسأله ماذا جرى لهذا الرجل في الكازينو؟ وهو ما ردَّ عليه رينو شابكاً يديه وهازّاً برأسه، بأنّه كان بالنسبة إليه لغزاً، واعترف له بأنّهُ، وبناء على طلبِ أكوستا، تابع تحرّكاته في الأيّام الأولى، إلى أن انكمش على نفسهِ في النزلِ ولم يخرج بعدها. في ليلة الكازينو كان موجوداً، لكن بما أنّ مهمّته كانت متابعته هو وليست متابعة ماركوز، فقد لاحظ غياب هذا لحظةَ كان يسير بجانب النهر. كان يتذكّر تماماً هذا المشهد، لكنّه لا يكاد يتذكّر شيئاً مما حدث داخل الكازينو. خاف للحظة أن يكون راح يجوب ضفّةَ النهر بحثاً عن لحظةٍ ومكانٍ كي ينتحر فيه. أولاً وأخيراً القصّة التي جاءت به إلى هناك كانت تستحقّ نهايةً مفاجئة. كان يعرفُ، لأنّه عمل شرطيّاً لأكثرَ من عقدٍ من الزمان، أن كلّ المصدودين في بييدما كانوا يذهبون إلى هذه الضفّة كي ينتحروا، على الرغم من أن واحداً فقط من كلِّ عشرة يُنفّذ ذلك.

"لكنّني لن أنتحر أبداً من أجلِ امرأة. لستُ من هذا النوع من الرجال"، قاطعه لوبو منزعجاً قليلاً. "هؤلاء الرجال يُحبّون أمّهاتِهم، وأنا أكره أمّي".

"هذا أفضل لنا. أنت الرجل المثاليّ بالنسبة لِأكوستا، فهو بذلك لن يكون عليك أن تتعامل مع عائلة أخرى. نحن عائلتُك الآن".

وجد لوبو نفسه أمام حقيقة مكشوفة. فهو دائماً كان يعتقد أنّه انعزاليّ جذريّ، لكن عزلته في الحقيقة لم تكن اختياراً حقيقيّاً: خلال انحداره نحو العزلة لم يكن يعتمد على إمكانيّة التمسّكِ بهذه المؤسّسة المعبودة، المسماة بالعائلة، وأمّه في الحقيقة تركته يقع كي تبقي عليه رهينةً حتى الأربعين من عمره.

"أيضاً لاحقتُك في اليوم التالي، لكنّك اختفيتَ فجأة في مدخل البلدة... هناك فقدتُ أثرَك. دائماً أتساءل أين ذهبت؟. لأكوستا نظريّته، ولي نظريّتي، لكن لم يعد هذا مهمّاً الآن، فأنت هنا"، وابتسم مربتاً على ظهره.

حاول لوبو أن يحرف اتجاهَ الحديث وطلب معروفاً بين صديقين: أن يتحقّق مما جرى لماركوز. جميع الذين رأوه ذات مرّة يتذكّرونه دائماً: كان رجلاً خارج زمانه، يكاد يكون أجنبيّاً، غريبَ الأطوار، منكسرَ النفسِ في حركاته: كان يرتدي ملابس مميّزة، متسخة وغير مكوية. ابتسم رينو وهو يرى لوبو يغيّر موضوعَ الحديث، أشعل سيجارة وهمسَ: "انتبهت إلى أنّ هذا الرجلَ كان غريبَ الأطوار". عندها قال له، وقد سحب السيجارة من فمه، أنّه لا يخلّ بواجباته إذا بحث بما جرى لماركوز. كان ممنوعاً عليه التحقيق بأيٍّ شيء يتعلَّق بالمرأةِ التي جاءت به إلى هذا التخم، لكن بالنسبة لماركوز لم يكن يجد أيّ مشكلة ويستطيع أن يتجاوز استشارة ماركوز بالقضيّة، إذا ما أبقى الاثنان على القضيّة في سرّية صارمة. فشبكة اتصالاته بالمخافر وبالمحاكم يمكن أن تمدَّهُ بأخبار بعد أيّام قليلة. "هكذا يحدّدُ مكان الناس، لم يعد هناك وجود لرجال تحرّي الشرطة. ما عاد أحد يقتفي آثاراً. "اليوم لك وغداً لي"، ومدّ يده بعلبة السجائر إلى لوبو، الذي رفضها بإيماءة عنيفة، لسببٍ ما أزعجته الطريقةُ التي افترى بها على مهنة ماركوز.

twitter @baghdad_library

-7-

بعد شهر الاستراحة ومواجهة حقيقة أنّ ثِلِسْتِ لم تكن الشابّة البائسة التي كان يظنّها، استدعى أكوستا بنزواته لوبو من جديد، كي يُشارك هذه المرّة في الاجتماعات مع المُحاسب.

أدرك خلال شهر الإجازة هذا أنّ ثِلِستِ كانت واعية تماماً لمراوغات أبيها، وتُراقب من كانوا يحيطون بها ولا تُفَوِّت فرصة كي تحصل على منافع من عرجها. كانت تُشبه إستِلا أقلّ بكثير مما ظنَّ، وهذا ما كان يشوّشه. ميّز في قدرتها على الكذب بؤرة من الطاقة الزوجية لا يمكن السيطرة عليها. كانت ما إن تبدأ بحياكة قصصها الشرهة والغامضة حتى يداخله رعب ويصرخ بها. كان لديها قدرة هائلة على أن تصير طفلة حين يغضب لوبو وعلى أن تَمْتَصّ مزاجه السيّئ، الذي يفلت من عقالهِ بشكل عام بسبب هذا النوع من الحكايات الخرافية. كانت حبكات الخيال عندها من الوضوح، بحيث يبدو أنّها تخترع أحياناً في الأَسْرِ الزوجي حياةَ ممثِّلة، فلا يستطيع لوبو بإمكانياته المحدودة والرغبة المثبطة أن يُغطّيها.

ولكي لا يمضي نهارَه يستمعُ إلى نساء مفترَضاتٍ في ثِلِسْتِ، ولا يقتلُ الوقتَ خلف طاولة عرض حانوت الخرداوات، أذعن لكلّ الاجتماعات التي برمجها له أكوستا، وأخذ على عاتقه دون أن ينبس ببنت شفة دورَ المُسخَّر "استرِح اليومَ وغداً" كان أكوستا يقول للوبو بعد كلّ اجتماع، كما لو أنّه يحدس التسمّم

البطيء الذي تحدثه حياة القرية والتعايش عند لوبو. هكذا أُعفي من الذهاب إلى حانوت الخرداوات وبدأ يتكيّف مع قدر الريف الخمول: ويسكي، قيلولة وشواء.

ما إن حضر الاجتماعَ الرابع حتى فهم لوبو أنّ أكوستا يعدُّ لعمليّة عقارية كبيرة وأنّه يعتمد على مشاركته. وكان هناك، بحسبِ المحاسبِ سوارِثْ والمعماري أبراهام بِنيتثْ، الذي كان بهتمّ بتحديدِ مكان الأراضي والبيوت المشغولة أو المهجورة، وأحياناً بإخلاء المغتصِبين أو تحريك الملكيات بدفعِ الضرائب المتأخرة، سلسلةٌ من الملكيّات التي كان سيشتريها لوبو بحكم القرابة الجديدة. كانت صفقات بين رجال ومن المناسب ألاّ تعلم ثِلِسْتِ بشيءٍ منها.

في الاجتماع الخامس، وبينما كان الآخرون يتكلّمون عن الأرقام والحيل القضائية، قرَّر لوبو دفعة واحدة أن يقبل ويسكي المساء الذي كانوا يعرضونه عليه. حاول لوبو، الغريب عن مشهد المكتب والبعيد عن رفاقيّة الرجال الوحيدين المجتمعين، مثل لاعبين حول طاولة، أن يفهمَ لماذا شبَّت ثِلِسْتِ فقط على عملٍ مثل أن تذهبَ وتعود إلى ومن بونوس أيرِس في الحافلة؟ حاول أن يتصوّر ماذا كانت تفعل في بونوس أيرِس يوم عرفها؟ ثقب صوتُ أكوستا أذنه: "هل أنت موافق يا سيلبيو؟ ابنة غومِث ماتت وورث غومِث ابنتَهُ، لم ينقل الملكية قط، هو في مأوى عجزة في بييدما، ندفع له بضعةَ أشهر ريثما يموت ويعطينا حقوقَ الوراثة وحصّته من الغنيمة".

أجاب لوبو بشكل آلي بنعم، وقال لنفسه إنّ الوقت قد تأخّر كي يسأل ماذا كانت تفعل ثِلِسْتِ في بونوس أيرِس في ذلك اليوم؟ لكن بينما كان الآخرون يصرخون ويُدخِّنون كما لو في مكتب عامّ، لم يستطع تفادي فكرة أنّه كان لها، بضمانةٍ من أكوستا، حياة موازية في المدينة. ذَيّل لوبو تحت إصرارِ ألبيني، بعد ثاني كأس من الويسكي، طلبَ إخلاءٍ لأرضٍ أخرى مُتاخمة للسابقة، اشتروها بسعر المزاد، ويُفكّرون بأن يبنوا عليها البناء المتوقف، الذي

twitter @baghdad_library

كانوا يجتمعون كلّ مساء ومنذ سنوات كي يتمّوه: جمعية حماية الرجال الوحيدين والمُساءة معاملتهم بمساعدة من البلدية وافق عليها المجلس الاستشاري في آخر جلسة له. عندها تذكّر جملة رينو: "أكوستا يريد ابناً... عليك أن تشرع بالعمل". فهم على الفور أنّ القضيّة لم تكن تتعلّق بابنٍ من ثِلستِ؛ هو نفسُه يجب أن يكون الابن الشاطر وأن يتولّى الإجراءات المأمولة.

"الأسبوع القادم ستكون قد انتقلت ملكيةُ العقار إلينا، نهدم البيت البائس الموجود فيه، تُحوّلُ البلديةُ الأرصدةَ ونبدأ ببناء مقرّ الجمعيّة... لكن، أين أغيلار؟"، سأل أكوستا مشغولاً. ألم يُخبر أحد هذا الفأر؟ علينا أن نُقدّم مخطّطاتنا... اهتُفْ لأغيلار وإذا لم تجده، اذهب وابحث عنه"، أضاف مشيراً بنظرهِ إلى سوارِثْ.

"أنا؟ قل هذا لِبنيتثْ فأنا ليس معي رقمه..."

"ماذا جرى لكم؟ هل أنتم مخصيون؟"، احتجَّ أكوستا.

"لا تُغضِبوا الرئيس"، تدخَّل رينو، "ليهتف أحدٌ منكم لأغيلار".

هتف له بِنيتِث مُكرهاً. كان واضحاً أنّه يخوضُ صراعاً شخصيّاً مع سوارِثْ. كلاهما كان عضواً في مجلس البلدية وكانا يتصارعان على انفراد، على النسبةِ وعلى الاستئثار بود وإيثار أكوستا. لا أحد غير رينو، الذي كان يميل إلى التذلّل ويُشغَفُ بأن يشعر بثقل الواجب عليه، كان يريد أن يأخذَ على عاتقه مهام ثانوية، أعمالاً قذرة أو تصرّفات لا تليق بالمنظومة، وكان كلُّ واحد في أخوية هؤلاء الرجال الوحيدين، يعزوها لنفسه.

"لا أحد يُجيب"، قال بِنيتِثْ. "كان يجب أن يكون هناك من تأكَّد..... فهو يعيش في آخر العالم"، نظر إلى سوارِث، الذي ذكّره بدوره، وهو يُسَوّي خصلاتِ شعره الجانبية التي تموّه على صلعته وينقر بأظافره على وجه الطاولة البلوري، بأنّهُ هو من نسَّقَ تفاصيلَ اللقاء.

"لا تهتمّ، أنا سأذهب وأبحث عنه"، عرض رينو نفسه.

سادت وِقْفَة، حطَّ فيها جميعُ هؤلاء الرجال، ما بين الأربعين والخمسين سنة، بلونِهم البرونزي وبلباسهم الذي يلبسون،كما يتصوّرون أنّ رجال أعمال

المدينة يفعلون، نظرتَهم المستحية على رينو. لاحظ لوبو أنّ رينو هو الوحيد الذي يرتدي طقماً داكناً، بنّياً ذهبت تقليعته. كانت الجاكت تشدُّ على كتفيه والقميصُ تنقصه أزرار، فيظهر بين الطيّات المشدودةِ على مستوى السرّة، جزءٌ من لحمٍ وزغب مفتول. وما إن انفرج المشهد وبدؤوا من جديد يناقشون حيلهم القضائية وتفاهاتهم المتعلّقة برمز البناء، حتى غمز رينو لوبو وهزّ برأسه قليلاً وحرّك بنصره المخنوق. كانت يداه بخلاف أيدي المهنيين الحاضرين، خشنتين ومن أصل فلاّحي. قَبِلَ لوبو الدعوةَ كما لو أنّ هذا التباين كان يُحزنه:

"إذا لم يكن عندي شيء آخر أعمله فسأرافق رينو...".

وافق أكوستا على الفورِ على الفكرة وصبّ لنفسه مزيداً من الويسكي؛ وطلب، قبل أن يخرجا، من رينو في حال طرح أغيلار عليه أسئلةً أن يُظهر بأنّه ليس على اطلاع على أصل الأراضي، وألا يُكلّمه عن المشروع: لم يكن أغيلار يملكُ بيسو واحداً، ومن المحتمل جدّاً أن يُطالب بمكانٍ دائم في منشآت الرابطة. إذا لم يعثرا عليه في البيت يستطيعان أن يبحثا عنه على بعدِ مئة متر في المخزن الموجود عند مخرج الطريق.

بقي رينو خلال الدقائق العشر من الرحلة صامتاً، يقود بتركيز وبطءٍ مفرط، كابحا عند كلّ المطبّات، كما لو أنّه يجهل تضاريس المكان. توقّف فجأة، تنفّس عميقاً. فكّر لوبو أنّ باستطاعةِ رينو أن يخرج مسدَّساً ويقتله بأمر من أكوستا. لكن، لماذا كان أكوستا يريد أن يتخلّص منه في هذا الوقت؟ ترى هل لأنّه ليس رجلاً وحيداً مثلهم؟ أم لأنّه لم يُقاوم تأثيرَهُ وأذعنَ لإغواءات ابنته؟

"هل تتذكّر ما تكلّمنا عنه منذ أسبوع... أنت طلبتَ منّي معروفاً، أليس صحيحاً؟".

هزّ لوبو بكتفيه وتساءل: لماذا لم يستطع أن يعتادَ هذا المنظرَ الريفي؟ وكان يشعر عند أدنى حدث غير متوقّع، بالخطر. في تلك اللحظة حطَّ طائرٌ غير معهود على غصنِ شجرةٍ كبير وعارٍ. كان ضُرَيساً بسبعة ألوان.

twitter @baghdad_library

"ألا تتذكّر؟ صديقك..."

كان لوبو قد محا المسألةَ من ذاكرته. هجوم هذه المسألة في مشهد هامشيّ جعله يفترض أنّ من الممكن أن يكون ماركوز ما زال على قيد الحياة في بيوت الصفيح هذه، بعد أن فقد ذاكرته واختارته أسرة تجبره على العمل المنزلي المقطوع.

"حسن، المزارع الذي سنراه يعرفُ كلَّ شيء. لم يكن من الممكن أن تأتي الفرصة بشكلٍ أفضل. منذ أيّام تكلّمتُ معه كي أرى كيف كانت تسير الخططُ، واستغللتُ المناسبةَ لأسأله". لوبو الذي كان ما يزال مأخوذاً بصورة الضُّرَيْس الذي وقف الآن على حافّة ناتئة من سقالة صفيح، لم يبدِ فضولاً.

"اللغزُ حُلَّ. هل سمعتني؟".

"ماذا؟"، في هذه اللحظة طار الضُرَيْسُ ذو الألوان السبعة. كانت الشمسُ تسقط على صفيح السقف بكثافة ماحقة وتُغطي هذا المنظر القاحل. عندها كشفَ له رينو أنّ ماركوز حيّ. أغيلار آوى عنده منذ أشهر، بعد حادث الكازينو، شخصاً يلتقي في أكثر من نقطة مع أوصاف رجل التحرّي ذاك. هذا ما قالته لي الشرطة. الشرطة نفسها شفطتهُ".

"هل ربح أكثر من اللازم؟".

"لا أدري. تلقت الشرطة أمراً من السلطات العليا وسلّمته لشخصٍ خاصّ". أقلعت السيارة. وبينما كانت تتقدّم في الشوارع المليئة بالحفرِ والمطبّات بسرعةِ سيارةِ أجرةٍ عادية تبحثُ عن راكب، طمأنَهُ بأنّ ماركوز بعيدٌ الآن وفي أمان. الفكرة الممجوجة أكثر من اللازم والقائلة بأنّ رجلاً وحيداً يتدبّر أمره دائماً كي يبقى حيّاً، هي التي قادت رينو إلى أن يجد نفسه مُجبراً على ذكر حالته: هو نفسه، ككل أفراد المجموعة، كان رجلاً مُساءة معاملته ومهجوراً. هجرته زوجته التي كانت حاملاً قبل عشرين سنة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد ليتزوّج. كان يعتبرُ الريف ومن أسوأ حتى من حالة بِنيتِثْ، الذي انتحرت زوجته ملقية بنفسها على سكّة القطار، ومن حالة ألبيني، الذي لم يملك زوجة

قط، فماذا يقول عن حالتهِ، التي لا تعدو أن تكون حالة عادية في المدينة؟ الهجر في الريف ومن دون سبب لا يعدو أن يكون عادياً جدّاً في المدينة، والرجل المهجور في المجتمعات المغلقة والثرثارة يعيش مُلَطَّخاً بشرفه إلى الأبد. بينما تدخلُ الضحيّةُ في المدينة النسيانَ بمجرّد أن يُبَدِّل المرتكب منطقةَ سكنه أو بنائه. حكى له رينو أنّ السنواتِ العشر اللاحقة على الفاجعة كانت الأسوأ في حياته. كان يبدو أنّ كلَّ العالم عندما كانوا ينظرون إليه يريدون أن يُذَكّروه بفاجعته. لكنّه تعرّف بعدها على أكوستا، الرجل المختلف وذو القلب الكبير، الذي ما إن تُوفّيت زوجته حتى شرع يجمع الرجال اليتامى عاطفياً، المهجورين والمُساءة معاملتهم، الذين شكّلوا أسرة مكرّسة للتجارة والسيطرة ببطء على باتاغونِس.

"لكن، ألم تبحث عنها أبداً؟".

"لم يكن ضرورياً... فسرعان ما وصلتني أخبارها، ذهبتْ إلى بييدما. هجرتني من أجل عسكريّ بائس. كان الشرطي يركبها، فقدت الجنين، اشتكت على العسكريّ فاضطرت لأن تترك بييدما، والآن هي متزوّجة من فلاّح في خُونين. لم تتصل بي قط. أبداً. ولا حتى كي تقول لي إنّني أبوه. لكن وبما أنّ كلَّ شيء يُعرَفُ في القرى..."

"والعسكري؟". تقاعد بعد سنتين، كان مرشّحاً لمجلس المقاطعة مع عودة بيرون، لكنّه ظهر قبل الانتخابات مدروزاً بالرصاص".

اكتئاب مفاجئ أرخى بظله على لوبو: كان محتبلاً في الشبكة التي حاكتها هذه المجموعة من الرجالِ المنعزلين والملاحقين من قبل العدالة التي استنفدوها خلال سنوات. كان الضحيّة التي كانوا ينتظرونها. ضحية متقنّعة بقناعِ دلفين، كان قد وصل سليلُ ووريثُ هذه المجموعة من المحتالين إلى البلدة متتبعاً أثرَ امرأةٍ ما عادت موجودةً. وعندما استفاق من شروده سأل لكي يكسب الوقت:

"إذن وحده أكوستا أنجب أولاداً؟".

twitter @baghdad_library

"مجازيّاً، بلى" أجاب رينو وصفَّ السيّارةَ في زاويةٍ متواضعة جدّاً. على بعد أمتار كان يُشاهَدُ طريق مقاطعة تمرّ عليه سيّارات كالأشباح، وشرارات خفيفة يمكن أن تكون ناتجة عن الإسفلت أو الريح التي كانت تجرف غباراً ثخيناً. تساءل لوبو عمّا إذا قد رغب ذات مرّة أن يكون له ولد. إيفان جاء كعنصر من العناصر في برنامج العائلة، لكنّه لم يكن بالنسبة إليه قط كائناً حيّاً. من تلك اللحظة، لحظةِ كونه ربّ عائلة، إلى لحظةِ تعيينه سليلَ حركةِ رجال مُساءة معاملتهم، كان هناك مرحلة انتقالٍ لم يُفكر بها، خطأ في الحساب عليه أن يقبله مثل يتيم يقبل بيتاً جديداً.

هبط رينو من السيّارة وصفّقَ بكفّيه أمام بناء متواضع، نافذته الوحيدة مُغلَقة. وتلّصص على الداخل من خلال الشقوق الموجودة في باب الصفيح. بالفعل لم يكن المزارع أغيلار في البيت. تابعا في السيارة عبر الطريق العام إلى أن وصلا إلى المخزنِ عند مخرج البلدة. في الطريق تعرّف لوبو مستغرباً على المكان الذي أقلّته منه الشيفروليت البرتقالية قبل أشهر. قال لنفسه إنّه في هذه النقطة بدأ يُصبح فيها رجلاً آخر. هناك انعطف الانعطافةَ الحقيقيّة، في حياتهِ وهناك أيضاً طلّق إستِلا وإيفان للأبد.

على بعد مئة مترٍ من المفرق كان أغيلار يجلس أمام باب المخزن، يشدّ بيدٍ على كأسٍ وبأخرى يداعب رأس كلب رعوي ألماني عجوز، له أذنان مقضومتان ووركان هابطان، يبدو كأنّه يتنفّس موصولاً بيد صاحبه. كان للرجل، كما لو أنّه جالس بالوضعية ذاتها منذ ساعاتٍ، المظهرُ المسطّح الذي يتخذه في القرى من يكرسون نفسهم لقتل الوقت بالكحول. كان في نظرته طيبة مفرطة. يتكلّم مع الجميع عن الشيء ذاته، عن إشاعة أو خبر قرأه في الصحيفة المحلّية. عندما هجرته زوجته دخل في تدهورٍ قاس ومرَّ بعدّةِ أمراض، كثيراً ما بالغ بها وزاد أحياناً من خطورتها التشخيصُ السيّئ. كان قد يئس منذ بعض الوقت من أمكانية الشفاء من أيٍّ من الأمراض التي كان يشكو منها. راح يستعيد عافيته، شيئاً فشيئاً من دون أن يتدخّل الطبّ في ذلك: أولاً تراجع

السكّر، تلاهُ الصرعُ وأخيراً التشنجات. صار بعد أن استبعد الحلّ الطبّي، رجلاً قادراً على الاستمتاع بكلّ تجاوزات القداسةِ تلكَ التي تمنحُها الرذيلةُ للمرضى.

لم يكن هناك حاجة للتعارف، فأيّ رجلٍ، غريباً كان أو لا، كان يكتسي بالنسبة لغريزة أغيلار الكلبية نوعاً من الألفة. كان قد بدأ، قبلَ أن يستطيعَ رينو أن يقول شيئاً حول المخطّطات، قصّةَ هجره وأمراضه. فقدت القصّةُ مع مرور الزمن ميزاتها الدقيقة وصار أغيلار، الضجْران قليلاً، يُحاول اختصارها، على الرغم من أنّه كان يغوصُ في مجرّةٍ من الصور الثانوية كي يصل إلى المهمّ: انتصاره البطولي على شبكة من الأمراض التي أُسيء تشخيصُها. استغلّ رينو هذه اللحظة، التي انتقل فيها ليصف عواطفه ويغوصَ في مونولوج مليء بالإيماءات، كي يتدخَّل:

"عليك أن تُجهّز المخططات، هل تتذَكَّر؟".

"كيف لن أتذكّر... الشيء الوحيد الذي أفعله هو تذكّر الأشياء. بقيتُ طيلة الصباح وأنا أعمل في هذا. أخذت نفساً. هل هناك مشكلة في أن يرتاح هذا العجوز المسكين؟".

"أبداً. لكنّنا بحاجة لأن تأتي بالمخططات إلى الاجتماع. نحن بانتظارك منذ ساعتين".

"حسن، قدح آخر"، وضع إصبعاً على شفتيه، كما لو أنّه يُقسمُ ويُقسمُ بأغلظِ الأيمان على شيء، وابتسم وحده. رفع من جانب الكرسيّ زجاجةَ نبيذ شبه فارغة. ملأ القدح وقال: "لا أعرض عليكما لأنّه لم يبقَ شيء... لكن في البيت".

"لا تهتمّ" أجابه رينو وغمز لوبو بعينه: "إذا غيّرنا الموضوع، هل تتذكّر أنّنا تكلّمنا منذ بضعةِ أيّامٍ عن ذلك الرجل الذي وجدته هنا..؟" وأشار إلى الطريق

"كيف لن أتذكّر؟ كان مُكسَّراً، ثيابه كلّها دم، شقّان في وجهه ورضوض ورأسه. وضعناه أنا ودون هيلاريو في عمق المخزن وبقينا نداويه قرابة الأسبوع. أسبوع، لا أكذب، وحرارته أربعون درجة". فكّرا باستدعاء الشرطة، لكن ولكي لا يدخلا في مشاكل استغلا خبرةَ دون هيلاريو، صاحب المخزن،

twitter @baghdad_library

الذي عمل قبل خمسين عاماً في المعركة خلال الحرب الأهليّة الإسبانية ممرّضاً إلى جانب الجمهوريين. وجدا، بعد عشرة أيّام من العناية والمعالجة، أنّهُ استعاد عافيته، فنصحاه بأن يذهب أبعدَ ما يستطيع. رافقه دو هيلاريو إلى المحطّة، حيث صعد ماركوز إلى الحافلة دون أن يبدي أيّ امتنان، واعداً ألا يعود أبداً ليطأ أرض "بلدة الخراء تلك". أتى أغيلار على ما تبقّى في القدحِ بجرعة واحدة. تنهّد، نظر إلى الرجلين بإصرارٍ، كما لو أنه ينتظر أن يُساعداه على النهوض، وقال: "هذا كلّ شيء، هل نذهب؟".

سأله لوبو، قبل أن تفوتَهُ الفرصةُ، عمّا إذا كان لا يتذكّر أكثر من ذلك، وعمّا إذا كان الناقِهُ لم يَقُلْ شيئاً في أيّام الحمّى. شغّل أغيلار ذاكرتَهُ. وبعد بضع ثوانٍ عاد، كما لو أنّه غير قادر على النسيان، ليتكلّم.كانت، بحسبه، موضوعاتُ منولوجاته في الحمّى المتكرّرة أربعةً: الاختطاف، التعذيب، أرقام الروليت، نتائج سباق الخيل، ومعلومات غير مترابطة عن حياة امرأة تُدعى إستِلا. كان يتذكّر إضافةً إلى ذلك استطرادات مختلفة من ماركوز: أن هذه المرأة تعيشُ الآن في الجنوب؛ تحمل معها ابناً مسروقاً ؛ لذلك سيكون العثور عليها سهلاً جدّاً. شحذ أغيلار ذاكرته أكثر وقال إنَّ المدينة الأكثر تردّداً على لسان الرجل المسكين كانت كومودورا ريبادابيا. أضاف في تداعٍ من تلك التداعيات التي يرتجلها السكارى المقتنعين بعبقريّتهم: "بالضبط إلى المكان الذي ذهب إليه عندما تركناه في المحطّة. كان عليّ ألا أتركه يذهب".

انكمش لوبو عند سماعِهِ هذه الكلمات. كان واثقاً من أنّه إذا كان ماركوز قادراً على أن يثير عند الجميع العطف، فهذا لا يعود إلى موهبة عنده ولا إلى صدعٍ في طبيعته، بل إلى ممارسته المُتكرّرة للانحراف: حسن سلوك التواطؤ، الذي يمطّ حياة المنعزلين مقدّماً لهم شهوداً مُطيعين.

في السيارة، في الطريق إلى الاجتماع، حدّد أغيلار تفاصيل عن حمّى ماركوز، وجوده في عمق المخزن، الصفعة التي تلقاها في البرّية. وبحسب هذه الرواية فإنّ المسكين ماركوز كان قد خُطف من قبل الشرطة، في أوج نجاحه

في الكازينو، الذي كان على وشك الإفلاس، ومن دون أن يستطيع أن يُبدّل فيشه، سلّم في ذلك الفجر ذاته لرجل كان ينتظره في المخفر. نُقل بعدها إلى غرفة. هناك انهالوا عليه بالضرب وسرقوا نقوده التي تبقّت معه، وقالوا له أن يعود إلى بونوس أيرس إذا كان لا يريد أن يعود في المرّة القادمة في تابوت. بعد ساعات رُمي من سيارة أثناء سيرها، شيفروليت برتقالية تعود لرجلٍ عاد إلى أملاكه قبل ما يقارب السنتين: إرنِستو دوران. شهد أغيلار وهيلاريو الجسد الثقيل يسقط على الإسفلت. لا شيء في تدحرجه كان يدلّ على أنّه كان حيّاً: ما من ردّ فعل لتخفيف الصدمة. وحين ابتعدت السيّارة اقتربا. في تلك اللحظة كانت الضحيّة تكلّم نفسها.

في أفق لوبو انهارت فكرةُ الحياة الجديدة. بمجرّد الشكّ بأنّه قتل والد إستِلا عادت هذه المرأة لتحضر كما هي وإيفان على كاهلها. شعر مرّة أخرى بأنّه رجل مهجور أمام ما هو حيّ بشكل هائل في امرأة أحبّها ذات مرّة. أثار غضبه إمكانية أن يجوب ماركوز بهيئته الواهنة باتاغونيا من أقصاها إلى أقصاها ويعثر بالمصادفة عليها في بار مرفأ، تعمل نادلة، ويعودَ إلى باتاغونِسْ بصور تظهر فيها امرأة عجفاء وطفل عمره سنة بين ذراعيها. وحده من يُفكّر بثِلِستِ. كما لو أنّ جميع النساء اختلطن في واحدة، مثلت له إستِلا، ثم وفي صورة أخيرة بِلِت. بِلِن... ما زال يتذكّر هاتفها. لو أنّه في بونوس أيرس للاذ في شقّتها. حاول أن يفهم لماذا لم يفعل هذا منذ البداية. أولاً وأخيراً كلّ ما يحيط به في هذه البلدة يولّدُ عنده نفور أكبر من الكهف الذي كانت تعيش فيه بِلِن. سلسلة الأحداث التي قادته لأنّ يصبح ممثلاً صورياً لأكوستا كانت حماقة. وحده من لا حماية له يمكن أن يشارك في هذا الكابوس من الرجال الانعزاليين المنعزلين، المجتمعين حول عيوب القانون. التآمر من دون النساء يقود إلى النصب. طرح على نفسه إمكانية الهرب، لكن وقوعه مرّة ثانية في يد ماركوز كان أسوأ من البقاء مع هذا الخماسيّ الكاره للنساء، الذي لو كان قبل سنوات لوافقه تماماً. بدا له منطقيّاً أن يكون أكوستا قد أنجب ابنة عرجاء وترمّل مبّكراً إلى هذه الحدّ. نصحه رينو كما لو أنّه يُرافق تفكيره، أن

twitter @baghdad_library

يعتبرها بحكم المفقودة. "إذا لم تتركها تموت الآن فلن تموت أبداً. تُؤبِّد. إنّها نصيحة من صديق. دائماً نتكلّم مع أكوستا عن الشيء ذاته. هو ينصح بقتلهنّ. إذا بقي عندك شيء منها: خاتم أو أيّ شيء فارمِه، ارمه في النار. يجب ألاّ يبقى أيّ أثر منها. يكمنُ أحياناً في الأشياء أخطرُ أثرٍ، وإلاّ فإنَّ الحزن سيحتُّك. هل تفهم؟، اللهمّ إلاّ إذا أردت أن تصبح بطل أغنية تانغو".

تنفَّس أكوستا وألبيني وسوارِث وبِنيتِثْ الصعداء عندما رأوا أغيلار يدخل مع المخطّطات. وبينما كانوا يتكلّمون كان لوبو ساهياً يُحاول أن يُفكّر بأفضل طريقة للهرب دون مخاطرة. الطريقة الوحيدة هي أن يخرج كما لو أنّ شيئاً لا يحدث ولا يعود. كان رينو ينظرُ إليه باهتمام. وكان يقوم بجهد خارق كي يقرأ أفكاره. حاول لوبو أن يسيطر على خبب خيالاته، كما لو أنّ الآخر، وهو يشاطره الظرف ذاته بالنسبة للجنس الأنثوي، يستطيع بالفعل أن يلتقط خططه بمجرّد أن يقرأ خارطة تعابير وجهه.

ـ 8 ـ

قرّرَ لوبو بعد أسبوعين تماماً من اكتشافهِ أنّه قاتلُ أبي إستِلا أن يهجر الحياةَ الزوجيةَ ويغلق صفحة حياته الجديدة. ولكي يبعد عنهُ الشكوكَ، بعد ذلك اللقاء مع أغيلار، لم يعد يذكر موضوعَ إستِلا أمام رينو ولا أيّ شخصٍ آخر. فجأة بدا له أنّ عليه، إذا كان يريدُ أن يكون حرّاً ألا يثق برينو ثقةً تامّة.

في هذين الأسبوعين اللذين جهّز فيهما نفسَهُ ذهنيّاً للهرب، تبع كلّ إرشاداتِ أكوستا، وفي الوثائق تصدّر الجمعية التي كانوا يشيدونها: "جمعية حماية الرجال الوحيدين والمُساءة معاملتهم". أنجزوا الإخلاءات التي حرّكها لوبو أمام العدالة المحلّية. شارك كمدعوٍّ أساسيّ في اجتماعاتٍ مسائية مُخضّلةٍ

بالويسكي والزيتون والجامبو والسلامي ومكعبات الجبن الصغيرة، بل وأشرف على مهمات تيتو وسَلومون في حفلِ شواءٍ مكرّس للاحتفال بولادة الجمعية. وبفضل فعاليته وإذعانه لم يُثِرْ حتى شكوك رينو، الذي وجد بحجة صداقته الطريقة لمراقبة كلِّ حركاته. كان دون شكّ بالنسبة إلى هذا اللفيف من الرجال الوحيدين البيدقَ الذي يوشك أن يُتوَّج.

أخرج في اليوم السابق على هربه رزمَ الدولارات التي كان قد خبّأها في الجوارب: بهذا المبلغ يستطيع أن يجوب باتاغونيا من أقصاها إلى أقصاها. وسيقع في لحظة ما على إستِلا أو ماركوز. درس إمكانية أن يأخذ معه ثِلِسْتِ. فكّر بأنَّ وجود امرأة يمكن أن يجرح مشاعر إستِلا ويحصرها في زاوية الندم المتأخّر. قدَّر مخاطرَ أن يقترح عليها الهرب ويتلقى الرفض، ويبقى بالتالي عرضةً لوشاية تطيل إقامته الجبرية في باتاغونِسْ. ستنحدر حالته بشكل شديد، سيكون عليه أن يعود إلى الكازينو حيث ترك أشياء ماركوز وينتقل للقيام بأعمال الأجير والشوّاء.

خرج يومَ أحدٍ فجراً بعد حفل شواءٍ بينما الجميع نائمون سكارى. في الشارع بعض الكلاب الهجينة وضباب رمادي كثيف. كان النهر يبدو خلفَ الضباب من حجارة. سار نحو المحطّة ومعه كيس فيه النقود وبعض الغيارات. كان الطريق المبلّل بالرذاذ يمتصّ وقعَ خطواته. ومع ذلك لم يتوقّف شعورُهُ بالوحدة وجحيمُهُ الشخصيّ عن تضخيم صوتِ خطواته: كان يسير كما لو أنّه يتنقل في مطبخِ بيتٍ الجميع فيه نيام. في هذا السكون الذي يُسمع فيه حفيفُ ورقة سمع لوبو خلفه خطواتٍ كانت تزداد. أسرعَ، وبدل أن يلتفتَ انعطفَ إلى اليمن عند أوّل زاوية. ربّما كان الأمر يتعلّقُ بأحدٍ مستعجل في الفجر. عند منتصف المسافة لاحظ أنّ الخطوات خلفه صارت ملحاحة. عاد وانعطف، شعر أنّه بالسير بسرعة كبيرة، بما يشبه الخببَ، صار بينه وبين تلك الخطوات التي بلا جسم مسافة ضوئيّة. الآن لا يكاد يسمعُ خطواتٍ مكشوطةً، وصار يُمَيِّزُ محطة الحافلات، التي ستُخْرِجُهُ من هذا الجحيم.

twitter @baghdad_library

إلى أين أنت ذاهب، يا ابن العاهرة؟ خذني معك" صاحت امرأةٌ من بعيد. سرعان ما انكسر الصوت مجهشاً. توقّف لوبو جامداً. ماذا لو كانت إستِلا وقد لاحقته طيلة هذا الوقت؟ يا للسخرية الكبرى! تأخّر برهة طويلة حتى اكتشف أنّ الأمر يتعلّق بثِلِستِ. "العرجاء، ابنة العاهرة"، فكّر، وعلى الفور استنتج أنّه لم يبق أمامه من خيار إلا أن يضعها إلى جانبه، يحملها معه وربّما يهجرها في الطريق كي يتخلّص من تحرّيات أكوستا الوحشيّة من خلال رينو، والتي سيأمر بها عندما يكتشف أنّ ابنته الوحيدة وآسر قلبها، ومُسَخِّره وأسيره الجديد، قد هربا معاً.

-9-

لو لم يترك نفسَهُ ينقادُ باندفاع أعمى، لو لم يشترِ بطاقتين لأوّلِ حافلة يمكن أن تخرجهما من باتاغونِس، لكان من المحتمل أن تعثر عليهما عائلة أكوستا. لو ترك سيلبيو لوبو نفسه ينجرّ وراء خيالاته للبحث عن إستِلا في باتاغونيا، لكانت شرطة ريّو نِغرو ألقت القبضَ عليه. استنفرَ رينو جميعَ علاقاته بالشرطة في هذه المقاطعة ولذهب إلى الجنوب؛ ولراح أكوستا، بعد ثلاثة أشهر من عدم تحقيق أيّ نتيجة، يحلّ شخصيّاً عقدَ جريمتي كاردينال كاغْلِيْرو، واثقاً من أنّ تعاون شرطةِ بونوس أيرسْ، إذا كان الهاربُ مجرماً وليس شخصاً هرب مع ابنة شخصٍ قرويّ مهمٍّ، سيكون مختلفاً. فكّر، في ضوء هذاأكثر من مرّة، أنّه كان عليه أن يفكّ عقد التحقيق، وأنّ الثقة بفطنة رينو واتصالاته لم تفعل شيئاً آخر غير أنّها منحت الهاربين راحة. على ضوء هذا الوقت، وخلال ثلاثة أشهر كاملة، امّحى أثر هذين الشخصين اللذين اعتقد

دائماً أنّهما أبلهان، وهو ما جعلهما يشكلان زوجين تامّين. ومع اختفاء الأثر اختفت أيضاً كلّ أعمال الخير التي كانت تتطلّب توقيعَ لوبو.

بعد مرور عامٍ دون أثر للزوجين وتخلّي الشرطة عن التعاون معه، افتتح أكوستا في بيته ذاته جمعيةَ الحماية، وأعلن نفسه مديراً ومؤسِّساً ومنتفعاً وأوّل قاطنٍ فيها. بعد ستّة أشهر انتهت الأعمالُ في الأراضي التي وضعها باسم صهره السابق، وعلى الرغم من بعض المعوقات القانونيّة حوّل المكانَ إلى مقرّ إقامة الجمعية ـ التي انتقل مقرّها الإداري إلى الطابق الأرضي من بيته ذاته ـ الرجال أنفسهم الذين دعموا منذ سنوات أعماله التجارية، سوارِثْ ورينو وأليبيني وبِنيتِثْ، أعلن عنهم أعضاء في الحركة، المسجلة أمام القضاء باسم: الجمعية الاجتماعية لحماية الرجل الوحيد والمُساءة معاملته. كان بيته في كلّ مساء يستقبل مثل نادٍ اجتماعيّ رجالاً متذمرين، بدؤوا يتدفقون ليس فقط من بييدما وباتاغونِسْ بل ومن باهيّا بلانكا، ثيبُّوليتي، سانتا روسا دِ لا بامبا بل وحتى من بونوس أيرِسْ. كانت غالبيّتهم تقضي ليلةً أو ليلتين في مقر الإقامة. كي يحضروا اجتماعات الدعم والعشاءات العلاجيّة التي كان يرتّبها أكوستا بتعريفة متواضعة، ويديرها بمكبّر الصوت في يده من فوق منصّة.

وصل لوبو وثِلستِ إلى قرية أشباحٍ في لا بامبا، يومَ هروبهما ذاته. نزلا في نزل القرية الوحيد، المماثل لنزل باتاغونِس. بعد يومين، وبعد اتفاقهما وعقدهما عهدَ حبٍّ، يلتزمان بموجبه، في حال انفصالهما، بألاّ يعود أيٌّ منهما إلى باتاغونِس ولا يشي بالآخر، تحرّكا من جديد دون وجهة محدّدة. هكذا عاشا من بلدة إلى أخرى ستّةَ أشهرٍ يتقدّمان ويتراجعان بالدولارات التي ادخرها لوبو من بيع بيته. لو أنَّ أحداً اهتمّ بأن يُعَلِّم على الخريطةِ خطَّ سيرِ الزوجين لاكتشف أنّه لم يكن في هربِهما أي شيء من السليقة ولا من العالمِ وحيدِ الاتجاه، وأنّهما كلّما مرّ زمن أكثر كلّما كانا أقرب إلى نقطة انطلاقهما. توقّفا مرّة أخرى في مقاطعة بونوس أيرِسْ، بعد أن عبرا كويو، ووطئا سالتا ونزلا إلى قرطبة عبوراً. ناما في تَنديل. فكّرا أن جبال بونوس أيرِسْ كانت المكان

twitter @baghdad_library

المثاليَّ للشروع بحياةٍ جديدةٍ. بحثا عن قريةٍ نائية، العقاراتُ فيها رخيصة جدّاً. تصوّرا أنَّ مطعماً أو متجراً سيطعمهما.

-10-

ما إن استقرّا وكسبا ثقةَ سكان سان مانوِل الألف حتى قرَّر لوبو سيلبيو العودةَ إلى بونوس أيْرِسْ كي يستعيد المال الذي أودعه في صندوق الأمانات، وأن يرى أخيراً من كان يظنُّ أنّها صانعة مأساته: دورا.

لم يخطر له خلال وجوده أن يهتفَ لماركوز ويتحقّقَ مما إذا كان ما يزال حيّاً. لو فعل لاختلفت سنوات عمره الثماني عشرة اللاحقة. لكنه عانى من انتكاسة، ومضى مرّة أخرى إلى جانب تابعه باتجاه مكان ما من باتاغونيا.

نزل في فندقٍ في جادّة مايو، هو عينه الذي قضى فيه قبل سنتين آخرَ يومٍ له في بونوس أيرِسْ، حين صادفَ، في طريقهِ إلى محطّة رتيرو، بيدال. ذهب إلى بيت أمّه. بحسب شهادة البوّابِ، الرجل البغيض الذي كان يجمع الشائعات ويعيدها مبَدَّلةً إلى ممرات البناء. كانت دونيا دورا قد باعت شقّتها وأهدت وباعت بالمزاد كلّ الأثاث والقدور والمقالي، ودخلت بكامل المبلغ مأوى للعجزة، كي تلقى عنايةً ورعايةً لم تمنحهما لها عائلتها. كفى لوبو سماع هذا كي يعودَ أدراجَهُ ويأخذ الشارع في طريقه إلى المصرف. تصوّر أمَّهُ مبشومةً بمجموعة من المهدئات، وقال لنفسه إنّها تستحق نهاية شؤمٍ ومُخدّرات من هذا النوع.

في الطريق أجرى حساباتٍ واستنتج أنّه لا يمكن لدورا أن يكون لديها حساب باسمها، وتوصّل إلى خلاصة مفادها أنّها كانت بائسة، فهي إضافة إلى

أنّها جرّدته من ابنه، وجدت طريقة سريعةً لتحرمه من القليل الذي تركه والده.

أغلق صندوق الأمانات في المصرف وعاد إلى فندقه بكلّ النقود. وبما أنّه لم يكن عنده ما يؤخّره في بونوس أيرِسْ فقد قرّر أن يأخذ حافلة العودة في محطّة رتيرو. تمدّد على السرير ثم استيقظ بعد أن استسلم لقيلولة قصيرة وهو يُفكّر ببِلِن. كانت الأثر السعيد الوحيد الباقي من حياته السابقة. وجاء قراره بعدم رؤيتها غامضاً تماماً، مثل دخول أمّه في مأوى عجزة. لم يفهم لماذا تخلّى عن بِلِن بعد قليل من اختفاء إستِلا، على الرغم من أنّه لو فكَّرَ جيّداً لوجد أنّ من المنطقيّ أن تبدوَا له جزأين من امرأة واحدة. شغّل ذاكرته فخطرت برأسه عدّة أرقام هواتف، كانت جميعها خاطئة. خبّأ النقودَ تحت السرير وخرج نحو شقّتها، كما لو أنّ عدم تذكّره رقم هاتفها يؤكّدُ واجبَ البحث عنها.

كان يحفظ في ذاكرته اسمَ الشارع وواجهةَ البناء، لكن ليس مكان البناء من الشارع ولا تقاطعاته. جاب شارع غايّو بين شارعي كورّيينتِسْ وقرطبة على جانبي يديه إلى أن تعرَّف في نهاية مسيره، تماماً أمام النقطة التي كان قد بدأ منها، علىبهوهِ الذي بلا هويّة ومغطى بفسيفساء هائلة ومرايا، ونبتة زينة اصطناعية وجدران رمادية ومدخل زجاجي مع إطار من الصفيح الأخضر. خمسة عشر طابقاً، وبما أنّ جميع شققها كانت مؤلفة من غرفة أو غرفتين فقد كان في كلّ طابق ما بين الستة والعشر وحدات وظيفية. ظنّ لوبو أنّه يتذكّر أنّ شقّة بِلِن كانت K. زريبة في الجهة المقابلة من نهاية ممرّ طويلٍ تفوح منه رائحة شحم المصعد التقليدية والشمع والقمامة المسحوقة بفوهة محرق له حياته الخاصّة بين كلّ طابقين. من بين الطوابق الخمسة عشر كان هناك عشرة فيها شقة K. الغريب أنّه لم يكن عنده فكرة عمّا إذا كانت تعيش في طابق مرتفع أو منخفض، وما إذا كان خط سير المصعد طويلاً أم قصيراً. قرع الجرس، يتذكّر فعلاً أنّه لم يكن ينظر إلى نفسه في المرآة بسبب عادة اكتسبها في طفولته، وأن الرحلة في المصعد كانت طويلة بما يكفي كيلا

twitter @baghdad_library

يختار أبداً خلال كلّ زياراته أن يصعد عبرَ الدرج. قرع جرس الشقّةK الطابق الثالث فلم يردّ عليه أحدٌ. جرَّب K الرابع، فردَّ عليه رجلٌ طاعن في السنّ بصوتٍ حانِقٍ، أنّه لا تعيشُ هناك أيّ امرأة. في الطابق الخامس ردّت عليه طفلةٌ. في السادس ردّت عليه امرأة شابّة، كان من الممكن أن تكون بِلِن، بأنّه ما من أحد يعيش هناك بهذا الاسم، وكانت لا تريد أن تفتح له. وهنا راجع لوبو صحّةَ أن يكونَ حرف الشقّة K. ربّما كانت F أو G اللذين عادة ما تسمى بهما الشقق الصُّغَيَّرة في الجهة المقابلة. رأى امرأتين تخرجان من مصعد. وبما أنّه كثيراً ما كانت تزعجه فكرة أن يخلطوا بينه وبين لصٍّ مترصّد، تنحّى جانباً كيلا يعيق طريقهما ونظر إلى الممر الأمامي متظاهراً بالشرود. فُتِحَ البابُ بصرير لا لبس فيه بالنسبة للوبو. فقد تلذّذ شهوراً في الاستقبالِ وفي الوداع، بهذا الصوت، حين كان مع بِلِن، وبقي بعد ثلاث سنوات على حاله، ربّما لانعدام الصيانة، في الحقيقة كأثرٍ عاطفيّ.

غادرت المرأتان البناءَ دون أن تتوقّفا عند لوبو. ذهبت العجوزُ يميناً وذهبت الشابّة يساراً. تأخّر لوبو أكثر من عشر ثوان في ردّ فعله وربط بين ظهرِ تلك الشابّة، ناتئِ العظام، وظهر بِلِن. همّ بأن يلحق بها. لم يرها قط تسير خارج شقّتها في الهواء الطلق. بدا لمن ينظر إليه أنه يشهد مشهداً عجائبياً لحيوانٍ ضارٍ حُبس طويلاً في قفص ويعود الآن إلى وسطه الطبيعي. لاحظَ بعد كتلة أبنية أنّ هذا يهمّه أكثر: أن ينظر إليها من الخلف، أن يستمتع بكتفيها التامّين وخطواتها المستعجلة، أكثر من أن يدركها ويتكلّم معها. لم يكن قد فكّر بما سيقول لها ولا بالطريقة التي سيتصنّع بها لقاء عرضيّاً. ثمَّ إنّه سيتعرّض للتأكّد من أنّها لا تحتفظ بأيّ ذكرى عنه. لا بدّ أن يكون قد مرّ في حياتها في تلك السنوات الأخيرة من الرجال ما لا يجعلها تميّزه.

توقَّفت بِلِنْ في زاوية لتتكلّم بالهاتف. توقَّفت عيناها القلقتان لثانية على لوبو، بينما كانت تضغط السمّاعة على أذنها وتسدّ باليد الطليقة الأذن الأخرى. بقي هو ساكناً وعملَ جهدَهُ كي يشعر أنّه ينصهر في منظر المدينة. بدا أنّ حوار الهاتفِ راح يمحو سجلّ الواقع المباشر. عبرَ لوبو الشارعَ وجلس

على مقعدِ أحد محلات المثلجات. تساءل عمّا إذا كانت تلك المرأة هي نفسها التي عرفها: فعلى الرغم من أنّها لم تشِخ، وأنّ وشومها بقيت على حالها، إلاّ أنّها كانت ترتدي ملابسَ رصينة لا تتوافق مع المرأة التي عرفها. لاحظ أنّها قطعت الاتصالَ وبقيت واقفةً في الزاوية ظاهرة تماماً، كما لو أنّها تنتظر أحداً. توقّفت بعد دقيقة سيّارةُ بي أم دبليو، فتحت بِلِنْ بابَها، كما لو أنّها أَلِفَت السيارةَ والسائقَ، وارتمت في داخلها. فكّر لوبو أنّ من غير المُجدي اللحاق بها في سيّارة أجرة. المرأة التي ولّت في تلك السيارة كانت نسخةً محسنة عن المرأة التي طالما عاشرها حين كان يعيش مع إستِلا.

- 11 -

بعد العودة إلى سان مانوِل لم يروِ كلمةً واحدةً عن وجوده في بونوس أيرِسْ، وأخفى مرّةً أخرى النقودَ التي جاء بها. حَضَّر نفسَهُ لما هو أسوأ: أن يكتشف أنَّ ثِلستِ اختفت. عاد من بونوس أيْرِسْ على هذا الأمل تقريباً. لكنّه شعر بخيبة أملٍ كبيرة عندما رآها مستلقية على السرير تُشاهد التلفزيون. أزعجه أن يواجِهَ وفاء الزوجة وتعلّقها بالمنزل. لو أنّها هجرته في تلك اللحظة لكان فرح لتأكّده من عصمة مصيره، ولكان تحوّل إلى رجلٍ فظٍّ وذهب إلى الموت واثقاً ووحيداً. لكن ألاّ يهجره أحدٌ، وبالمقابل يربطه إلى الحياة، فهذا يعني أنّه يدحضُ مأساتَهُ ويضعه في مستوى آخر: مستوى مريضٍ معافى.

فتحا متجراً، محل بيع اللوازم النسائية الوحيد في القرية، الذي ازدهر وبفضل عزيمة لوبو، الذي كان يُسافر إلى مار دِل بلاتا وتَنديل دوريّاً، كي يتزوّد بالملابس الرخيصة بالجملة ويتفادى بذلك بونوس أيرِسْ. ازدهر المحلُّ بشكل استثنائي في محيطٍ مقفر. بدأا يربيان في عمق المنزل دجاجاً، وتبنيا كلْبَيْن

twitter @baghdad_library

وقِطَّيْن وسرحا في خيالهما في توسيع عقارهما ومحلّهما أيضاً. ورغم كلّ شيء بقيت ثِلِستِ تطالبه بولد. ضمّ لوبو زوجاً من الحيوانات إلى تلك الأخوّة الحيوانية العظيمة، مقتنعاً بأنّ تلك الكمية من الحيوانات ستنتزع منها عاجلاً أو آجلاً غريزة الأمومة تلك. لكنَّ شيئاً لم يتبدَّل: كانت ثِلِستِ واحدةً من أولاء النسوة اللواتي لا يؤثّر فيهنّ عالَمُ الحيوان قيدَ شعرة، ربّما لأنّ العرجَ آلفها مع ذلك الطلب اليومي والخارق لبقاء النوع.

أقاما صداقات مع ناسٍ محترمين، بينهم كاتب عمومي، أخٌ لمتصرّف، دُعِيا إلى حفلات عشاء نهاية السنة في النادي الاجتماعي وحفلات تعميد وزيجاتِ أفضل العائلات، وانضمّا بفضل نجاحهما التجاري، بدرجة متوسطة، إلى البناء الاجتماعي الهرمي للبلدة.

كانا يغلقان المحلَّ مساءً أسوةً ببقيّة المتاجر. يفتحه لوبو صباحاً، بينما ثِلِستِ تنام، وتلتحق به في الساعة الحادية عشرة وحتى منتصف النهار، أعلى ساعات تدفّق الزبائن، فيهتمان بهم معاً. كانا يعودان ويفتحان المحل بعد القيلولة، التي لم يكن لوبو ينام فيها. كانت ثِلِستِ تنضمّ إليه في السادسة مساءً، ساعة الازدحام، بعد قيامها بمشترياتها، لتعتني بجمهور السيدات المضطرب؛ وفي التاسعة يُغلقان المحلَّ، وتحضِّر هي العشاء. يتناولان طعامهما في العاشرة، وفي الحادية عشر يذهبان إلى الفراش ويشاهدان التلفزيون. هذا الروتينُ الذي مارساه خلال ثلاث سنوات، وعدمُ وجود العطل ورهابُ الاحتجاز الجاثم على هذا الجوّ الصارم، حوّل ثِلِسْتِ إلى امرأةٍ عاقلة ومحبّة للتملّك، وصارت ترى الآن في عرجها عيباً.

في المرحلة ذاتها بدأ لوبو يتساءل، في كلّ مرّةٍ أكثر، عمّا إذا لم تكن الشرطة أو أتباع أكوستا يبحثون عنه في الخارج، في العالم، وعمّا إذا لم يكونوا، بدل أن ينسوه، قد كثّفوا تعقّبهم له بسرايا وعشرات من رجال التحرّي الخاصّين، الذين يُمشّطون الأرجنتين، بلدةً بلدة. قرّر أن يُباعد بين أسفارِهِ إلى مار دِ بلاتا كي يقلّص احتمالات أن يقع في أيديهم. في كلّ سفرة كان يشتري بالجملة بضاعةً أكثر. بدأت السيّارة، كما لو أنّها تُتَرجم مزاجَ صاحبها، تتعطّلُ، سمحت

هذه الكوارث الميكانيكية المتتالية للوبو بأن يقضي أسابيعَ وأشهراً دون أن يخرج من سان مانوِل، كما ترك على التجارة بصمةَ النكسة العرضية، هذا الإهمالُ الذي خيّبَ، مع الزمن، آمالَ ثِلِستِ أكثر من انعدام الابن، كما لو أنّ طبيعة لوبوها (ذئبها) تكشفت لها توّاً.

اختفت ثِلِستِ ذاتَ يومٍ من البيت حين عاد بعد أشهر من الجمود، ليذهبَ إلى محل بيع بالجملة في مار دِ بلاتا. بقي عدّة أيّام يأسف على هذا الفقدان، لكنّه لم يصل حدَّ أن يحزن ولا أن يُراهِن على أنّ ثِلِستِ ستعود بين لحظة وأخرى، لترمي نادمةً في أحضانه. قال لنفسه إنّه حدث ضروريّ: فالهجر لم يكن قدره وحسب، بل كان رغبة مركّزة تُهاجِم حميميته، وراحت تتعزَّز خلال الأشهر الأخيرة، في كلّ مرّة كان يسمع فيها ثِلِستِ تتكلّم.

لم يخطر له أن يبحث عنها. أيضاً لم يكذب حين سألته زبوناته ماذا جرى لِثِلِستِ. "ذهبت"، كان يجيب في كلّ مرّة بجفاف وكبرياء، كما لو أنّه يقول في الحقيقة "تركتُها". كانت السيّدات يلزمن الصمتَ، مذعورات من تلك السلبية المتاخمة لانعدام الحساسية والانطوائيّة، وينتظرن توضيحات لا تصل ولا يجرأن على طلبها، خشية أن يحرجن هشاشة هذا الرجل.

ـ 12 ـ

بعد أقلّ من شهر صارت الوَحدةُ الجديدةُ أكثرَ متعة للوبو: كان يجعل صحراءه طبيعية. ومع فقدان ثِلِسْتِ لمكانها في ذاكرته استوطن عقلَهُ الخوفُ من الموت ومن احتمال المرض. لم يكن يريد أن يموت. عانق حيواناتهِ واحداً فواحداً وشعر بأنّها تحميه من الموت، كأجهزة، وتضمن له حياة سليمة.

twitter @baghdad_library

بدأت المبيعاتُ في الوقت ذاتهِ تتدهورُ، ربّما بتأثير الإشاعات الخبيثة، التي جهلها لوبو. بعد سنة صار المحلّ قفراً، واجهته الزجاجية مغبرّة وتمثالا العرض مهجوران. كان يفتح ساعةً أو ساعتين مساءً للزبونتين الوفيّتين الوحيدتين، الأختين بِنتورا، اللتين كانتا تشتريان ترهاتٍ يتبرعن بها بعد ذلك خفيةً للكنيسة. كانتا تزوران لوبو بقصد سرّي هو معرفة من يكون هذا الرواقيّ الصبور، الذي عاش بعد الهجر دون أن يشكو؟ طبعاً كانت عند الأختين، كعانسين حقيقيّتَيْن عادة أن تتآمرا كي تشعرا بأنّهما متحدتان. لم يكن باستطاعتهما أن تفهما كيف أنّه بعد ما جرى معه لم يتحوّل إلى كحوليّ. كان عند إحدى الأختين نظريّة مفادها أنّه كان كحولياً سابقاً وشُفي من كثرّة ما عانى منه، ولذلك لم يقع في الكحوليّة. عندما كان يخرج من البلدة، ولم يعد هناك سبب لزيارة باعة الجملة، كانتا تستنتجان ـ وتأخذان على عاتقيهما نشر الشائعة ـ أنّ لوبو يزور، بالقليل من النقود التي يحصل عليها من البيع، مواخيرَ المنطقة، باحثاً عن ابنة العاهرة العرجاء التي هجرته. ولئن كان هناك شيء من الصحة في شكّهما، إلاّ أنّهما أخطأتا في الاعتقاد بأنّه كان يرغب بالعثور عليها.

بعد زمن لم يعد محلّ لوبو يُفتَح ولا حتى لاستقبال الأختين مساءً. لا تكادُ توجد فيه بضاعة، ولوبو كان يُفضّل مشاهدة التلفزيون من فراشه، قبل أن يستمع لهذا الثنائي من الببغاوات. كان يخرج باكراً إلى تَنديل، مرّةً في الأسبوع أو الأسبوعين، بحسب حالته المزاجية، يُبَدِّل بعضَ الدولارات من مُدّخراته الخفيّة، يذهب إلى السوبر ماركت، يشتري أغذيةً غير سريعة التلف، ويزور عاهرة، هي دائماً أخرى، في أغلى ماخور في المنطقة.

لم يكن عدم فتحه المحلّ للجمهور كافياً لإبعاد الأختين. حتى ليمكن القول إنّ إغلاقه له، إضافة إلى رحلاته المريبة، أحدث تأثيراً عكسياً. صارتا تحُجّان يوميّاً إلى بيته، تطرقان وتنتظران في العتبة دون جدوى. إلى أن دخلتا ذات مرّة، بعد أن طرقتا الباب لساعاتٍ، إلى البيت بالقوّة. وجدتا لوبو في حالة من

الخطر والبؤس لا توصَف، محاطاً بمرطبانات لَبَنٍ خاثر وحليبٍ وكرياتٍ خبز وقططٍ وكلاب فقدت هويّتها المنزلية وتلتهم، مثل شفّاطات حيّةٍ، كلَّ الذي تجده في طريقها. في عمق البيت كان هناك دجاجتان بقيتا حيّتين في حالةٍ وحشيّةٍ، تأكلان الديدانَ والحشرات.

عندما رأى لوبو الجنيّتين تدخلان أطلق صرخةً، نظر عبر النافذة وهمّ بالخروج من السرير، كما لو أنه سوف يطلق لساقيه العنان، لكنّه عندما لاحظ أخيراً أنّه كان عارياً ومحاطاً، غاص تحت الملاحف وزمجر.حدث حوله لساعاتٍ هرج ومرج لم يبغ مشاهدته. عندما خرج من مخبئه كان البيتُ نظيفاً والحيواناتُ تجول مؤَنْسَنةً في نظام الأشياء الجديد. كانت الأختان بِنتورا قد انسحبتا خلسةً حاملتين معهما مجموعةَ مفاتيح. تنفّس الصعداء وهو يُفكّرُ بأنّ هذا الحصار الكافر قد خلّف أولاً وأخيراً نتيجةً إيجابيةً. خطر له أنّهما بعد ذلك الجهد الجبّار بالتنظيف ستبقيان منهكتين ولن تعودا لإزعاجه عدَّةَ أسابيع. استغربَ وجوده في مكان بمثل تلك النظافة وتذكّر بقليل من الحنين، الترتيب الجزئي الذي كانت تطبع به ثِلستِ الأجواءَ حين كانت تكنس وتغسل الأطباقَ في آخر ساعةٍ قبل النوم، كما لو أنّ تلك القذارة كانت نتاجه هو حصريّاً.

عادت الأختان بعكس توقعاتِه، بعد بضع ساعاتٍ ومعهما بضاعة، دخلتا البيت دون أن تقرعا الباب، نظّفتا زجاجَ واجهة المتجر من الغبار ورتّبتا كلَّ شيء كما لو أنه سوف يستقبل الزبائن في اليوم التالي.

"أنت، لا تشغل نفسك، يا دون سيلبيو، نحن سنخرجك من البئر. أخرجنا رجالاً كثيرين من البئر... يجب أن نبدأ من الصفر".

"هذا المتجر يجب أن يُقْلِعَ قبل أن ينهار"، أضافت الأخت الأخرى: "كن واثقاً".

انتبه لوبو مبكراً إلى أنّه لا يملك إمكانية المقاومة، وأن الأختين بعد أن غزتا ملكِيَّتَهُ مرّة، ستتصرّفان لاحقاً بحريّة دون استشارته، كما لو أنّ إعادة ارتكاب

twitter @baghdad_library

الجريمة تجعل الغزو طبيعياً. فقد استولتا على دفّة السفينة في أوج الغرق، وعلى الرغم من أنّه كان عازماً على التخلّص من النساء مستقبلاً، فإنّ في كونهما اثنتين، وفوق ذلك أختين، شيئاً يجعلهما خنثويتين، مدمنتين وغيرّ مؤذيتين.

فاصل

twitter @baghdad_library

يُبقي نظرتَه في نقطة ثابتة في السقف. عندما تعبر به المُمرضات أو الطبيبُ يشيحُ بعينيه الفاتحتين لثانية بازدراء، كما لو كان هؤلاء البشر الآليون يقطعون عليه بقيّةَإنسانيته الباقية في خطوط السقف الأملس.

بعد شهر من دخوله المشفى، ما عاد الرجلُ المُغْفَلُ، فاتحُ العينين، ينتقلُ من سرير إلى سرير، بحسب مزاج الأطباء، ويستعد لفترة سباتٍ شتويّ. استُبْعِدَ الأملُ بالتحسّن، وبما أنّ المريض لم يكن يتكلّم ولا يوجد مكان يرسلُونه إليه من المشفى، ولا أقارب يتصلون بهم، فقد كان الأطباء ينقلونه إلى قاعة الحالات المزمنة، إلى حيث يرسلون في الحقيقة الميؤوس منهم.

الغرفة هائلة وباردة، مثل فسطاطٍ قديم مخصَّصٍ لجرحى الحرب. تفصل بين الأسرّة ألواحٌ وستائرُ من المشمّع مشكّلة ممرّاً مشتركاً. يبدو أنَّ التكنولوجيا القديمة تُكْمِلُ جوّ ما بعد الكارثة. إيقاع القلب يظهر على شاشة فاتَ أوانها، تُصْدِرُ، في فترات متساوية، صوتَ مثقبٍ حادّ. الصوتُ العام نظراً لحالة المكان السمعية هو صوت عشّ دبابير كهربائية. ما من أحدٍ من المرضى في وضع يسمح له بالاحتجاج، أو بالشعور بالانزعاج من عشّ الدبابير، باستثناء العجوز ذي العينين الفاتحتين، الذي لا يستطيعُ أن يتصالح مع النوم لأكثر من نصفِ ساعةٍ بالتحديد بسبب هذه الذبذبات، ويعيش في هلوسةِ رجلٍ أسيرِ الأرق. يرى نفسَهُ يقودُ سفينةً تنتصرُ على العاصفة. الأمواج تتلاطم

twitter @baghdad_library

على جدار السفينة. يتلقّى، مرميّاً أمام دفّة السفينة، مساعدةَ البحارة الإناث، اللواتي يؤمنّه في قيادة السفينة بالكبلات والحبال.

هناك فجوة كبيرة، هو نصف واعٍ لها، بين اللحظة التي يتذكّر فيها أنّه كان يتدرّب في حوض حمَّام بيته على العبور واللحظة الراهنة في أوج الغرق. لا يعرف لماذا ربطوه إلى دفّة السفينة أفقيّاً. كما لا يستطيع أن يفهم لماذا لا يقدِّمون إليه توضيحات، ويهمهمون فيما بينهم. يعطيهِ الجوُّ النقيّ من حوله المثلَ على أنّ ما بعد السكون مأساةٌ أعظمُ تترصّدُ فيما وراء الأفق. يخاف أن ترمي البحاراتُ أنفسهنّ من على متن السفينة. هل سيتركنه مربوطاً بينما السفينة تغرق؟ السفينة تغرق والبحّارات يأتين مرتدياتٍ البياضَ دائماً، يربطنه ويفككنه، يدرن حوله، وإيقاع ارتطام الأمواج دائماً واحد. فجأة ينتابه إحساسٌ بأنّه وحيدٌ تماماً في محيطٍ رائقٍ. بلا سفينة. السفينة غرقت، طاقمها هرب. غيوم بيضاء. سماء بلا حياة، تكاد تكون سقفاً. تمرُّ الساعاتُ، الأيّامُ، تأتي عرائس البحر لنجدته، يتناوبن عليه. الصحراء والضجيج و غطيطٌ ما هو حيّ، كل ذلك يضاعف الإحساس بأنّ هذا المربوط إلى دفةِ سفينة هائلة مثل زورق ومغطى بالملاحف، هو جسدُهُ، لحمه المنهوب. تراه ميتاً؟، يُحاول أن يسأل أيَّ ظلٍّ يقترب منه الشيءَ ذاته: "هل هو حي؟ منذ متى لم يأكل ولم يشرب ماءً؟ هو ليس فقط غير عطشان، بل أيضاً لا يستغرب هذا الإحساس المغرق في بدائيّته.

يحدس أنّ السطحَ الذي يرتاح فوقه يلينُ، كما لو أنّه يتفسّخ. يبدأ يدورُ في ذهنه أنّه يلامس القاع. إنَّه الخوف. عندها وعلى الفور يشلُّ بعضُ الذكريات هذا الإحساسَ: الكازينو، مضمار الخيل. معابد متناظرة لم يرسُ قط في قاعها، لأنّه تمكّن من السيطرة على مجرى المصادفة. لو أنّه يستطيع أن يرسو في مرفأٍ ما، لو أن الزورق الذي يلاحظه الآن يكون "رَمْثَاً" يتبع التيارَ ويخلّصه، بدل أن يدور في مكانه، لكان استطاع أن يرجعَ عشرين سنة في الزمن إلى الوراء ويستعيدَ كتابه المقدّس من باتاغونِس. لكنَّ الزورقَ، وسطَ العَدَمِ، متجمّد.

يحلّ اللغزَ: إنّه في قاع البحر. مربوط ومفكّك مثل كنز، لذلك تتودّد إليه حوريات البحر ويتنقلن مثل مسيح مُتَأنِّث، على السطح دون أن يغرق. لذلك هناك ضجيج آخر مخنوق لم يحس به قط في حياته الأخرى، فوق سطح البحر.

الآن وهو يعرف أنّه متورّط في نظام بحري، ما عاد يشعرُ بالشفاطة وبمسبار المصل كأربطة أرضية، ولا العروق مثل أعصاب جهاز أخروي. العطالة الذاتية جزء من تحوّلٍ قد بدأ. العلمُ لم يكشف له إلا ما هو موجود في هذا العالم. في وقت وجوده في المشفى فقد أسنانه، تيجانه، شعره... كما لو أنّ جسمه كان يتجرّد من كلّ ما ليس مفيداً لحياة مستقبلية. يبتسم.، يُحرِّكُ شفتيه قليلاً جدّاً مشكلاً مخروطاً، تحدسُ الممرضات من خلال الحسّ المهني المشترك أنّه يُقلّد فمَ سمكة. مُتَكَوّم الآن في قاع بحر مُتخيّل، ما عاد يشعر بأطرافه: كلّ مسامٍ في جلده يمتص ويضغط، مثل محجم صغير، طبقة جديدة من الحراشف يعتقد كثيراً أنّه يُميِّزُ اهتزازَ خياشيمٍ وحركةَ زوج من الزعانف الظهرية. قبل أن يتوقّف عن التنفّس في الفسطاط المجهول في مشفى حكوميّ يُشكّل لآخر مرَّةٍ مخروطاً بشفتيه. وربط غير معقول بين هذه الأشياء يحمله على التفكير بأنّ لهذا الفم قطرُ كرةِ روليت مهنية تماماً. يُفكّر: ارتكب خطأ أنّه لم يقرأ قط الرسالة في أسنان حصان سباق: القدر يؤكل أو يُشرب، لكنّه لا يُعَاش أبداً على حسابه. يشعر بأنّ أحداً يُدخِل شيئاً في فمه، كما لو أنّه يتلقّى قرباناً، يُخرج لسانه، ثم يتوقّف عن التنفّسِ، بعد ثوانٍ، مقتنعاً بأنّ كرةَ الروليت قد وصلت إلى حنجرته.

twitter @baghdad_library

نهاية الشوط

twitter @baghdad_library

كانت المحطّة الأخيرة للحافلة، كمحطات كلّ قرى الداخل، رماديّة، تضيئها بشكل سيِّئ اسطواناتُ، النيون، التي تطقطق حولها فراشاتٌ بدينة وساهرة، مع إعلانات مائلة ونوافذ وسخة وأرضيات داكنة تفوح منها رائحة ماء جافيل وبعض التلفزيونات سيّئة التوليف في علوها. كان هناك رجال، كأنّهم نجوا من كارثة، مستلقين على مقاعد سلكية منسوجة تشبِهُ سلال قمامة هائلة. بعضهم كان مغطى ببطانيات ويضغط على شيء محمولٍ فوق صدوره. أمتعة أو أطفال. صدم جوُّ المشفى هذا في الفجر البارد والمقفر، إيفان. من كثرة ما تخيّل المكانَ، الذي يذهب إليه، ووجهَ أبيهِ عند استقباله له، لم يستطع أن يُغمِض جفناً. قدّر احتمالاً لم يكن قد أخذه بالحسبان: ألا يعرفه سيلبيو لوبو، وألا يتذكّر قصّتَه ذاتها. بدا أنّ جوّ محطّة الحافلات الكئيب يُرجّح كفّةَ هذا الاحتمال الثاني.

كان يُشتَمُّ حوله جوُّ قرية نائمةٍ وملعونة. لم يكن الفجرُ يكاد يبزغ بين تلك الجبال المخيّبة بصغرها. تفرَّقَ الركابُ القليلون الذين نزلوا في تَنديل واختفوا على الفور، كما لو أنّهم غاصوا في المجارير أو دخلوا في بناء ما مجاور. تظهر على بعد عدة كتل أبنية في الجادّة الأضواء المتلألئة لكازينو عمارتها رديئة: صورة الأبهة الريفية المطبقة على روح لاس فيغاس.

twitter @baghdad_library

كان إيفان قد سرح بخياله متخيّلاً أن يصل إلى مكان مليء بالسيّاح، بالناس، وبالمنشآت المزدهرة. يستطيع أن يبيع فيها في يومٍ واحدٍ جميعَ الأساور التي جاء بها في الكيس، يدفعَ إقامته ويُسافر إلى سان مانوِل. لكنّه اضطُرَّ لأن يهيم على وجههِ لأكثر من نصفِ ساعة حتى وصلَ إلى ساحةٍ ويعبر بشخصين. وكان سوء حظّه أنَّه لم يجدْ، عندما أفاق بعد أن ارتمى فوق مقعد، أثراً لأمتعته. بقي ورأسه بين يدَيه برهةً طويلة، دون أن يستطيع أن يبكي، أو أن يعرف كيف يبكي، لأنّها كانت في الحقيقة المرّة الثانية التي يُواجه فيها هذه الحاجة.

تذكّر أنّه شعر بهذا الضيق أمام تابوتِ أمّه، وأنّه لم يستطع تحت ناظر جدّته المستقصية، التي أيضاً لم تكن تبكي، أن يدفع بدموعه، وأنّه محا كلّ دليلٍ بكمِّ كنزته. عندها غمزته جدَّته بعينها، كما لو أنّ مقاومةَ البكاء قوّة ورجولة كانت تنتظرها منذ زمن. بدت من اللامبالاة بموت إستِلا إلى حدّ أنّه تساءل في لحظة عمّا إذا لم تكن مابِل قد قتلتها ببطء، وعمّا إذا لم يكن السرطانُ في الحقيقة سمَّ أُمٍّ تجرعته على امتداد سنوات. قالت له بعد قليل هامسة في أذنه: "الآن ستصبح رجلاً". عندما خرجوا من السهر عليها سدّت عليهما امرأةٌ، تبدو في عمرِ إستِلا، المخرجَ. دار بين الجدّة والمجهولةِ حديث بدا لإيفان غير معقول.

"إنّه هو".

"فكّرتُ أنّه أصغر من ذلك".

"لا. صار كبيراً. خذيه برهة".

"كم عمرك؟".

"تسع عشرة سنة"، قال دون أن يرفع نظره عن تقويرة الفستان التي كانت تقطع النظر إلى جلدِ الثديين الوفيرين الهزيل والمجعّد، تصوّر أنّهما كانا هدفاً لمآثر ذكورية.

"تبدو أصغرَ... تعال معي".

حاول إيفان أن يدور ليبحث عبثاً عن حماية جدّته، التي كانت قد ابتعدت وهي تحرّك يداً تشيرُ إليه أن يذهب. تبعَ المرأةَ، وسألها عمّا إذا كانت صديقة لإستِلا أم لمابِل. "للاثنتين" أجابت وأضافت: "عملنا أنا وأمّك ذات مرّة معاً". صمتَ إيفان، حاولَ أن يتخيّل ما نوع من الصداقة التي كانت بينهما، إذا كان لم يرها تزورها قط، إلى أن وصلا إلى بيتٍ صغير في شارع معبّد بالإسفلت.

"ادخل..." وأضافت أمام انعدام ردّ فعل إيفان: "لن تندم، صرتَ كبيراً، سينبت شعر على يديك". نظر إيفان إلى يديه والمرأة نفخت في نقرته: "أهبل..." لم يعرف ما إذا كانت قد قالت ذلك بودّ أو باحتقار، له: لم يكن ينظر إلى وجهها، وكان يشعر بنفسه بطلاً في كابوسٍ يمكن أن يُساء تفسيرُ أيّ حركة فيه. وما إن أصبحا في الداخل حتى وهنت مقاومته. مدَّدَتْهُ على سريرِ غرفةٍ صغيرة، مفصولة عن أخرى بجدار خشبي، بدأت تنزع ملابسها وتعلقها على كرسيّ وقالت له: "ماذا تنتظر؟ تعرَّ...".

سدّت صورةُ ذلك الجسد وصدى كلمة "تَعَرَّ" حنجرتَهُ. بدا أنّ ذلك الجسد قد شوّهه العري: "حاملات جوارب مشدودة إلى الفخذين، تشققات في النسج الخلوية وطبقات من اللحم النامي في الوركين مثل جلد مضاعف. ما إن صارت قريبة منه، حتى شعر أنّها رخوة إلى حدّ لا يُحتمل، كانت كما لو أنّها محشوّة قطناً. في طيات المعدة كان يتركز العرق وملايين بقايا التهابات النسج الخلوية التي تضعف فوق العانة الكثّة التي تلتقي بدورها في فرج يبرز شفراه الأملسان، مثل سطح محارة.

تساءل إيفان، بدل أن يخلع ملابسه، ماذا يمكن أن يكون اسمُ امرأةٍ تفقدُ كلَّ سحرها عاريةً. خطر له أنّ هذا الجسد المجهول قد أنجب أولاداً كثيرين. عندئذٍ استنطقها بقسوةٍ، كما لو كان زبوناً حقيقيّاً. تجمّدت وشعرت بالإهانة

twitter @baghdad_library

من هذا الفضول. "هذا معروف، يا صغير، لا تسألني أسئلةً عن حياتي الخاصّة. ماذا يهمّك إذا كان عندي أولاد؟". وفكّت له أزرارَ البنطلون وسحبته بعد أن خلعت له فردتي حذائه المربوطتين بعقدة مضاعفة. هناك تأكّدت هي أنّه مرعوب تماماً، وقالت له كما لو أنّ الأمر يتعلّق بعملية وشيكة: "اهدأ، كلّ شيء سيكون على ما يُرام... لا تهتمّ، لن أحكي شيئاً لمابِلْ". شعرَ إيفان أنّ فمَ تلك المرأة المظلم يقطر جنساً. بلع ريقه.. ما كانت تفعله معه جاثيةً على ركبتيها غير معقول: بدا له أنّها تنفخ بلوراً أو تُصلح شيئاً بشفتيها. وفي الوقت ذاته كان احتكاك أسنانها الخفيف واللعاب يزيد كثيراً من انطباعه بأنّ فمَ سمكة قد استولى على قضيبه، وسيفصلُ مع الوقت الجذعَ عن القاعدة. حاول ألاّ ينظر وفجأة وبفعل ضغط الملامسة القوي قذف.

"كان باستطاعتك أن تخبرني..."، احتجّت هي وانتقلت فوراً وبكلّ طبيعية إلى الحمّام. بقي هو ساكناً في السرير، مصعوقاً والدموع تُطلّ من عينيه، ومرّة أخرى الهاوية: عدم القدرة على البكاء.

"البس. إذا سألتك ماذا كان، قل لها إنّ كلّ شيء سار على ما يرام".

حرّك رأسه علامةَ الموافقة. ارتدى ملابسه كما لو أنّه سيذهب، لكنّه انتبه، قبل أن يعبر الباب، إلى أنّه حافٍ. عاد. كانت المرأة المجهولة قد ارتدت ملابسها وصارت من جديد امرأة مرغوبة. تساءل عمّا إذا كان يوجد عند كلّ النساء العاريات هذا الشرخ المأسوي بين الظاهر وحقيقة العري؟ بدا أنّها رأفت بخيبة الصبيّ وقالت له إنّ الجنس ليس هذا، وإنّ الجنس مع العاهرات ليس أبداً حقيقياً، وإنّه سيعثر ذات يوم، إذا لم ييأس، على امرأةٍ تُعجبهُ، فتاةٍ يحبّها ولن يخسرها إذا ما حالفه الحظّ. المهم، أكّدت وهي تحكُّ ظفراً بشفتها، ألا يبحثَ عن الأُمّ في المرأة. بقي إيفان متفكّراً: لم يُفكّر قط أنّ باستطاعة عاهرة أن تُواسي أحداً وتقدّم نصائح بمثل ذلك الإقناع. كانت تبدو مثل جدّتِه، تَستخدمُ طيفاً من الأشياء الرخيصة، مسبقة الصنع، التي تعمل

بين حين وآخر،حين يهبط غافلٌ على البيت كي تقرأ له مستقبله، وتفعل فعلَ الجملٍ المقنعة والسحرية التي ترضي أو تُدهش الزائرَ الجديد. قالت له قبل أن تطرده، كما لو أنّها تقرأ أفكاره: "أنت تظنّ أنّني لم أعشق قط، وأنني دائماً كنتُ عاهرة. على العكس، لهذا السبب انتهيت إلى هنا. جميعنا خُيّبنا".

هكذا فكّر، وهو يتذكّر في ساحة تَنديل صديقةَ أمّه تلك، التي لم يعرف قط اسمها، أنّ العاهرات العرّافات يعرفن عن الحياة أكثر من الفقراء بشكلٍ عام، بما فيهم هو نفسه، هو ليس فقيراً، لكنه فعلاً انطوائيّ، لأنّه في الحقيقة بلا أب. كانت علاقةُ العاهرات نزيهة غريزياً، نظراً لاحتكاكهنّ بالكثير من الناس ولأنّهنّ لا يخفين وضعهنّ. كنَّ يمضين نحو حقيقة دنيوية عند كلّ مجهولٍ يتفقن معه على مساعدته دون أن ينتظرن أيّ شيء يتخطى هذا الاتفاق.

في لحظةٍ ما، بينما هو يستعيد هذه الصور الحديثة، جلس إلى جانبه عجوزٌ. بدا أنّه مشدودٌ إلى ما كان يحدث في وجههِ. سأله عمّا إذا كان رأى كابوساً. وبدل أن يجيبه إيفان همَّ بالنهوض، لكنّ العجوزَ شدّه من أحدِ كمّيه، أعاده إلى مكانه، وقال له إنّ هذا ليس طريقة للرد على لطف ابن البلد. "لك وجه من جاء من مكانٍ بعيد جدّاً، أو لم يأتِ من أيّ مكان. الناس الخائفون جدّاً لا يعرفون من أين يأتون. أسمعني صوتك. قُلْ لي اسمك...".

"لن أقوله لك".

"ما عمرك؟".

"عشرون"

"لا تبدو شاباً إلى هذا الحدّ. أنا ألثيدِس، سعدت بمعرفتك".

خفض إيفان رأسه ورفض أن يُصافح اليدَ التي مدّها الآخر بحركةٍ واهنة ومحطّمة. لكنّهُ سرعان ما ندم، فرجل كبير في السن ومتضامن لا يستحقّ كلّ قلّة الأدب هذه. ورفع بصره إليه، كان العجوز ينظر إلى الأمام، مخطوفاً من

twitter @baghdad_library

شيء عير محسوس، يبدو أنّه يحدث مع الفجر. كانت شفتاه تهتزّان في عرّة. كما لو أنّه يطلق رشقةَ قبلات صغيرة مفجوعة ويُسوي فكّي أسنانه الاصطناعية. كانت حركة فظّة تستعبدُ الفمَ، حتى أنّ إيفان نفسه لم يرها عند آخر قط، وهو المعتاد على التلذّذِ في القطار بكلّ أنواع المقعدين والأشخاص المصابين بأمراض عصبيّة، الذين كانوا يوزّعون صوراً أو يتسوّلون.

"لا تزدرِ يدَ صديق في قرية. فهذه اليد يمكن أن تُطعمك. لا أعرف من أين جئت ولا من أنت، لكنّك هنا لستَ أحداً. إذا لم تقل لي لماذا جئت، سأستدعي الشرطة"، قال فوراً، كما لو أنّه فقد صبره.

فكّر إيفان أن يكون هذا العجوز ببساطة، كما تدلّ حركة شفتيه وصوته الأخنّ قليلاً، منحرفاً. وبما أنّه لم يكن يملك استراتيجيّة دفاعيةً، وكان وصوله إلى أيدي الشرطة خطوةً معقولةً في بيئةِ مآسيه، فقد قال إنّه يبحث عن أبيه، وإنّه بقي نائماً وسرقوه كلّ الذي جاء به معه. سأله العجوز مرّة أخرى عن اسمه بينما كان يضغطُ على فمه وعينيه، كما لو أنّه يُحاول أن يتكهّن بالجواب.

"إذا قلت لي اسمك، أقول لك اسمي".

قال له الآخر إنّه شرطيّ متقاعد، يعيش في تَنديل وإنّه يأتي للعناية بالساحة لصالح المجتمع. كان يُنظّف الحيَّ، طوعيّاً، من المدقعين والمعوزين، الناسِ الذين كانوا يذهبون ليعيشوا في بونوس أيْرِسْ ويعودون مُنحرفين ومفلسين إلى حدّ أنّهم ما إن يخرجوا من المحطّة حتى يسرقوا أوّلَ غافل. مرّة أخرى ارتجفت شفتاهُ، كما لو أنّهما ترشفان بمشقّةٍ كلّ تعبيرِ وجهه. بقي إيفان متيقظاً والعجوز أكملَ الجملةَ هامساً: "رأيتهم عندما سرقوك. ألقيتُ القبضَ على الصبيّ"، لعب بشفتيه فعاد صوته إلى مجراه. "إنّه في البيت مع أشيائك. والآن قل لي عمّن تبحث؟. ولا تقل لي عن أبيك".

زحف إيفان إلى طرف المقعد كي يتفادى الشمس التي كانت تصيبه في وجهه. في الظلّ كرَّر عليه أنّه يبحث عن أبيه، الذي لا يعيش هناك، بل في قرية قريبة تسمّى سان مانوِلْ. أكّد له ألثيدِس أنّ القريةَ موجودة لكنّها على بعد كيلومترات كثيرة، على حدود المنطقة. ولكي لا يتكلّم عن أبيه أوشك إيفان أن يسأله لماذا يقوم شرطيٌّ متقاعدٌ بحبس لصٍّ في بيته، لكنّه أحجم. كان يعرف أنّ للشرطيين نزواتهم وأنّهم على امتداد سنوات خدمتهم يخترعون قواعدهم الخاصّة بهم كي يعيشوا. كان بودّهِ لو يسأله عمّا إذا كان عنده سجناءه الخاصين، لكن عدم اللباقة هذه بدت له أيضاً عدوانية. عندها شعر بفضولٍ كبيرٍ لمعرفة سارق كيسه. عندما نهض الرجل على قدميه، اقترحَ عليه بصوت وديع وتعبيرٍ من عينيه مسالمٍ، أن يذهب معه ليبحث عن أشيائه، لم يتردّد إيفان، فقدّم نفسه باسمه وكنيته وتبعه مسافة كتلتين من الأبنية، لم ينبسا خلالها ببنت شفة.

كان البيتُ بسيطاً، بنافذة على الخارج وبابِ مدخلٍ بقفلين. قرع الرجلُ الجرسَ، فتحَ القفلين بانفعال مريب، سيلاحظه أيّ شخصٍ خلال الطريقة التي كان يختار بها المفاتيح باستثناء إيفان، الذي كان ينظرُ في تلك اللحظة إلى إحدى النوافذ. دعاه للدخول دافعاً البابَ. تردَّد إيفان، لم يعجبه أنّ للبابِ قفلين وأن وجهاً شاحباً غير محدد الجنس كان يُطِلُّ من بين الستائر بشكل عابر. لكنّه بينما كان يتردَّدُ تقدّمَ خطوتين، كانتا كافيتين كي لا يستطيع أن يتراجع، ويستطيعَ العجوز يدفعه دفعة خفيفة وينغلق الباب خلفه. "ماذا يفعل؟"، استطاع إيفان أن يسأل قبل أن تمسكه سيّدة ضخمة من معصمهِ وتُجبره بمساعدةٍ من العجوز على التقدّم في ممرٍّ. يبدو من وجهها أنّها المرأة نفسها التي تجسّست عليه من النافذة قبل أن يدخل.

عبروا الممرَّ ودخلوا عبرَ باب جانبيّ إلى مطبخٍ ـ غرفةِ طعام. لم يَحْتَجّ إيفان في أيّ لحظة. أشارت إلى مقعد صغير، وبثقة لا مبرّر لها جلس إيفان عليه، بجانب باب بقضبان.

twitter @baghdad_library

"جئتني بصبيّ وديع. ما الذي فعله هذا الطيّب؟".

أطلق ألثيدِس قهقهةً وشرح لأورسولا، زوجته، أنّ هذا الشابَّ لم يكن مجرماً، بل ضحيّة الصبيّ الذي جاء به في وقت مُبَكّر.

"هكذا إذنْ، هذا الفأر سرقَ هذا الصبيَّ المسكين"، أسفت أورسولا وأشارت إلى باب القضبان بتعبير وجهٍ مُتَجَهِّم. "الصبيةُ اللصوصُ يجب أن يُرسَلوا مباشرة إلى معسكرات الاعتقال"، ونظرت إلى إيفان باحثةً عن موافقته.

شعر إيفان بالرضا، على الرغم من كلّ شيء، كما لو إنّهُ ضيفُ شرف، فتشجّعَ وسأل عمّا إذا كان سارق كيسه عندهما. في هذه اللحظة تماماً سُمِعَتْ طرقاتٌ مصدرها الجانب الآخر. جلبة شبيهة بجلبة حيوان ضار في قفص. نهض إيفان المرعوبُ من وضوح الحالة عن الكرسيِّ وطلب إذناً كي يأخذ أشياءه ويذهب. طرقت أورسولا على صفيحِ البابِ برأس المكنسةِ وطلبت الصمت. ردّ الفعل من الجانب الآخر كان حاسماً: صمت قبور. ألثيدِس، الذي جمع يديه فوق كرشه، وضّح له بنبرةٍ مُتفهِّمة أنّه لن يستعيد أشياءه، ما لم يُنَفّذ، كضحيّةٍ، دوره كمُحلَّفٍ في المحاكمة المقتضبة التي ستبدأ خلال دقائق.

"أيّ محاكمة هذه؟".

"لا تستعجل، الفضول يقتل القطّ... لن تخرج من هنا ما لم تَقُمْ بواجبك. إنّها دقائق قليلة، شكلية. لا شيء من العالم الآخر".

بقي إيفان في مكانه، عصبيّاً من فكرة أن محاكمة من هذا النوع، وهي إضافة إلى أنها، "مقتضبة"، قد تدوم أيّاماً، وستؤخّر إمكانية أن يصل إلى أبيه. فكّر أنّ في متناول يده كرسيّاً. إذا ما أمسكها من رجلٍ يستطيع أن يحطّمها على رأس أورسولا، فألْثيدِس أمره بسيط، ويستطيع أن يُغادر هذا البيت بعد أن يبحث عن كيسه ويُحرّر المنحوسَ الذي خطفاه. وصل شخص آخر، رجل في حوالي الأربعين من عمره، منتفخ العينين غليظ الشفة السفلى المُبلَّلة،

شاحباً شحوباً مَرَضيّاً تُبرزه صلعتَهُ.. كان يتحرّكُ ببطء دون أن يطوي ركبتيه، كما لو أنّه نُحِت قطعةً واحدة. بقي إيفان متوقّفا على حساب: المسافة التي تفصله عن الكرسيّ، السرعة التي يمكنه أن يصل بها إليها قبل أن يمنعه من ذلك هذا الغول، الذي يسير بكاميرا بطيئة. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع ثوانٍ. هكذا وهو يقيس الثواني ترك المجهولَ، الذي قدّمه ألثيدِس على أنّه ابنه، يُعانقه.

"تعاونْ، يا إيفان في القضيّة".

"يسعدني. أهنّئك، البلد بحاجةٍ إلى ناس من أمثالك"، قال له الغول دون أن يلفته.

في هذه اللحظة فتح ألثيدِس بابَ الشبكَ الحديدي، كما لو أنّه يريد أن يفصل بينهما، رفعَ بعدها مرتاجَ الباب وقال: "تقدّم، تقدّم". على الجانب الآخر، في وسط غرفةٍ عالية السقف، أسرّة فرديّة على الجوانب وطاولة قصٍّ وتفصيل طويلةٍ في الوسط، وصبيٌّ في حدود الخامسة عشرة من عمره ينظر إليهم بتعبير حيوان ضارٍ قابع، صار ذهولاً حين رأى إيفان يدخل. وقف ابن ألثيدس كي يحرس ودعا الحضور كي يتخذوا أماكنهم خلف "المنبر". بقي إيفان مضغوطاً، في هذا المكان المشؤوم، بين إلثيدِس وأورسولا. سار المتهم من جانب إلى آخر بيدين مقيّدتين. بدا من خلال الاندفاع والقوّة اللذين كانت تشي بهما فتوّته الطافحة، أنّه طريدة أكثر مما هو سجين. كانت النوافذ مسدودة والضوء القليل الباهت يصدرُ عن مصباح يتدلّى من كبل في الأعلى.

أمر ألثيدِس المتَّهمَ أن يجلسَ على السرير الفردي. وما إن اتخذ الجميع مواقعهم، بما فيهم إيفان وأروسولا، حتى بدأ بقراءة التهمَ والمادّة 162 من قانون العقوبات الذي انتهكه المتّهم عندما سطا بشكل غير مشروع على كيس. صنّف، ألثيدس في دوره كقاضٍ، التهمة بأنّها "سرقة بسيطة". بعدها مباشرة وضع على الطاولة الدليلَ: كيس كتان أسود، علامة توبّر، لا أضرار

twitter @baghdad_library

ظاهرة عليه. وجّه نظرة تواطؤ إلى إيفان وسأله هامساً في إذنه، عمّا إذا كان هناك نقص".

"كلّ شيء موجود"، أكَّد إيفان.

"إذن نستطيع أن ننظر في تقليص العقوبة"، همس له وتوجّه إلى الحضور مرّةً أخرى بصوتٍ عالٍ ماطّاً نبرةً كريهة وحاذفاً عرّةَ شفتيه: "نظراً لأنّه لم تُلحظ أضرار ولا نقصٌ في الأشياء المستعادة، نطلب من المحكمة أن تنظر بتحرير العقوبة. يا سيّد غوستابو فيلتْشِ، هل عند الدفاع ما يُقدّمه قبل أن يصدر القرار؟". نظر إليه الصبيُّ مذعوراً؛ كان قِصرُ الجلسة ونبرة هذا العجوز يتناقضان مع غضبه، ويزيدان الانطباع عنده بأنّ المشهدَ والحالةَ اللذين يعيشهما حقيقيّان، وبأنّ من الممكن أن تصدر بحقّه عقوبةٌ شبه شرعية عليه أن ينفّذها في زنزانة سرّية. بقي يظنّ، حتى دقائق قليلة خلت، أنَّهُ ضحيّةَ نزوةٍ دبّرتها له عائلة من المجانين. لميعد الآن،بعد هذه الجلسة وبحضور الضحيةِ، واثقاً جدّاً من ذلك، وصار يشعر بالقلق. "أُريد أن أهتف لأمّي"، خطر له أن يقول. نظر ألثيدِسْ إلى ابنه الماستدونتي، الذي كان ما يزال في الباب، وأجاب بشكلٍ آليّ: "لا نستطيع، يورّطنا".

بدأت عبثيّة الحالة تُقلِق إيفان.. خيّبَه أنَّ فيلْتشِ لم يرتجل أيَّ نوع من الدفاع، وقبل المشهد بعينين ذليلتين، عينين عندما وصل رآهما مليئتين بالحنق. بَدا مُستسلماً لقدرٍ يتوقّف فقط على القرار الذي يتخذه هو، كمُحلّف. همست له أورسولا عن يساره: "ابدأ بالتفكير... الآن استراحة". وبالفعل أعلن ألثيدِس بعد ثوان عن استراحةٍ لمدّة خمس دقائق، كي تتمكّن هيئة المُحلَّفين من التداول، وخرج من الغرفة مع زوجته. في الغرفة بقي فيلْتشِ وإيفان والابن العملاق، الذي بدا في غياب أبيه أنّه ينكمشُ، يراقب المشهدَ من طرف عينه، خائفاً كما لو أنّ شيئاً حميماً كان يحدث بين الضحيّة والمجرم. بحث إيفان عن نظرة فيلتشِ. توضَّح له أنهما شريكان في الخوف

والارتباك ذاته من الجلسة التي تمّت في هذه الغرفة الرطبة والمعتمة. كاد يقول له شيئاً من قبيل ""أعفو عنك"، أو "أنا لا علاقة لي" حينَ أطلّ ألثيدِس وقال له "ماذا تفعل هناك؟ نحن بانتظار أن تتكلّم".

غادر إيفان الغرفةَ نشيطاً. نشرت أورسولا على طاولة المطبخ سلسلة من الأوراق، كما لو أنّها خرائط طريق. "عليك، قبل أن تُقرِّر، أن تقرأ هذه، هي حالات سابقة"، وضّحت أورسولا. "خذ وقتك، يمكن أن يكون أكثر من خمس دقائق. ليس هناك ما هو أسوأ من حكم سيّئ. لا أحد يستعجلنا هنا. فنحن لسنا مثل قانون الخارج" وابتسمت، كما لو في انتشاء، رافعةً يديها وناظرة إلى الأعلى. قدَّر إيفان أنّه سيستغرق ساعة في قراءة هذه الكومة من الأوراق، التي كان بينها قصاصات صحافة وصور، فطلب إذناً للذهاب إلى الحمّام. قادته أورسولا إلى الطرف الآخر من البيت، وبقيت تحرسُ الباب، بذريعة أنّه في بيت كبيرٍ كهذا سيجد صعوبة في العثور على طريق العودة.

على الرغم من أنّ غايته كانت أن يتبوّل، إلاّ أنّه ما إن دخل إلى الحمّام حتى لاحظَ أنّ نافذته الارتدادية مفتوحة قليلاً ومن دون مقبض. قرّر ألاّ يُضيّع مزيداً من الوقت في هذا البيت، قال لنفسه أنّه بخروجه وتخلّصه من مسؤولية محاكمة صبيّ يصبح قادراً على التبليغ عن حقيبة ظهره. وبعد مناورة حذرة أدرك حافة النافذة المستطيلة وبدفعها بقدميه ارتفعت درفتها. قدّر أن كتفيه ووركيه يمكن أن تمرّ فانسلّ إلى الجانب الآخر. سقط على جانبه الأيمن. كتم صرخة. ألَمٌ شديدُ البرودة سرى في ساقه اليسرى. فكّر: "إنّه حي من جديد". أراد أن ينطلق راكضاً، لكنّه لاحظ أنّه لا يكادُ يستطيع أن يطوي ركبته. فكّر أنّ أورسولا ستندفع إلى الحمّام بعد خمس دقائق وستستنفر الآخرين. عندما وصل إلى أوّل زاوية نظر إلى هذا الجانب وذاك، فلم يجد أحداً يُلاحقه. طرح من حسابه، حتى ولو لم يكن هناك ناس في الشارع، أن يكون قد ابتعد ما يكفي كي يكون في منجاة حتى من ابن ألثيدِس، النموذج

twitter @baghdad_library

الأسرع في العائلة. وصله همس: "بارك الله فيك"، بحث عن مصدر الصوت: على درجة قذرة صعلوكٌ في بطانيات وأوراق صحف يمدّ راحة يده. بحث عن وجه الرجل. أمام تلك النظرة المباشرة هزّ الصعلوكُ كتفيه ونظر إلى جانب آخر، كما لو أنّه لا يريد أن يجيب أو أنّه يسحب مباركته. انحنى إيفان، فتّش في علبة الصدقات وبما أنّه لا يستطيع أن يذهب سيراً على قدميه اقتنصَ بعضَ النقود، التي قدَّر أنّها ستكفيه للوصول إلى سان مانوِل.

عندما أصبح في منطقة مطروقةٍ من الناس، شعر بأنّه أصبح في منجاة تماماً. بدت له جرأته غير حقيقيّة. سأل أين تقع المحطّة، وقام بدورة كبيرة خشية أن يعبر الساحةَ التي اعترضه فيها ألثيدِس. عندما وصل إلى المكان المقصود، كانت الحافلة الذاهبة إلى بالكارثِ وتتوقّف في سان مانوِل وقرى أخرى قد خرجت. رأى بالقرب من كشكٍ لبيع الصحف شرطيّاً. فكّر خلال ثوانٍ أنّ باستطاعته أن يذهب إلى هذا الرجل، يحكي له ما فعله ألثيدِس وجماعته ويقدّم شكوى كي يحرّروا فيلتشِسْ. لكنّه لم يتذكّر أين يقع البيت، كما لم يكن واثقاً من أنّه سيعرف واجهته، بل لم يزعج نفسه حين هرب بقراءة اسم الشارع ومكانه. ثمّ إنّ شكوى من هذا النوع قد تؤخّره أيّاماً أكثر في تَنديل. كلّما وصل أبكرَ إلى سان مانوِل كلما كانت احتمالات عثوره على أبيه ونجاته أكبرَ. افترض أنه يبيع شيئاً مهمّاً، مثل سيارة لأنّه كان يُخطّط أن يذهب من المكان.

بينما كان ينتظر على رصيف المحطة، اعتقدَ، مثل كلِّ رجلٍ يواجِهُ حرّيَتَهُ فجأة، أنَّهُ اكتشف شيئاً مهمّاً: لقد فقد في مراهقته، في بيتِ جدّتهِ، شيئاً جوهرياً ما عاد باستطاعته أن يسترجعه، يوم كان غارقاً حتى شحمة إذنيه في الفقر، ومسروقاً من أمٍّ مجنونة ومستهترة: عشرون سنة من الحبس والسلبية. ما من علامة في حياته. ما من ألفة حميمة. بشقّ النفس حقّقَ لقاءً فاشلاً مع تلك العاهرة العدوانية، صديقة أمّه. صار الآن رجلاً، فقد قفز إلى بحيرة

الرشدِ، بفضل هروبين متتالين وجريئين، ولم يكن يستطيع أن يقبل شيئاً يقبل الاحتمال، باستثناء الحاجة للبحث عن أبيه. إذا لم يكن في سان مانوِل فسيقتفي أثره، حتى لو وقع في مخاطرة أن يجده رجلاً ميتاً.

دخلتْ إلى الرصيف حافلةٌ مُفكّكة، ربّما كانت قبل ثلاثين عاماً سيارة فارهةً للمسافات الطويلة، بمقاعدها المتحرّكة. ورقة مكتوبة بخطّ اليد وملصقة بلاصق شفاف في الجانب الداخلي من الواجهة تقول "بالكارثِ". سارع إيفان إلى الصعود، دفعَ الأجرة واستلقى على المقعد الخلفي. التفت برأسه فوجد اسطوانة مضيئةً، شمساً متضخمة أو مشوّهة بسبب قذارة الزجاج الخلفي. كان قلبه يخفق بقوّة وحنجرته تُطبِقُ، انتابه إحساسٌ بأنّه لم ينم منذُ أيّامٍ وأنّ النومَ لن يصالح أجفانَهُ. يقين مباغت هدّأه: إذا عثر على أبيه، ربّما أحبّته امرأةٌ ما في المستقبل، وربّما يذهب عنه ما كانت تعزوه جدّتُهُ إلى لعنةٍ ولم يكن ببساطة أكثر من خجلِ يتيمٍ سابق. خَبَرَ هذا النوعَ من الراحةِ العابرة، التي يصل إليها بعضُ المحكومين بالموت، الذين يحتفظون بأمل أن تُخفّف عقوبتُهم في آخر لحظة.

هكذا نام، محاطاً بالإيمان، حتى دخلت الحافلةُ إلى سان مانوِل. استيقظ آليّاً وسار في الممر نحو السائق. كانت الجادّةُ الرئيسية في البلدة مليئةً بالمطبات فاصطدم رأسهُ أكثر من مرّة بمِقْبَضِ السقف.

"هل هذه هي سان مانوِلْ؟"، سأل وهو ينظر من النافذة إلى الأبنية القديمة في بلدةِ أشباحٍ على جانبي سكّة القطار..

"هنا بالضبط".

"أين المركز؟".

"كلّها مركز، في نهاية الجادّة تنتهي سان مانوِل وهناك الطرق... أنا أنعطف. إلى أين أنت ذاهب؟"، وبدأ ينعطف.

twitter @baghdad_library

"لا أعرف، أبحث عن شخص..." وعلى الفور فكّر كم ستكون بسيطة هذه المغامرة لو لم يتخلَّ عن حقيبة ظهره مع عنوان أبيه.

"إذن انزل هنا واسأل في البار".

نزل إيفان أمام باب بناء محطّة السكك الحديدية الإنكليزية التقليدية بواجهةِ قرميدها البارزة. كان الوقت ظهيرةً، والرحلةُ استغرقت، كما قدّر، أكثرَ من ساعة. كانت ستائر صفيح البار شبه منزلة، رغم ذلك كان يدخلُ إليه ويخرج منه رجال. في النافذة لافتة تقول "بار تشيتشو". خلف النافذة الطولية أطياف رجال مجتمعين حول طاولة. أصدر البابُ صريراً جعل خوف إيفان من الدخول يصبح هائلاً. بعدها وحين خطا الخطوة الأولى داخلَ البار، صرّ لوحُ خشب صنوبر ربّما تحمّل منذ قرن أوّل خطوة مُتلَهّفة وآخر خطوةِ مترنّحة لآلاف أبناء البلدة، فانتابته رغبة بالاختباء أو التراجع. لكنّ ديكور المحل الفوضوي مغنطه: على الجدران العالية والمقشورة بقيت دعاياتٌ من عصرٍ آخر، مُلصقاتٌ تعلن عن مُصارعة ثيران، أعلامٌ صغيرة لفريق بوكا وملصق عن تشكيل الفريق الوطني لبطولة 1976. لم يلتفت أحدٌ. لم ينتبهْ أحدٌ إلى أنَّ غريباً دخل. على طاولة بجانب النافذة، ستّةُ رجال غارقين في الجو، يلعبون بالورق لعبةَ الحيلة ويتناولون الجن. سُمِعَتْ دمدمةُ واحدٍ منهم: "هذا صحيح، لا يوجد حنوٌّ كحنُوِّ النساء".

حاول إيفان ألاّ يبقى ساكناً في ضوء هذا العصر الآخر. لعب لعبة التفكيرِ بأنّه إذا لم يتحرّك فسيبقى للأبد متجمِّداً في حلقة حنين هؤلاء الزبائن. خلف طاولة العرض كان هناك سيِّدة. سار إليها على مهل كيلا يعرجَ، متفادياً طاولة البلياردو الأمريكي ممزقة القماش، واثقاً من أنّ هذه المرأة، المميزة للبار كالصور والملصقات التي تملأ الجدران، يمكن أن تعرف شيئاً عن أبيه. نظرت إليه السيّدةُ دون استغراب. قالت له بنبرة غاليثية ونغمة أموميّة: "إذا كنتَ تبحثُ عن عمل، فلا عمل هنا". التفت إيفان. راقب بسرعةٍ مشهد اللاعبين

المبعثرين تماماً قبل الغداء في صالون متصلٍ بصالون البار الرئيسي. عادت هي لتتكلّم كما لو أنّها تلعبُ لعبةَ قراءةِ أفكارِ الغريب: "لا يستمرون النهار كلّه. في الواحدة سيذهب الجميع ليتناولوا غداءهم. ويعودوا بعد القيلولة. إذا كنتَ تبحثُ عن أحدٍ فستجده هنا".

أرعبت إيفان فكرةُ أن يكون أبوه بين الحاضرين ورآه يدخل عارجاً. كان هذا العيبُ يُخجله وسيكون أوّلَ شيءٍ يوضِّحه له. سيذكر سقطةً وسيحذف بالطبع المغامرة التي سبقت وصولَهُ وسيقول له إنّ إستِلا قد تُوفِّيت. بعدها سيقول له إنّه لم يأتِ ليطلبَ منه توضيحات، فهو يعرف ـ لأنّ رجلاً يُدعى ماركوز كان قد زاره وحكى له كلَّ شيء ـ حكى له أنّه أحبَّ إستِلا وأنّه عمل كلّ شيء كي يعثر عليهمَا حين هربت هي لأسباب ما زالت حتى بعد موتها لغزاً.

نظرَ إلى الوجوه، محاولاً أن يتعرَّفَ على أحدٍ يُشبِهه. كان فرطُ النورِ والغبارِ يمنعه من أن يميِّز ملامح تفصيلية. كانت الوجوه فارغة مثل أقنعة، والأصواتُ حلقيةً، بعيدة وغير واضحة، كما لو أنّها تخرج من حاكي. كان الفضاء الواسع والبارد والأرضيّة الخشبيّة الفارغ تحتها، يُحدثان صدى كان من الغرابة ما جعل جميع هؤلاء الرجال وأوراق اللعب في أيديهم يبدون وكأنّهم يناقشون في المطهرِ مشهداً من الجنّة.

"أبحث عن سيلبيو لوبو".

"سيلبيو لوبو؟ دعني أرى..." وبدل أن تنظر إلى الحاضرين، أغمضت عينيها كي تتذكّر. "يا مدينا، لوبو ذهب توّاً، أليس كذلك؟".

التفت على الفور رجلٌ ببيريه وشوارب كثّةٍ وقميصٍ مشمّر، هو نفسه الذي قال: "هذا صحيح، لا يوجد حنوٌّ كحنُوِّ النساء"، وأشار دون أن يفلت الورقَ أو يتكلّم إلى الصالون المتاخم.

"هل تريدني أن أناديه؟"، سألت المرأة.

twitter @baghdad_library

"لا، أرجوك"، قالَ إيفان كأنّه يتوسّل. "أشيري لي من يكون وأنا أذهب إليه".

"لنرَ، الآن أقوله لك"، انحنت فوق طاولة العرض، كما لو أنّها تُطِلّ من نافذة. "هناك، هل ترى هذا الرجل، الذي يرتدي كنزةً رمادية عالية القبّة ويضع نظارة، في العمق؟ هذا هو لوبو".

اخترق إيفان بنظره غبار الضوء الذي كان يملأ المكان، وغرز عينيه في ذلك الرجل، كما لو أنّه أراد أن يرشف هيأته. حرف لوبو، مثل أيّ شخصٍ يشعر باللاشعور أنّه مراقب، طرف عينه نحوه لحظةً عابرة، وعاد ليركّز انتباهه في اللعب الذي كان يتطور على الطاولة. لا يبدو أنّه كان يلعب، بل يُراقب كيف كان الآخرون يلعبون بتركيز يمكن أن يخلط بينه وبين تركيز خاسرٍ حقيقيّ، انسحب مذعناً من اللعب.

قال لنفسه إنّه ليس من المناسب أن يقتحم عليه حالته ويباغته. إذا اقترب منه عارجاً وقدَم نفسه كابنٍ له، يمكن أن يصيبه بالخزي، ويوقظَ عند بقيّة اللاعبين سخريةً، لن يغفرها له أبوه لاحقاً. سيقولون ابن لوبو بالحرام. كانت صاحبةُ المحل، التي صارت تعرف أنّه يبحث عن شبح وليس عن عمل، تُراقِب الوضعَ بعين إشاعةٍ مستقبلية يمكن أن تُبهِج مساءها. اتكأ إيفان بكوعهِ على طاولة العرض، بحث عن نقطة رؤية واضحة وتابع كلّ حركة من أبيه: لم يكن يُكثر من الحركة، وكان غائرَ الوجنتين، عميقَ تجاعيدِ الجبين والشدقين. واسعَ الصلع فوق الصدغين، رقيقَ الشفتين اللتين كان يبلّلهما بين فينة وأخرى بلسانه ويُجففهما آلياً بقفا يده، كما لو أنّ به عرَة.لم يكن يستطيع أن يعرف لون عينيه، لأن الضوء كان ينعكس على الزجاج الضارب للخضرة لنظارته الهائلة والفائتةِ موضتها. هذا صحيح، يمكن تمييز الحركةَ الوقورة التي يخفض بها نظره حين يطلب منه أحد اللاعبين حبات فاصوليا. عندما كان يشرع بالتبسّم، كانت تتشكّل فجوات، فتتراجع ابتسامتُهُ مباشرة. كان جلدُ وجههِ الأصفر يلمع، مثل كلّ الحاضرين المعرَّضين من أمامٍ للشمس، التي كانت ترشح من النوافذ الوسخة. ولكي يراقبَ فمَهُ ويتأكّد، مثلاً، مِمّا إذا

كان يحتوي على كامل أسنانه، أو لكي ينظر إلى يديه ويقارنهما بيديه ـ كان قد سمع أن الأبَ والابن يشتركان في البنية العظمية أكثر مما في الظاهر ـ كان عليه أن يقتربَ، فهو لم يكن يلاحظ عن بعدٍ أيَّ شبهٍ، باستثناء الملامح العامّة جدّاً، مثل عدم الرشاقة، وأنّ طوله متر وسبعون سنتيمتراً. ومع ذلك شعر أنّه ما إن بُدّل وضعيته، التي اتخذها بجانب طاولة العرض برضا صاحبة المحلّ، كيلا يُحسّ به أبوه، حتى التفتَ إليه الجميع معاً، على الأقل لخمس ثوانٍ كي يدرسوا ظرفه كغريب.

قرَّرَ الانتظار حتى يكسر شيءٌ سحرَ المكان. لا بد أن يذهب أحدهم في لحظة ما إلى الحمّام، أو أن يشرع عائداً إلى البيت لتناول الغداء، عندها ربّما استطاع أن يستغلَّ اللحظةَ ويجلس إلى طاولة قريبة ويدرسَ بصمتٍ تقاسيمَ أبيه. نظر إلى ساعة الجدار: بقي خمس دقائق كي تصيرَ الساعةُ الواحدة. بقي في ذات الوضعية قرابة النصف ساعة. التفت إلى صاحبة المحلّ، التي بقيت مترصّدة. وقبل أن يستطيع أن يقول شيئاً تدخَّلت: "من أين تعرف لوبو؟".

"لا أعرفه".

"إذن؟".

"جئتُ لأتعرَّفَ عليه"، توقّفَ فجأة، فقد كان وقعُ الجملة خطيراً وواشياً، كما لو أنّه في الحقيقةِ قال: "جئتُ لأقتله" ثم، ولكي يحرف الموضوع ويخرج من قلق كان يُزعجه منذ أن دخلَ البارَ، سألها عمّا إذا كانت تعرف ما الذي يُكرّس لوبو نفسه له، وهل عنده أولاد؟ همست له صاحبة المحل قائلة إنّه يُكرّس نفسه لقتل الوقت، مثل كلّ أهل القرية وأضافت: "هل تريدني أن أقدّم لك نصيحةً، إنّه رجلٌ مسكين، ابتعدْ عنه، فهو مريض. إذا كنتَ تبحثُ عنه من أجل دَيْنٍ ما، فكلّمْ الأختين بِنتورا، ليس عنده أولاد، لكنّهما تديران أعماله، تُسيّران كلّ شيء منذ سنوات، تعيشان معه، تطبخان له، تكويان ثيابه، تُطعمان حيواناته. إنّهما مثل ممرّضَتَين. قديستان. لا حدود لرأفتهما برجلٍ لا أحد يعرف عنه شيئاً ولا من أين جاء. بالتأكيد حدث معه شيء، إذ لا أحد

twitter @baghdad_library

يقبرُ نفسه في قرية مثل سان مانوِل كي يعيش أفضل. زوجي، الراحة لنفسه، دائماً كان يقول لي: "في وجه لوبو خوفُ شخص عمل عملاً مريعاً".

ضجيج الكراسي على الأرض كسرَ سحرَ الجوّ وقطع المونولوج. سرعان ما أظلم البارُ بمرور أجساد وأصوات جشّاء وسعال. اقتربَ بعضهم من طاولة العرض كي يدفع. خرج آخرون وهم يعلنون ما استهلكوه كي تسجّل صاحبةُ المحل ملاحظة في دفتر الدين. كان سيلبيو لوبو واحداً من آخر من انسحبوا. جَمَعَ حباتِ الفاصوليا، رتّبَ أوراقَ اللعب على الطاولة، سوّى نظّارته الثقيلة فوق الأثر الداكن الذي حفره جسرُها على جانبي الأنف، واستعدَّ للخروج من المحل، مثل الجميع تقريباً، معلناً عند طاولة العرض ما استهلكه. همّ إيفان، الذي كان على بعد مترٍ منه، بملاقاته، كان يكفيه أن يمدّ ذراعه ويلمس كتفه كي يوقفه، لكنّ حنجرته انسدَّت وسرت قشعريرة في جسمه.

تابعت صاحبةُ البارِ المشهدَ بهدوء حصيف ولم تتدخّل بمحض مصادفة، حيثُ اقترب أحدهم في تلك اللحظة كي يُسدّدَ حسابَ الأسبوع. استغلَّ إيفان الوضع وخرجَ خلفَ أبيه. رآه ينعطف في الزاوية. سار. حنى ساقَهُ اليمنى. اختفى الألم تقريباً. رفع رأسَهُ: منظر مقفر. تقلّص أولئك الرجال، الذين بدوا عندما خرجوا مئة، وتفرّقوا في العراء بحيث أنّك لو نظرت إلى الجهات الأربع ما كنت لتُميّز أكثر من عشرة أجساد مبعثرة، نقاط محايدة، يتحرّكون على أرضية العدم البلورية.

منذ أن أسرّت صاحبةُ البار له بأنَّ لوبو يملك عدداً من الحيوانات، كوّن إيفان فكرة مفادها أنَّ أباه بالتأكيد رجل نزيه. شخص يربي حيواناتٍ دون أن يذبحها ودون أن يأكلها لا يمكن أن يكون نصّاباً أو خائناً. دائماً كان يُفكّر بأنّ من يُربّون حيوانات، كمن يُربّون أبناءً، هم أشخاص لا محالة طيّبون، ومع ذلك وبسبب هذه الطيبة، ليس لديهم كلمات يقتربون بها من الناس.

تبعه مسافة عدّةِ كتلِ أبنية، على مسافة حذرة، في الجادّة التي تخترق القرية. كان لوبو يسير ببطءٍ تحت الشمس. توقّف فجأة في زاويةٍ وكأنّه

حدس حضوراً غريباً في الجوّ. لم يلتفت. جلس على مقعدٍ في الظلّ ورأسه بين يديه. عن بعد عشرين متراً حاول إيفان أن يتكهّن بما كان يُفكِّرُ به أبوه. تساءل عمّا إذا لم يكن على علمٍ بوجوده، عمّا إذا لم يكن قد عرف بوجوده عندما سألت صاحبة البار عنه، وعمّا إذا لم يكن يصارع اضطرابه في المقعد بانتظار أن يُبادِرَ ابنُهُ بالخطوة الأولى. قرَّر بدافعٍ غير عقلاني أن يتابع سيرَهُ، مارّاً أمام المقعد. إذا ناداه أبوه فسيلتفت ويجيبه، وإذا لم يُنادِه، فهذا يعني أنّه لم يعرفه في البار، ولم تَنْتَبْهُ شكوك، وسيدور نصف دورة، يعود إليه ويجلس بجانبه.

خلال ثوان صار أبوه أقرب إليه من أي وقت آخر وعاش انكماشاً مفاجئاً، مختلفاً عن الخجل الذي كان يعرفه جيِّداً. كان كما لو أنّ كل القوى الغابرة التي تسكنُ رجلاً قد أغرقته فجأةً وفي وقتٍ واحدٍ في داخِلٍ إجراميّ، كزّ على أسنانهِ وسارعَ خطوَهُ كي ينتصر على رعبه. سار مسافة كتلةِ أبنيةٍ تحت الشمس تماماً دون أن يعود. لم تمرّ بخاطره فكرةٌ أخرى غير الاختفاء. فجأة تساءل إلى أين سيذهب. لم يكن باستطاعته أن يعود سيراً على قدميه إلى تَنْديل وأقل من ذلك إلى بونوس أيرِسْ. استنتجَ في تلك اللحظة عندما سمع بوق الحافلة ذاتها التي جاءت به وحيّاه سائقُها، كما لو أنّه يعرفه منذ الأبد، أنّ الطريقةَ الوحيدةَ لخلاصه هي أن يستسلم لأبيه. لم يكن عنده مكان يعود إليه، لكن عنده، بلى، مكان يذهب إليه. تمكّن من إدراك أنّ أباه ينهضُ وينعطفُ في الشارع المتقاطِع مع الجادة. سارع خطوه، وحين أطلّ على تلك الزاوية رآه من الخلف، بذات المشية الغريبة، يدخل متجراً صغيراً أمامه، ورأى على الرصيف كلبين نائمين على ظهريهما تحت الشمس. كان هناك واجهة زجاجية فيها لوازم خياطة وبعض البياضات وعلى جانبِ بابٍ زجاجيّ لافتة، استطاع أن يقرأها على الرغم من الظهيرة، تقول: "مفتوح". هزَّ ساقيه، لم يعد هناك أثرٌ للعرج، فالرعب والتأثّر شفياه. أدارَ مقبضَ الباب، دفعه فدار بصريرٍ جافّ فوق أثرٍ محفور من زمن غابر على الأرضية الغرانيتية. أعلن عن وجوده

twitter @baghdad_library

رنينُ جلاجل. سيّدتان شائبتا الشعر تجلسان كلّ واحدة منهما على جانب من جانبي طاولة العرض. انتصبتا معاً، كما لو أنَّهما تنتظرانه منذ زمنٍ طويل. مال إيفان للتفكير بأنّهما عرفتاه، في مرآة متسخة تعرّف على أبيه، جالساً على كرسيٍّ هزّاز، في غرفة مجاورة. بدا أنين الكرسيّ العاديّ والهشّ نغماً تشكّل في جسدِ لوبو. في المتجر كان يطفو نور البار الفوضوي ذاته.

"هل من خدمة" سألت إحدى الأختين.

جمع إيفان يديه شابكاً أصابعهما، نظر إلى أبيه في المرآة، بدا له أكثرَ شيخوخة مما هو في الحقيقة. كانت تقاسيمه الحادّة وسالفاه الناميان تُضفي عليه صرامة الأعيان. كان يتنفَّس من فمه كمن ينقصه هواء.

وبينما راح يُقرِّر ما إذا كان من المناسب أن يسأل مباشرةً عن السيّد سيلبيو، أو يمرّر الوقت بالتحقّق من سعر قطعة ما، فيمعن فيه أبوه النظرَ، فتصبّ الحالة في حوارٍ يفتح أمامه إمكانية إن يعترف، دخلت على الخط الأختُ الأخرى، أمام وجومِ الزائر: "هل من خدمة؟".

ولكي يخرج إيفان من الحرج ولا يثير مزيداً من الشكوك حوله قال إنّه جاء بناءً على الإعلان.

"آه، حسن... كنتَ قُلْ هذا من البداية. منذ زمن ونحن ننتظر أحداً... هل أنتَ من تَنديل؟" نفى إيفان بحركة من رأسه لكن سرعان ما ندم. توتّر بسيطٌ ألقى بظلاله على عيون الأختين بِنتورا. افترض أنّهما لا تثقان بأن يملك شخص بمثل تلك الفتوّة اليفاعة والسوء في اللباس، المالَ، ليأتي ليشتري سيّارة.

"من مار دِ بلاتا"، قال على الفور ظانّاً أنّها المدينة الأقرب.

"وهل رأيتَ الإعلان في الصحيفة؟".

"جدَّتي عثرت عليه..."، ردّ آليّاً وشعرَ بأنَّ عمليَّةَ الكذب تمدُّهُ، إضافة إلى أنها تمنحُهُ متعةً مجهولة، بهويّةٍ حقيقيّةٍ وبأداة مثالية كي يستمرّ مستقبلاً. وبعكس ما ظنَّ دائماً، إذا كذب، هناك أحدٌ ما يمكن أن يُصَدّق حقيقته.

سرعان ما استرخت الأختان وتكلّمتا بصوت خفيض. صاحت إحداهما: "سيلبيو"، كما لو أنَّ لوبو كان بعيداً جدّاً. سُمِعَ لوبو يُغادر كرسيَّهُ الهزّاز ويأتي نحوهما مُجرجِراً قدميه. رآه إيفان في المرآة يقترب وعلى الفور صار أمامه. ما عاد يشعرُ بالخوف. عندما أسند هذا الرجلُ، أبوه، يديه الخشنتين والصفراوين إلى طاولة العرض، تعرّف إيفان في شكل الأصابع على أثرِ أبوّةٍ. ساد المشهدَ صمتٌ عميق.

"هل أستطيع أن أريك شيئاً؟"، سأل لوبو بخيط رفيع جدّاً من صوته.

"يا سيلبيو، هو ليس زبوناً، هو المرافق الذي جاء بناءً على الإعلان" لفتت إحدى الأختين انتباهه.

"ها ها... هل أنت مُمَرِّض؟"، أجاب رافعاً حاجبيه وخافضاً نظره. هزّ إيفان كتفيه وقال للأختين بصوتٍ خفيض إنّه لا يملك تجربة كبيرة لكنّه يستطيع أن يُساعد.

"لا. الشاب جاء كي يُرافِقك ويعتني بك"، أجابت إحداهما متأثّرة وهي تنظر إلى إيفان. نظرَ إليهما بمزيج من الارتباك والصخب من سوء الفهم الذي جاء ليُبسط خططَهُ. صفا وترك ابتسامة تفلت منه. على الرغم من أنّ أباه، باستثناء يديه، كان مختلفاً عمّا تصوَّره عندما كان يتكلّم مع ماركوز، إلا أنّ الأشياءَ جاءت في نهاية الأمر أفضل مما كان ينتظر. لا يستطيع أن يُضَيِّعَ الفرصة.

"هل أعجبك الفتى؟ جاء من مار دِ بلاتا"، همست إحدى الأختين بِنتورا في أذنه وقالت بصوت خفيف، وإن لم يكن خفيضاً إلى حدٍّ ألا يسمعه إيفان إنّه يبدو صبيّاً متواضعاً لكنّه نزيه. وهم لن يخسروا شيئاً إذا ما جرّبوه.؛ ثمَّ إنّهم لا يستطيعون أن يعيدوه إلى مار دِ بلاتا، دون استضافته. "طبعاً" أجابَ ثمّ أضافَ، بنبرة عالية ونشاز، كما لو أنّه أراد أن يصرخ ونسي الطريقة، إنّه يُفضّلُ أن تكونَ فتاةً وعمرها، إن أمكن، أقل من ثلاثين سنة.

twitter @baghdad_library

"لكن ما من فتاةٍ تقدَّمت، يا سيلبيو... بالنسبةِ للطبخ والغسيل نحن موجودتان"، وأضافت وهي توجّه نظرتها إلى إيفان: "نحن بحاجة لمن يحمله إلى الطبيب، يُرافِقه إلى البار، يُحمِّمه، يُساعده على الأكل. لا يمكنه أن يبقى وحده..."

"ما اسمكَ" قاطعها لوبو منزعجاً.

"إستِبان"، عرف إيفان في هذه اللحظة عندما نطق بالاسم الزائف، أنّه يستطيع أن يتخطى أيّ مأساة مستقبلية إذا ما حافظ على هذا الشكل من البعد.

"يا إستِبان هما ستقولان لك ما عليك أن تفعله. تستطيعُ إذا أردتَ أن تبدأ اليوم".

وعلى الفور أشارت له إحدى الأختين إلى الممر الذي يقع في نهايته الكرسيّ الهزّاز الفارغ، وطلبت منه أن يدخل. كان الممرّ يتصل بغرفة طعام نظيفةٍ، قليلةِ الأثاث، فسيفسائيةِ الأرضيّة، طويلة النافذة التي يظهر منها عمق مشجّر، فيه خمّ دجاج وحظيرة فيها خنزيران و كرسيّ صغير مضعضع تنام عليه قطّتان. بقيّة غرف البيت يبدو أنَّها ألغيت وتركت نصف مُصَلّحة منذ زمن مضى. ذكَّرت فوضى النباتات في العمق، وتَلَفُ الجدران والرطوبة إيفان ببيت جدّته في تِمْبِرْلي. تولّد لديه انطباع بأنّه وصل إلى ذلك المكان كي يعيد لسكانه فضاءاتٍ أُغلِقت بشكل غامض.

مع مرور الأيّام ما عاد يُفكّر بالطريقة التي يعترف فيها لأبيه من يكون. صار سرّه طبيعيّاً وغير محسوس مثل رتابةِ أخذه للتنزّه.. بدأ يستمتع بتلك العادة: مراقبته انطلاقاً من الغفل، إدارة حميميته بمجرّد أن يكون معه على انفراد. لم يكونوا يتكلّمون في البيت تقريباً. كانت كلُّ عناية ورعاية الأختين بِنتورا اللتين كانتا قادرتين على القيام، مصبوبتين على القطّين والكلبين ؛كلّ الكلمات مُخصّصة للزبائن القليلين الذين كانوا يدخلون إلى المتجر. أمّا بقيّة

الوقت، فكلّ شيء كان، كما لو أنّهم في بيت بروتستانتي، آداباً وإيماناً وصرامةً وَجِلَة.

كان لوبو يقضي معظم وقته جالساً، يُشاهد التلفزيون أو ينام باستثناء الصباح الذي كان يذهب فيه إلى بار تشيتشو. كان إيفان يُرافقه ويحكي له لوبو في الطريق، كما لو أنّ الكلام مسموح فقط خارج البيت، عن أشياء ويسأله أحياناً عن حياته. ولكي يُكلّمَهُ طوّر إيفان ـ أو يردَّ عليه، ذلك أنّه كان لا يتكلّم إلا عندما يوجّه إليه أبوهُ سؤالاً ـ عادةَ الكذبِ وابتداع ماضٍ وحياةً متناغمةً بشكلٍ مذهل في حيّ متواضِع من مار دِ بلاتا. لم يسأله لوبو قط عن والديه وبالتالي لم يرتجل إيفان قط الكذبة التي طالما راودته: ابتداع والدٍ آخر.

كانا عند عودتهما من البار يتوقّفان عادة في الجادة المشجّرة ليرتاحا على المقعد ذاته دائماً. قال ذات مرّة لإيفان إنّه عاش منذ سنوات طويلة في بوِنوسْ أيرِسْ، وعمل في البلديّة وكانت له أسرة. أوشك إيفان أن يعترف له بمن يكون، لكنّه أحجم. وماذا لو أنَّ اعترافه أبعده عن أبيه للأبد، بدل أن يُقرِّبه منه؟ هل يمكن أن يكون أقرب من الحقيقة من الآن؟ لكن وماذا لو لم يُصدّقه، أو لو رفضه ورماه في فورة غضب في الشارع، وأغلقت الأختان بِنتورا في وجهه الباب؟ أيضاً لا يستطيع أن يتكهّن بردّ فعل الأختين بِنتورا. هكذا وتحت جلد غريب يُدعى إستِبان اكتسب هويّة تامّةً كي يضمّ أباه.

لم يعد لوبو للحديث عن ماضيه. بدأ يتكلّم عن الموت كما لو أنّ الأمر يتعلّق بمشروع مهمّ أو تجارة تَعِدُه بأن تُصالحه مع ذاته. كان إيفان يوافق ويُفكّر، أنّه ما دام هناك يعتني بأبيه فإنّه لن يموت: لن يتركه يموت. عندما كان يقتنع أنّ حياته تتوقّف على وجوده، كان يجد نفسه ممسوكاً بشعورِ ابنٍ سرّي. لولا هذا السرّ، ما كان روتينه كدخيلٍ ليُطاق إلى هذا الحدّ. كان يرغبُ أحياناً بأن تستمرّ هذه الحالة سنواتٍ، عقوداً، ويتأثّر وهو يتصوّرُ نفسَهُ مُسنّاً ويخدمُ أباه.

twitter @baghdad_library

في البار كان لوبو يستغلُّ الوقتَ كي يعلّق تعليقاتٍ خبيثة حول سلوك الأختين بِنتورا. وكان يُعَبِّرُ عن نفسه بحيويّة تتناقض مع حالة الشيخوخة التي يكون فيها في الكرسي الهزّاز. كان يؤكّد عادة أن القبيحتين أنقذتا خطّاءً من قبره في أكثر لحظات عمره هشاشةً، كي تمنحا معنى ما لحياتهما القروية وتُبقيا عليه رهينةً حتى تستنفده الشفقة، كما كان يحدث بالفعل. كانت الأختان قد استولتا على البيت قبل خمسة عشر عاماً تقريباً ونهضتا بالمتجر. منذ ذلك الوقت تولّدَ عنده انطباع بأنّ جسده، عندما قطعتا مجرى فاجعته، راح يشهد شيئاً غريباً، هويّةً أخرى، أو شيئاً كان يُلاحظه الآن أمامه؛ كان مرضاً ناتجاً عن التسمّم البطيء بالرأفة، الذي لا شكّ هو سمّ الأختين بِنتورا، الذي لا يُقاوَم. فهو لم يشعر قط، قبل أن تدخلا في حياته، بأنّه مذنب، لا الخطأ أثْقَل عليه، ولا الشكُّ المفرطُ راوده قط، كما لم يكرَه قطّ أكثر من اللازم، ولا حتى عندما هجرته امرأة وأخذت معها ابنَهُ. كان إيفان يوافقه، ويعتقد أنّه يفهم ويكتشف أحياناً عند والده جنوناً يُرجعه إلى أمِّه.

عَلِمَ من خلال شائعات أبناء القرية في بار تشتشو، أنّهم سجنوا شرطياً متقاعداً كان يُحاكم لصوصاً من قريته، ويُبقي عليهم سجناءَ في غرفةٍ الزمنَ الذي كان يعتقدُ أنّه عادل. بينما كانت قوى القانون تفتش بيته وتسوقه موقوفاً مع ابنه وزوجته، تلقى تصفيقَاً تضامنيّاً من بعضِ الجيران. علّقَ أحدُهم قائلاً إنّ أموراً تحدثُ الآن في تَنديل لا تقل فظاعةً عن تلك التي تحدث في بونوس أيرِسْ، وأنه بين لحظة وأخرى يمكن أن تحدث ذاتُها في سان مانوِل. تساءل إيفان، الجالسُ بِجانب أبيه، ولم يهمّه الخبرُ قيد شعرة، عمّا إذا لم يكن سرّه بداية هذا الانحطاط. أغمضَ عينيه وقال لنفسه إنّه سيبقي على هويته سرّيةً ما لم يسأله لوبو مَنْ يكون. أدرك أنه مُقدَّرٌ عليه أن يعيش في ظلٍ مقدّسٍ قليلاً، فأطلق دمعةً وهو يتصوّر إستِلا على الجانب الآخر من النافذة تتجسّس على الأبِ والابنِ متحدَيْنِ أخيراً في الزمن.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
طالع	7
الرجل الذي لا نظرة له	15
فاصل	67
ثقب ماركوز	73
فاصل	145
رتابات زوجية	151
فاصل	207
نهاية الشوط	213

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

كان لوبو، قبل أن يتعرَّف على إستِلا دوران في مطعم منحطٍّ، يتردّد عليه سائقو سيّارات الأجرة والسكارى، ويُخطّط كي يضمّها إلى حقيبة اللحظات الحرجة. كان قد دعا للخروج معه بضع عشرة امرأة حتى ذلك الوقت من خلال صديق له في العمل، اعتاد أن يصلَهُ بصديقةٍ، ابنةِ عمّ أو أخت. وجميعهن وبالتساوي، حتى المجنونات والشبقات منهنّ، كنَّ يهربن مشمئزاتٍ من تفاهته ونهمه الإنجابيّ، الذي كان يقطر من عينيه الوادعتين والغراميتين.

عندما رأى لوبو إستِلا اكتشف فيها جوهرةً خاماً. امرأة لا يبدو أنّها عانت ولا أنّها تكرهُ أحداً. كان لها الطبيعة المشاكِسة لشابّة توشكُ أن تصير امرأةً، وهو ما شعر لوبو أمامه في البداية بأنّه منحرف. هذا هو النوع من النساء الذي أحبّه دائماً: بالإضافة إلى سمرتها وعينيها الداكنتين، ولأنها لا تزال شابّة، ينبغي ألاّ تكون قد لقيت معاملة سيّئة، وبالتالي يمكنِ أن تثق، بل وأن تعشق رجلاً مهتمّاً، ليس باللقاءات الجنسية المحضة، بل بشكل سماوي من البناء الإنساني: التخطيط لأسرة. عندها فكّر بأنّ تلك المرأة ليست صعبة المنال.

لكن إستِلا ستختفي مع ابنها بعد زواج قصير من لوبو، لتمضي هذه الرواية بحثاً عن إستِلا.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص. ب 1018 هاتف 422339
9789933477523